روايــة

يابعده

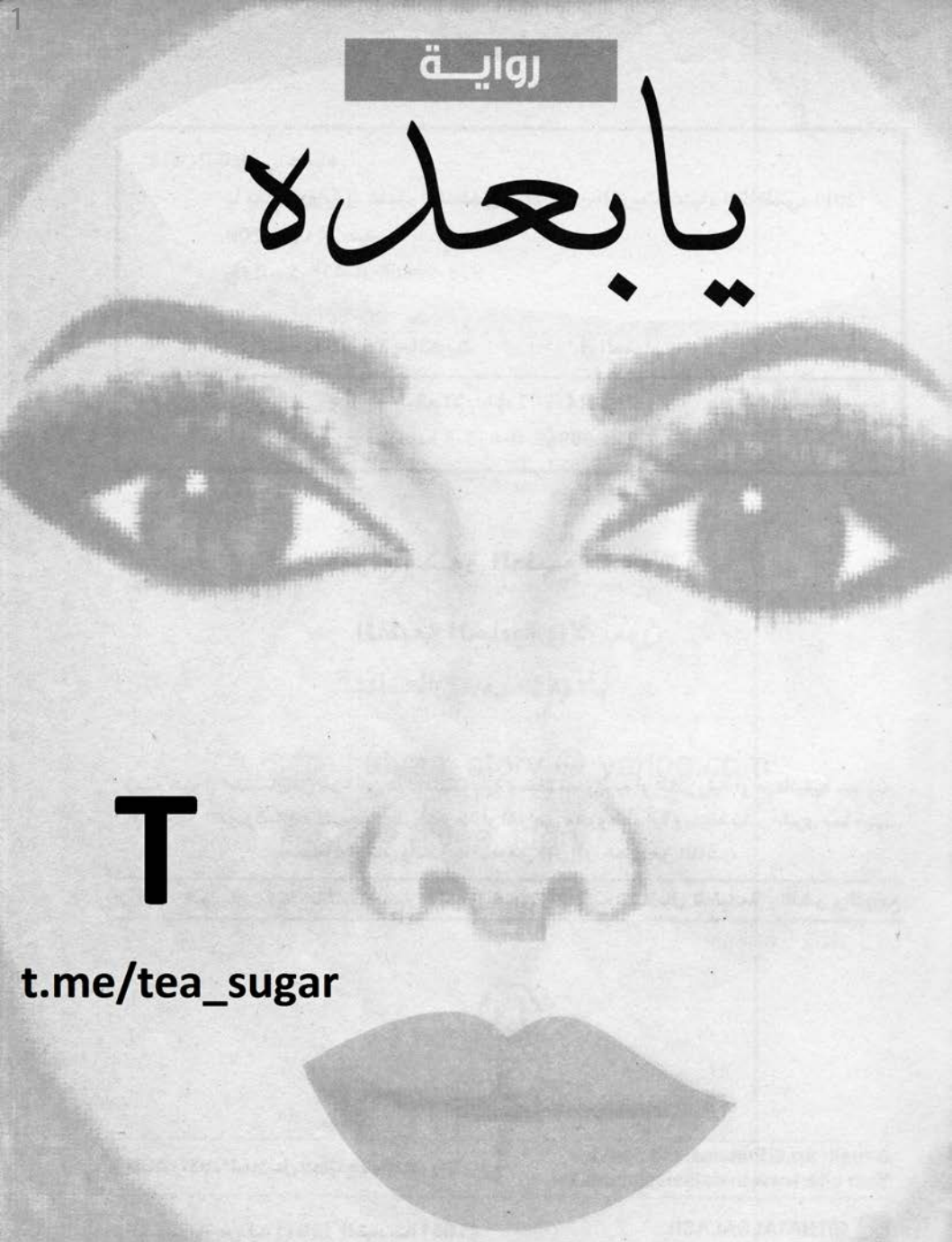

T

t.me/tea_sugar

علياء الكاظمي

813 الكاظمي، علياء.
يا بعده (رواية)/ علياء الكاظمي. - ط41. - الكويت: علياء الكاظمي، 2014
200 ص ؛ 24 سم.
ردمك: 978-99966-0-435-5

1. القصة العربية - الكويت أ. العنوان

رقم الإيداع: 2014/207
ردمك: 978-99966-0-435-5

جميع حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الحادية والأربعون
١٤٣٧ هـ - ٢٠١٦م

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات واسترجاعها، من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي ذات السلاسل للطباعة والنشر والتوزيع

الناشر: ذات السلاسل للطباعة والنشر والتوزيع
E-mail: ths@thatalsalasil.com.kw
Web site:www.thatalsalasil.com.kw

للتواصل مع الكاتبة

: alyaa_story @ yahoo.com

: @ alyaa_story

المقدمة

أحبتي . . . أعلنت من خلال برنامج الانستغرام أنني سأقوم بكتابة إصدار يضم قصصاً قصيرة حقيقية . . . وصلتني عشرات القصص وقتها من ضمنها القصة التي بين أيديكم الآن ، كنت وقتها في اجتماع عمل عندما وصلتني . . . ومن خلال هاتفي بدأت اقرؤها . . . ومنذ لحظة قراءتي لها عرفت أنها ستكون روايتي القادمة . . .

شدتني الأحداث . . . وشدتني العاطفة الصادقة التي لمستها بين سطور صاحبتها . . . وعرفت أنني سأقدم عملاً مختلفاً عن كل ما قدمته بالسابق . . .

تواصلت مع صاحبة القصة واتفقت معها على لقاء قريب ، سافرت بعدها إلى دبي ، ودون أن أبالغ كانت قصتها تدور في عقلي وقلبي طوال الرحلة . . . وبمجرد عودتي تواعدنا على اللقاء في أحد مقاهي الكويت الشهيرة . . . وجدت نفسي أمام فتاة جميلة ، راقية ، رائعة وشعرت أنني أعرفها منذ زمن . . . وعدتها يومها بكتابة قصتها كاملة مع تغيير بسيط لبعض الأحداث حفاظاً على خصوصية حياتها وحياة الشخصيات التي تعيش بيننا على أرض الواقع ، الأسماء في القصة مستعارة بالطبع وكلها من اختيارها هي ، أحببت أن تختار بنفسها عنوان الرواية أيضاً لكنني

قررت لاحقاً مفاجأتها به . . . هي مثلكم الآن . . . قارئة انتظر حكمها على قصة حياتها المصاغة بقلمي ، لأنني لم أسمح لها بالاطلاع عليها قبل النشر . . .

أحبتي . . . لقد تقمصت شخصية بطلة القصة خلال الكتابة و انصهرت روحي مع روحها فأحسست بمشاعرها ومعاناتها كاملة .

أحبتي . . . بين أيديكم عمل بذلت فيه مجهوداً ضخماً . . . وأتمنى حقاً أن ينال إعجابكم . . . عمل تفيض سطوره إحساساً بقصة فتاة نبيلة . . . عاشت حباً عظيماً . . . في زمن ندر فيه الحب . . . وشحت فيه المشاعر . . . وخُنقت فيه الأحاسيس . . .

أمر آخر أريد ذكره لمن أرسلوا إليّ قصصهم الحقيقية لأكتبها ، ستجدونها إن شاء الله ضمن إصداري القادم فلا تحزنوا . . . كما انتهز هذه الفرصة لشكر كل شخص أولى ثقته لقلمي وأئتمنني على قصة حياته . . . ونبضات قلبه . . . ثقتكم هي أجمل ما حصل لي . . .

فشكراً لكم . . .

أختكم الكاتبة:

علياء الكاظمي

(1)

البيت الكبير

لا أستطيع أن أبدأ قصتي دون أن أتطرق أولاً إلى بيتنا الكبير ، ففي هذا البيت بدأت قصتي وعلى أعتابه تغير مصيري بالكامل . . .

كان بيتنا كبيراً . . . يضم 21 غرفة ، رغم أن عددنا أقل من ذلك بكثير ، حول البيت حديقة ضخمة بنافورة رخامية غاية بالجمال وبيت جدتي والدة أبي ملاصق لبيتنا ويضاهيه بالحجم من الخارج رغم أنه مختلف بتقسيمه من الداخل . . .

عرفت جدتي نشمية بقوة شخصيتها . . . فهي سيدة العائلة بلا منازع وصاحبة الكلمة الأولى والأخيرة في حياة أولادها وبناتها ، كانت تمتلك هيبة لا تضاهى ، وصوتاً جهورياً تهتز الأرض لقوة نبراته ، وحزماً عجيباً لا يمكن لأحد مخالفته ، وكان أبي محمد ولدها البكر وابنها المفضل . . .

أحب أبي أمي منيرة ، ورغب بالتقدم للزواج منها رغم أنها كانت مطلقة ولها ابنة من زوجها السابق . . . وصارح جدتي برغبته ،

ورغم استغراب بقية العائلة وافقت جدتي على اقترانه بأمي . . . ربما لأنها تحترم أبي وتقدره ، وتعرف أنه رجل يعرف ما يريد ويستطيع تحمل مسؤولية قراراته ، حاول عمي ماجد وقتها أن يثني أبي عن هذا الزواج قال له إنه سيندم بعد أن تكبر ابنة زوجته وتصبح شابة . . . وقتها سيضطر لتحمل فتاة ليست من صلبه ، لكن أبي كان مصراً على اختياره ،

تم زواج أبي وأمي وكان زواجاً سعيداً ناجحاً ، أحبا بعضهما على الدوام وأنجباني أنا وأختي دلال التي تصغرني بأربعة أعوام وأخي الصغير مجبل الذي يصغرني بستة أعوام ،

لم أكن أعرف أن أختي تهاني لها أب آخر غير أبي إلا عندما دخلت المدرسة وتعلمت الكتابة والقراءة وقتها قرأت اسماً مختلفاً بعد اسمها الأول ، اسم يختلف عن اسم أبي محمد ،

يومها قلت بتعجب : تهاني . . . ما هذا الاسم الملتصق باسمك؟ ردت عليّ أمي موضحة لتجنبها الحرج الذي خلفه سؤالي المفاجيء : تهاني أختك مني أنا ، لقد كنت متزوجة برجل آخر قبل أبيك .

وسكت . . . في اليوم التالي ذهبت إلى منزل ماما نشمية لأسألها عن هذا الموضوع فقالت لي أن تهاني حفيدتها الكبرى وهي تعتبرها ابنة لأبي رغم أنها ليست من صلبه ونهتني عن الحديث في هذا الموضوع ، والحق يقال أن أبي كان يعامل تهاني دائماً مثلنا تماماً ، بل إنه كان يفضلها علينا . . . اعتاد أبي تدليلها والاستماع لرأيها في كل ما يخصنا ، كانت تكبرني بسبع سنوات . . . وفي المناسبات العائلية كان أبي يشتري لنا أطقماً من الماس فيدخل بيده أربعة علب كبيرة ، وننتظره أنا وأمي وأختي . . . فينادي أمي أولاً لتختار ثم ينادي تهاني بعدها . . . لم يعاملها كفتاة غريبة عنه ، بالعكس عاملها دائماً كابنة حقيقية له ولم يقصر معها في أي شيء مادي أو معنوي ،

لم تذكر تهاني والدها الحقيقي أبداً أمامنا ولم أكن أعرف إن كانت تتواصل معه أم لا ، لكنها عندما خطبت لأحد أقرباء أبي . . . عرفت أن أبي طلب منها

الاتصال بأبيها لابلاغه ودعوته لحضور عرسها ،

أقام أبي لتهاني عرساً باذخاً وأهداها مبلغاً مالياً محترماً لتجهز نفسها به ، كانت تهاني تقدر أبي كثيراً ، وقبلت يده شاكرة أمام الناس في عرسها عندما زف أبي عريسها إليها . . . فقبلها أبي على رأسها وضمها إلى صدره .

كان أبي يشغل منصباً قيادياً في الكويت . . . وهو شخصية عامة ومهمة . . . أحبه الناس كما أحببناه جميعاً . . . كان حقاً رجلاً عظيماً . . .

مرض أبي وهو في الستين من عمره ، وعندما تفاقم وضعه سافر إلى الخارج مع عمي ماجد ، رفض أبي أن ترافقه أمي خلال رحلة علاجه ، قال لها مداعباً : من يجالس المريض يصبح مريضاً مثله وأنا أشفق عليكِ من المرض . . .

بكينا طويلاً على فراق أبي وكانت تهاني أختي حاملاً وقتها . . . حتى جدتي نشمية المعروفة بقوتها وصلابتها بدت مهزوزة يوم ودعت أبي . . . همست أختي دلال وقتها في أذني : أشعر أننا لن نرى أبي مرة أخرى ،

لكزتها معنفة وقلت : لا تقولي هذا الكلام . . . أبداً . . .

لكنها كانت محقة فقد مات أبي بعد شهرين من سفره بعد فشل عملية القلب التي أجريت له ،

وصعقنا كلنا لخبر موته وبكينا بألم لا يوصف وأكثرنا ألماً كانت أختي تهاني التي ولدت لاحقاً وأسمت ولدها البكر محمد على اسم أبي رحمه الله .

(2)

بسمة

يقولون إن للمرء نصيباً من اسمه . . . وبما أن اسمي بسمة كانت ابتسامتي أكثر ما يميزني . . .

يقولون عني جميلة . . . وأرى نفسي مميزة . . . وما أراه في نفسي يختلف عن ما يراه الآخرون ،

يرى فيّ الآخرون وجهي البيضاوي الرقيق . . . وبشرتي الفاتحة وعينيّ الواسعتين المحفورتين في وجهي ، وأنفي الدقيق الصغير . . . وفمي الصغير الذي تحوله ابتسامتي إلى فم بيضاوي كوجهي كلما ابتسمت . . . بين أسناني فراغات صغيرة تضفي على ابتسامتي براءة طفولية محببة . . . وشعري أسود فاحم ناعم يصل إلى أسفل ظهري . . . في صوتي بحة واضحة مميزة . . . ومن يسمع صوتي لمرة يستطيع تمييز نبراته بعدها كل مرة . . . أميل إلى الطول وإن لم أكن فارعة الطول وجسدي متناسق معتدل القوام . . . ملامحي الدقيقة كانت تخفي خلفها جمالاً من نوع آخر لا يراه الآخرون لكنني كنت أعرفه حق المعرفة . . .

كنت فتاة ذات مبادىء . . . أحب الآخرين . . . أحب مساعدة من حولي . . . كريمة لأقصى الحدود . . . معطاءة بشكل لا يوصف ومتفانية في خدمة من أحبهم . . .

تقول ماما نشمية إنني ورثت صفاتها ، فقد كنت أشبهها كثيراً . . . سواء

بالشكل الخارجي أو بالطبع الداخلي ، لذلك كنت أزورها يومياً ، وأستطيع محادثتها بجرأة تفوق ما اعتاد عليه بقية أحفاد العائلة الذين يهابونها بشدة . . .

تجتمع عائلتنا الكبيرة في منزل جدتي كل جمعة ، فتمتد أمامهم سفرة عامرة بما لذ وطاب من الطعام ويقوم على خدمتنا خدم كثر بعضهم يعيش بشكل دائم في البيت والبعض الآخر يتم استدعاؤه حسب طلب جدتي في المناسبات العائلية كيوم الجمعة أو الأعياد . . .

أنجبت جدتي نشمية ستة أبناء من جدي رحمه الله ، كان أبي أكبرهم يليه عمي ماجد وأربع فتيات تزوجن كلهن من عائلات عريقة كعائلتنا . . . تعيش عمتي الصغرى حصة التي أحبها كثيراً في البحرين مع زوجها وكنت دائماً أراسلها واشتاق إليها وعندما تعود إلى الكويت كنت أقضي معظم وقتي معها ،

بعد زواج أختي تهاني . . . واظبت على حضور الغداء كل يوم جمعة مع زوجها وأبنائها الثلاثة الذين أنجبتهم لاحقاً . . . محمد . . . غنى . . . وإبراهيم الصغير الذي أحبه كثيراً . . .

كنت أعشق الأطفال بطبعي . . . وجميع أفراد العائلة يعرفون كم أحبهم ، وبعضهم كان يطلب مني الاهتمام بأولاده خلال أوقات اجتماعنا . . . أحببت أبناء تهاني على وجه الخصوص ، حتى أنها سافرت عدة مرات وتركت أبناءها معي ، كانت أمي تقول لي ضاحكة : غداً تكبرين وتتزوجين وتبحثين عمن يهتم بأولادك . . .

كنت أرد عليها بجدية : مستحيل أن أفرط بـأولادي أو أسافر يوماً من غيرهم . . .

في عيد ميلادي السادس عشر . . . ذهبت إلى منزل جدتي وبيدي قطعة من قالب الحلوى الذي أحضرته أمي بمناسبة عيد ميلادي ،

دخلت عليها فوجدت امرأة لا أعرفها تجلس أمام جدتي ، نادتني جدتي قائلة : تعالي يا بسمة . . . سلمي على جارتنا الجديدة . . . هذه خالتك عالية . . . لقد اشتروا المنزل المجاور لنا وانتقلوا إليه قبل عدة أيام .

اقتربت من خالتي عالية وسلمت عليها ولم أكن أعرف وقتها أن هذه المرأة سيكون لها دور لا يُنسى في حياتي لاحقاً .

(3)

أختي دلال

تخيفني أختي دلال . . . فمن صغرها تمتلك حاسة سادسة لا تخيب . . . لديها قدرة عجيبة على التنبؤ بالأحداث ، حتى جدتي نشمية لاحظت فيها هذه القدرة النادرة ،

أثناء حمل تهاني كنا نسألها عن توقعاتها بخصوص جنس المولود القادم ، وكانت تخميناتها دائماً صحيحة ، لا أعرف كيف اكتسبت دلال هذه القدرة ، لابد أنها أمر خاص ولدت به ، إنه بمثابة هدية ربما ، لطالما سألت نفسي إن كانت دلال بعد أن تكبر ستستطيع التنبؤ بأمور مهمة . . .

وهل تكون معرفة المستقبل - ولو على سبيل التخمين - أمراً جيداً أم لا؟

تشبه دلال أمي في شكلها حيث ورثت منها ملامحها بالكامل في حين كان مجبل نسخة مصغرة عن أبي الراحل . . .

كانت جدتي تضمه طويلاً إلى صدرها كلما اشتاقت إلى أبي . . .

بعد وفاة أبي حاول عمي ماجد التدخل بحياتنا . . .

أراد أن يعرف تحركاتنا ويقيدنا في كل ما نفعله بصفته عمنا وولي أمرنا ، ولولا تدخل جدتي لكان فرض علينا الكثير من القيود كما فعل مع زوجته وأبنائه ، لكن جدتي كانت له بالمرصاد ، قالت له جملة لن أنساها أبداً : أبناء محمد يظلون

أبناء الغالي . . . وغير مسموح لأي أحد التدخل في حياتهم أو إزعاجهم طالما كنت أنا على قيد الحياة مفهوم؟

طأطأ عمي برأسه يومها وخرج . . . ابتسمت أنا لجدتي وعرفت يومها أننا في حمايتها . . .

(4)

ذلك اليوم

كان يوم عيد ميلادي العشرين . . . قررت أن أقيم حفلاً لعيد ميلادي ، ودعوت فتيات العائلة وصديقاتي من كلية العلوم الإدارية حيث أدرس ، كان الجو جميلاً في فبراير وقررت أن تكون حفلتي في حديقة بيتنا . . .

ارتديت ملابسي على عجل لأذهب مع دلال إلى الصالون لنسرح شعرنا للمناسبة . . . استعجلتها كي لا نتأخر ،

لازلت أتساءل . . . لو كنا تأخرنا يومها في خروجنا . . . أكانت حياتي ستتغير؟

لكننا لم نتأخر . . . وخرجت مع دلال التي كانت في السادسة عشرة من عمرها يومها ،

فتحت باب المنزل ومشيت خلال الحديقة معها ، وبلحظة خروجنا من حدود منزلنا وحديقته توقفت أمامنا سيارة لا أعرفها ونزل منها شاب يرتدي ملابس رياضية . . . لم يكن الشاب هو من يقود السيارة فقد نزل من الجهة المجاورة للسائق . . . فُتح صندوق السيارة بنفس لحظة نزوله فلمحت حقيبة سفر كبيرة فيها . . .

خطوت لأركب سيارتي وخطى هو لينزل حقيبته فأصبحنا متواجهين تماماً . . . التقت عيني بعينه للحظة ، فأشحت عنه ، ركبت سيارتي وبجواري

ركبت دلال . . . التفت تلقائياً نحو الشاب الذي كان متسمراً في مكانه ولا يزال يحدق بي !

حركت سيارتي مبتعدة وأنا أقول لدلال : من هذا؟

قالت : هذا ابن جيراننا . . . سمعت جارتنا تخبر جدتي أن ولدها تخرج من الولايات المتحدة وسيعود قريباً إلى الكويت . . . لابد أنه هو .

أومأت برأسي وشغلت أغنية أحبها وأخذت أدندن معها ، لاحظت أن دلال ساهمة وصامتة تماماً على غير عادتها ، فسألتها مستغربة : ما بكِ؟ تبدين غريبة !

قالت دلال على نحو فاجأني : ذلك الشاب . . .

وسكتت . . .

قلت وقد اقتربنا من وجهتنا : ما به؟

لم ترد عليّ دلال . . .

قلت بنفاد صبر : دلال . . . ما به ذلك الشاب؟

قالت كلماتها التي هزت أعماقي : ذلك الشاب . . . سيكون زوجكِ يا بسمة . . .

وارتعشت أصابعي الممسكة بالمقود ، وقلت لها ضاحكة : يا لخيالك الواسع . . . ما هذا الكلام؟

سكتت دلال ثم قالت مؤكدة : سترين . . .

تنهدت وأنا أحاول منع كلماتها من التسرب لداخلي . . . ونزلت معها إلى الصالون ، وخلال دقائق نسيت تماماً كل شيء يتعلق بذلك الشاب ونبوءة دلال بشأني وشأنه ،

عدنا إلى البيت معاً وارتدينا أثوابنا الجميلة الزاهية ، أتت أختي تهاني أيضاً ، أما أمي فرفضت حضور الحفلة كي لا تشعر صديقاتي بالاحراج من وجودها قالت ضاحكة : سأحضر فقط وقت إطفاء الشموع .

كانت الحفلة باهرة . . . وناجحة بكل المقاييس . . .

أطفأت شموعي العشرين وسط تصفيق صديقاتي ، تمنيت لنفسي عاماً سعيداً . . . لكزتني صديقتي المقربة شريفة وهي تهمس لي : ادعي لي أن أتزوج قبلكِ . . .

ضحكت على كلماتها وقلت لها ضاحكة : الليلة ليلتي . . . والأمنية أمنيتي . . .

انتهت الحفلة . . . وبقينا في الحديقة لوقت متأخر بعد رحيل المدعوات أنا وأمي ودلال وتهاني ، خرج السائق ليوصل تهاني إلى بيتها . . . فمشيت معها أنا وأمي إلى السيارة ، لوحنا لها مودعين ، رفعت رأسي صدفة نحو منزل جيراننا ، فلمحت ذلك الشاب نفسه وهو يحدق بي من نافذته !

(5)

حمد

طويل هو . . . بل فارع الطول . . . أصل لأسفل صدره وأنا بالكعب ، فأنا قصيرة بالنسبة إليه ، وجهه مستدير مليح القسمات ، عيناه واسعتان ، أسمر البشرة ، دقيق الأنف . . . وشعره ناعم قصير مستقر فوق رأسه كدبابيس صغيرة لامعة . . .

كم هو عريض المنكبين . . . قلت لنفسي هذه الجملة عندما رأيته مرة أخرى في جمعية منطقتنا ، كنت قد ذهبت لشراء بعض حاجياتي عندما لمحته من بعيد . . . كان وحده وبيده سلة وضع بها بعض الحاجيات ،

تجاهلته عندما التفت نحوي وتقدمت لأدفع حساب مشترياتي فوقف هو ورائي تماماً ، نقدت موظف الجمعية ثمن ما اشتريته وكل حواسي متحفزة لجارنا الواقف بجواري ونظراته تكاد تحرقني ، نظرت إليه سريعاً وعندما التقت عيناي بعينيه جفلت وأشحت عنه ، ولم أستطع أن ألحظ لون عينيه ! مشيت نحو سيارتي مسرعة ولم ألحظ إن كان خرج ورائي أم لا لكنني أسرعت نحو المنزل وكأنني أهرب منه ، ترى ما اسمه؟ !

ذهبت إلى الجامعة في اليوم التالي وقضيت نهاري بصحبة صديقتي شريفة وبعد انتهاء محاضراتنا اتجهنا نحو سيارتي وشريفة التي تخاف القيادة معي لأوصلها إلى بيتها . . .

تسمرت قدماي وأنا ألمح جارنا يقف بجوار سيارتي بالضبط . . . وهو مستند على سيارته التي أوقفها عمداً بجواري . . .

تضاربت مشاعري عندما رأيته فجأة . . . وشعرت بخوف غير مبرر لرؤيته ، سألتني شريفة : ما الأمر؟ أنتِ تقفين وسط الشارع !

انتبهت إلى وقوفي المضحك وسط الشارع وبعض السيارات تنتظر مروري فتحركت نحو سيارتي وأنا أحاول عدم النظر إليه . . . اقتربت من باب سيارتي حيث يقف وقبل أن أفتح الباب همس لي : أنا اسمي حمد . . .

وفتحت الباب وركبت مسرعة وصدري يتهدج انفعالاً . . . حركت سيارتي مسرعة وشريفة تعبث بهاتفها ولم تلاحظ أي شيء . . . وأوصلتها إلى منزلها وقلبي لا يكف عن الخفقان . . .

في اليوم التالي ذهبت إلى الجامعة وأنا متحفزة . . .

وتساءلت إن كان هذا الحمد سيأتي اليوم أيضاً أم لا ، كنت منزعجة من ظهوره المفاجيء أمامي . . . ومن جرأته أيضاً ! لكن شيئاً ما كان يثير فضولي نحوه ، ماذا يريد مني؟

جلست على كرسي المحاضرة ساهمة . . . وانتقلت إلى محاضراتي كلها وتفكيري منحصر في حمد الذي كنت أتساءل إن كان سيأتي اليوم أيضاً أم لا ،

وفي نهاية اليوم اندفعت نحو سيارتي بخطوات مسرعة وشريفة تناديني لأنتظرها . . . ووصلنا إلى سيارتي . . . ولم أجد حمد هناك ، فزفرت بضيق ! أتضايقت لعدم وجوده؟ لا قطعاً لكنني تضايقت لأنه شاغلني بتصرفه الصبياني

بالأمس وجعلني في حالة ترقب طوال النهار . . .

أوصلت شريفة يومها وقد اتفقنا على الذهاب للعشاء في أحد المطاعم المشهورة على البحر ،

في تمام السابعة والنصف كنت أمام منزل شريفة لنذهب للعشاء ، وصلنا إلى المطعم الذي نحبه ودخلنا وسط ترحيب مديره ، وجلسنا على طاولتنا المعتادة ، وبمجرد جلوسي شهقت شهقة حادة أفلتت مني رغماً عني ، فقد كان حمد يجلس أمامي تماماً على الطاولة التي وراءنا . . .

جزعت شريفة وقالت وهي تلتفت نحو حمد : ما الأمر؟

ضربتها ضربة خفيفة على يدها وقلت وأنا أنهرها متوترة : لا تلتفتي . . .

سألتني شريفة : ما الأمر يا بسمة؟

قلت لها وأنا مغتاظة من حمد الذي كان يبتسم لي : هذا الشاب الذي يجلس وراءك . . . إنه جارنا . . . وأظن أنه يلاحقني !

(6)

التمويل

لماذا اخترت تخصص التمويل؟ لأكون صادقة معكم . . . لقد اخترته لسببين . . . السبب الأول أنه تخصص جميل وله مجال عمل واسع في البنوك والشركات الاستثمارية الكبيرة أي أنه تخصص مطلوب في سوق العمل . . .

والسبب الثاني هو الدكتور خالد . . . أو ربما يكون السبب الأول هو الدكتور خالد ! المهم أن الدكتور خالد سبب مهم من أسباب اختياري لهذا التخصص ،

كان الدكتور خالد أكثر الأساتذة وسامة في الجامعة بلا شك وقد يكون أصغرهم سناً فهو في ا لثلاثين من عمره ، أخذت عنده مبادىء التمويل ومن شدة إعجابي بطريقة شرحه قررت أن أتخصص بهذا المجال ، كان ذكياً جداً ، ويجيد توصيل المعلومة للطالب ، وليس مثل بعض الأساتذة الذين لا يهمهم أصلاً إن كان الطالب قد فهم المادة أم لا ، بل على العكس كان الدكتور خالد يهتم كثيراً بطلبته ويرحب بأسئلتهم ، ويخصص ساعات مكتبية كثيرة ليشرح لهم ما يحتاجون لمعرفته أو فهمه .

وتفوقت في التمويل بشكل خاص وشريفة أيضاً تفوقت فيه مثلي وأيضاً تخصصت فيه بسبب الدكتور خالد ،

جلست ذلك الصباح في محاضرة الدكتور خالد الذي كان يشرح لنا درساً جديداً . . . !

كنت ساهمة على غير عادتي . . . اقترب الدكتور خالد مني وقال بصوت عالٍ بعضَ الشيء لينبهني إلى عدم انتباهي : وبهذا نكون قد عرفنا كيف نحسب فرق العملة . . . معي يا بسمة؟

انتفضت في جلستي وقلت خجلة : معك دكتور . . .

ابتسم لي مشجعاً . . . وشريفة صامتة كظل لصمتي . . .

وانتهت المحاضرة . . . قال لي الدكتور خالد : خير يا بسمة . . . تبدين ساهمة اليوم . . . هل أنت بخير؟

ابتسمت له وقلت باحترام : أنا بخير دكتور . . . لكني لم أنم جيداً البارحة . . .

قال بلطف : إن أردت أن أعيد لك شرح المحاضرة تفضلي لمكتبي . . . أهلاً وسهلاً بك في أي وقت .

قلت بامتنان : شكراً لك دكتور . . .

ذهب الدكتور خالد . . . وبقيت جالسة على مقعدي ، وخرج كل الطلبة ، قالت شريفة : كم هو رائع . . .

سألتها : من تقصدين؟ قالت بتعجب : الدكتور خالد ومن غيره !

سكت . . . اقتربت مني شريفة وقالت : ستبقين هنا؟ هيا لنخرج من الجامعة لدينا ساعتان قبل محاضرتنا القادمة .

قلت لها : أشعر بالتعب اليوم .

قالت : تفكرين بذلك الشاب؟

قلت غاضبة : ماذا يريد مني؟ لِمَ أجده أمامي دائماً؟ . . . لا يمكن أن تكون هذه كلها صدفاً غير متعمدة .

ابتسمت شريفة : ولم أنت غاضبة هكذا؟ لابد أنه معجب بك . . . دعينا نخرج لنرفه عن أنفسنا ، لنذهبَ لشرب القهوة في المقهى القريب مَن الكلية .

أومأت برأسي وخرجت معها . . . ركبنا سيارتي وتوجهنا لذلك المقهى . . . وشعرت بتحسن وقد نسيت موضوع جارنا والازعاج الذي سببه ظهوره المفاجىء في حياتي .

عدنا قبل محاضرتنا التالية ، وبعد انتهاء محاضرات ذلك اليوم توجهت إلى سيارتي معها وتسمرت في مكاني ثانية وأنا ألمح حمد من جديد . . . لكنه هذه المرة يقف خلف سيارتي بحيث لا أستطيع الخروج من الموقف الذي أركن فيه !

اقتربت منه غاضبة وقلت بحدة : لو سمحت ابعد سيارتك . . . أريد أن أخرج سيارتي .

قال وهو يبتسم لي : سأبعدها . . . لم أجد موقفاً بجوارك هذه المرة .

كدت أصرخ لبروده : ولم تريد مجاورتي أصلاً . . . ماذا تريد مني؟ لم تحاول إزعاجي !!

قال بجدية : إزعاجك هو آخر ما أريده . . . سأحرك سيارتي حالاً . . .

وتحرك حمد بسيارته ، وذهب . . . وبقيت أرتعش غاضبة وشريفة تخبرني أنني بالغت بغضبي ،

وفي اليوم التالي لم أر حمد ، ولافي اليوم الذي بعده . . .

قلت لشريفة : أرأيت كيف أوقفته عند حده؟

لكنني كنت متضايقة لأنه اختفى ، أغاظني بانسحابه كما أغاظني بوجوده في طريقي . . .

ما الذي أريده أنا منه ! لا أعرف !

وبعد أسبوع كامل من غيابه . . . كنت جالسة في حديقة منزلنا مع ماما نشمية وأمي وقت العصر ،

كان الجو صحواً يومها . . . ودلال ومجبل أيضاً كانا يجلسان معنا . . .

وفجأة لمحنا جارتنا عالية تخرج من منزلها ، رأتنا جالسين فاقتربت منا . . .

كانت حديقتنا بلا سور . . . تعدت النافورة الكبيرة إلى مكان جلوسنا وسلمت على أمي وجدتي ،

دعتها جدتي للجلوس معنا فقالت : سأخرج مع ولدي حمد لنزور بعض أقربائنا . . .

وظهر حمد من بعيد وأخذ يتلفت بحثاً عن أمه التي نادته : حمد تعال لتسلم على جيراننا . . .

اقترب حمد بطوله المهيب ودخل حديقتنا ووقف أمامنا جميعاً فقالت أمه : أعرفكم على ولدي حمد ، لقد تخرج لتوه مهندساً من الولايات المتحدة ، ولا يزال يبحث عن عمل . . . حمد هذه ماما نشمية . . . وهذه خالتك منيرة زوجة ولدها محمد رحمه الله ، وهذه بسمة . . . وأختها دلال وهذا مجبل .

هز رأسه ليحيي كلاً منا . . . وعندما نظر إليّ وجدت نفسي ابتسم له . . . فرد ابتسامتي . . . فخفق قلبي !

قالت أمي : ما شاء الله . . . مبروك التخرج يا حمد . . . لابد أنك تفتقد أمريكا الآن صحيح؟

قال بنبرة لم يفهم معناها غيري وغير دلال التي لا يفوتها شيء : بصراحة الكويت أجمل ألف مرة من أمريكا . . .

قالت جدتي : جميل أن أسمع هذا الكلام ، كثيرون يتعلقون ببلد دراستهم وبعضهم يرفضون العودة لبلدهم وقد يعودوا مرغمين ، يبدو أنك لم تتأثر بالغربة يا ولدي .

قال بأدب : لا . . . كنت دائماً اشتاق إلى الكويت .

قالت أمه : حمد يحب الكويت كثيراً . . . حتى عندما كان صغيراً لم يكن يحب السفر . . . وعندما نسافر يظل طوال الوقت يحن للعودة . . . الحمدلله أنه أكمل دراسته على خير . . . عن إذنكم يجب أن نذهب . . .

وقبل أن يذهبا ، نظر حمد في عيني مباشرة وابتسم لي مرة أخرى . . . ولم أملك إلا أن أرد ابتسامته . . .

قالت أمي بعد أن ذهبا : هذا الرجل طويل جداً . . .

فقالت دلال : يجب لأمه أن تبحث له عن فتاة عملاقة .

وضحكت مشاكسة . . . فتجاهلتها تماماً . . .

وقد عرفت يومها أن شيئاً ما قد ربط بيني وبين حمد إلى الأبد . . .

(7)

مكالمة

كانت شريفة صديقتي بكل ما تعنيه هذه الكلمة من معنى ، عرفتها منذ أيام الثانوية ودخلنا الجامعة معاً ، نتقارب في طباعنا كثيراً ونتفق في الكثير من آرائنا وأفكارنا ،

أحبها كما أحب أختيّ تهاني و دلال . . . وبحكم تواجدنا معاً في كلية واحدة زاد تقاربنا أكثر وأكثر . . .

عائلة شريفة تضاهي عائلتي سمعة وعراقة إلا أنهم أقل ثراءً . . . وكانت شريفة دائماً قنوعة بوضعها المادي وجل أحلامها كان أن تتزوج برجل تحبه . . . لم يكن المال يهمها ولم تكن الماركات العالمية والتسوق ومتابعة آخر صيحات الموضة من جل اهتماماتها . . . كانت تؤمن دائماً أن الحب أهم من المال ، وأن الثروة الحقيقية تكمن في المشاعر الصادقة ، كانت شريفة جميلة . . . وبعيني كنت أراها أجمل مني . . .

كانت ممتلئة الجسد . . . تجاهد دائماً لإنزال وزنها وبمجرد أن تفعل تعود للأكل باندفاع فتستعيد ما فقدته من كيلوغرامات زائدة . . . فتتضايق من نفسها وتعود تجاهد لانزالها . . . لم تكن سمينة أبداً لكنها لم تكن نحيفة كمعظم الفتيات في عمرنا . . .

شعرها بني فاتح جميل جداً تتركه دائماً منسدلاً على كتفيها وترفض صبغه

أو استخدام مجفف الشعر كي تحافظ على صحته ولمعانه ، فتتركه متماوجاً على طبيعته . . . وكثيرات يعتقدن أنها تقوم بتمويجه بجهاز خاص ولا يصدقن أنه طبيعي هكذا . . .

تمتلك شريفة عينين بنيتين جميلتين جداً تحيطهما دائماً بكحل أسود يبرز لونهما الفاتح نسبياً ولديها ابتسامة مذهلة تكشف عن أسنان كاللؤلؤ المصفوف . . . لشريفة أطراف ناعمة فيداها جميلتان جداً وأصابعها طويلة رشيقة وكذلك أيضاً قدماها . . . وكل الأحذية بأنواعها تبدو جميلة في قدميها . . .

إن لشريفة جمالاً من نوع خاص ، ربما لو أنها ولدت في زمن آخر غير زمننا لكان الرجال تهافتوا للفوز بقلبها . . . أحبت شريفة مرة واحدة من قبل . . . وكان حبيبها أحد أقربائها ، حادثته في الهاتف لعدة شهور ثم فاجأها بقرار إنهاء علاقتهما . . . جرحت شريفة من قراره المفاجيء الذي لم تتهيأ له ولم تتوقعه فقد كانت منسجمة معه وتتقارب معه في الطباع وتوقعت أن تتوج قصتها معه بالزواج ، ولم يفصح لها الشاب عن سبب تركه لها ، كل ما قاله أنها تستحق شخصاً أفضل منه ،

وبعدها بعدة شهور سمعت أنه خطب فتاة فاحشة الثراء وأنه يعيش حالياً معتمداً على أموالها ،

تخطت شريفة خيبتها فيه سريعاً لأنها عرفت أنه لا يستحقها ، وعرفت أنه باع مبادئه وفضل المال على الحب الذي قدمته له بصفاء نية وإخلاص تام . . . ومن يومها قررت أن تنتبه ووضعت لنفسها شروطاً للرجل الذي سترتبط به ،

وقررت عدم الخوض في أي علاقة مع أي رجل إلا إذا طرق باب أهلها

أولاً . . .

كانت دائماً تخبرني أنها عندما تخطب ستشترط على أهلها أن تكون فترة الخطبة طويلة لتتعرف على الخاطب جيداً . . . وستشترط أن تحادثه بالهاتف لمدة كافية أيضاً . . . أصبح لشريفة رؤية أوضح لموضوع الارتباط بعد تجربتها الأولى الفاشلة . . .

الجميل في شريفة أنها تتعلم من أخطائها ولا تقف عندها طويلاً ، لكنها تصبح شديدة التعصب فيما يخص قراراتها ، فعندما تتخذ قراراً ما فهي لا تتراجع عنه أبداً . . . ومن هنا تكمن قوتها وتميز شخصيتها . . .

كنت أنا أكثر رقة ولياناً منها ، وأميل أكثر إلى التسامح في أموري ، وقد أعود سريعاً وأتعامل مع شخص جرحني بمجرد أن يبدي تجاهي بعض الود . . . كنت أنسى الإساءة ومستعدة دائماً لإعطاء الفرص والبدء من جديد . . .

في بداية ذلك العام الدراسي تقدم لشريفة شاب من عائلة طيبة لكنها رفضته فور رؤيتها له قالت إنها لم تجد في قلبها أي ميل نحوه ،

رفضها القاطع جعلني أتساءل في نفسي إن كانت شريفة ستغير قرارها بعدم التسرع وعدم خوض أي علاقة عاطفية في حال دق قلبها لرجل ما . . .

كنت أقضي نهاري بالجامعة مع شريفة وأقضي ليلي أيضاً وأنا أحادثها ، فأنا لا أشبع منها ودائماً أجد معها موضوعاً لنخوض فيه . . .

حدثتها بصراحة عن حمد . . . خاصة بعد أن عاد للظهور أمامي من جديد بعد لقائنا في الحديقة ذلك اليوم ، كنت أراه تقريباً في كل مكان أذهب إليه ،

الجامعة ، المطاعم ، السوق ، الجمعية ، حتى أنني رأيته مرة بجوار منزل شريفة أثناء خروجي من إحدى زياراتي لها خلال عطلة نهاية الأسبوع . . . اعتدت على ملاحقة حمد لي ، وكانت ملاحقته لي ترضي غروري كأي أنثى ترى في أثرها رجلاً يكاد يلتصق بها كظلها ، بل إنني أصبحت أشعر بالخيبة عندما أخرج إلى مكان ما دون أن أصادف حمد أمامي . . . ورغم علمي أن مصادفاته كلها متعمدة كنت أفرح بها كما لو أنها فعلاً مجرد مصادفات لا أكثر . . .

أخبرت دلال بشيء من الحياء عن ملاحقة حمد لي فصفقت بيديها ضاحكة وقالت :أخبرتك منذ رأيته ، سيقع هذا الرجل في حبك وسوف تتزوجان . أيمكن لحمد حقاً أن يكَون زوجي؟ راقت لي تلك الفكرة رغم أنني كنت أحسها بعيدة بعض الشيء ، ربما لأنني لم أكن أعرفه جيداً وبالتالي لا فكرة لدي عن جدية نواياه نحوي ، ربما كان يتسلى لا أكثر ، لكن أليس الأسهل عليه أن يتسلى مع غيري؟

على الأقل لن يضطر للبحث عني طوال الوقت ومراقبة تحركاتي التي لا أعرف حقاً كيف يستطيع متابعتها؟ !

عدت يوماً إلى منزلنا قرابة العصر وكنت قد أوصلت شريفة إلى منزلها كالعادة ،

وبمجرد دخولي إلى حديقتنا رن هاتفي النقال فإذا بها شريفة ! استغربت اتصالها فقد كنا مع بعضنا للتو . . . أجبت عليها ففوجئت بها تبكي بحرقة وتصرخ !

بالبداية لم أفهم شيئاً مما تقوله فوقفت مكاني وأنا أحاول أن أستوضح منها ما حدث . . .

كانت قد تشاجرت مع أمها لأن الشاب الذي رفضته في بداية العام عاد للتقدم لخطبتها وأمها مصرة على أن تراه شريفة مرة أخرى ، ومع إصرار شريفة على موقفها ورفضها للقاء رجل سبق أن رفضته ثارت ثائرة أمها . . .

تحدثت طويلاً مع شريفة وأنا أمشي في حديقتنا الكبيرة دون أن أدخل البيت كي لاتسمع أمي حديثي معها ، ولاحظت اتصالاً من رقم لاأعرفه يطلبني بالحاح وأنا أكلم شريفة ،

ضايقني الحاح ذلك المتصل وشاغلني عن متابعة حديث صديقتي وبعد أن اتصل أكثر من عشر مرات متواصلة في عشر دقائق طلبت من شريفة انهاء المكالمة على أن أعاود الاتصال بها من داخل البيت بعد قليل ، أغلقت الخط ،

وأمسكت هاتفي فرن على الفور . . . وكان نفس ذلك الرقم الغريب . . . يا لقلة ذوقه . . . أجبت غاضبة : نعم . . . من المتصل؟

جاءني صوت رجل لاأعرفه : مع من تتحدثين خارج البيت هكذا؟

فوجئت تماماً . . . من هذا الذي يتجرأ على التحقيق معي ! !

قلت بحدة : من أنت؟؟

فقال : أنا حمد . . .

ودُهلت . . . كانت تلك المرة الأولى التي أسمع صوته بالهاتف . . . فارتبكت وقلت : حمد؟ !

فقال بجدية : من كنت تحدثين؟

لا أعرف لم أسعدتني غيرته فقلت أناكفه : وما دخلك أنت؟

قال : بسمة . . . جاوبيني حالاً . . . من كنتِ تحدثين؟

ضحكت وقلت : إنها شريفة . . . تشاجرت مع أمها واتصلت بي و . . .

ولا أعرف كيف حادثته . . . كانت المرة الأولى التي أحادث فيها رجلاً غريباً عني . . . أكان حمد غريباً عني؟

لا أظن . . . فقد اعتدت عليه . . . ومؤخراً أصبح جزءاً من عالمي . . . حمد الذي أرسل القدر أهله ليشتروا البيت المجاور لنا ، والذي رتب القدر لقاءنا في يوم عودته بعد التخرج ، والذي أصبحت شغله الشاغل كما أخبرني لاحقاً . . . حمد الذي أحببته بكل جوارحي والذي أصبحت أحدثه كل ليلة بدلاً من شريفة . . .

امتدت مكالمتنا الأولى طويلاً . . . بعد أن دخلت إلى المنزل وتجاهلت شريفة ومشكلتها . . .

شعرت وأنا أحادثه أنني أحادث جزءاً مني ، جزءاً كان موجوداً دائماً إلا أنني كنت لا أعرفه ، لا أعرف كيف اشرح بالضبط إحساسي بحمد ، كان شيئاً جديداً وجميلاً في حياتي . . . احساس غمرني تماماً فتعلقت به كما تعلق هو بي أيضاً . . .

وعرفت عنه الكثير . . .

(8)

حبيبي

كانت عائلة حمد مختلفة عن عائلتي كثيراً ، الابن الأكبر في العائلة هو فواز . . . ثم هبة التي تكبرني بخمسة أعوام ثم حمد الذي يكبرني بأربعة أعوام كما عرفت منه وأخيراً سعود الصغير الذي لم يتجاوز الثامنة من عمره .

كان فواز متديناً يميل إلى التزمت ، أخته هبة محجبة منذ كانت في المرحلة المتوسطة وطبعاً أمه أيضاً محجبة ،

لا يختلط الرجال بالنساء في مناسباتهم الاجتماعية مثلما يفعل أفراد عائلتنا . . .

كما قالي لي حمد أن أمه تعتبر عائلتنا مثالاً للتحرر ! لم أغضب من حمد عندما أخبرني عن رأي أمه بنا فلكل عائلة طريقتها وقيمها ، وعائلتنا في الواقع متحررة نوعاً ما ، فأمي مثلاً غير محجبة وكذلك أغلب عماتي . . . وأبي رحمه الله عودنا على الحرية ولم يعلق يوماً على ملابسنا أو تصرفاتنا ، كانت ثقته بنا بلا حدود وطالما كرر أن أخلاق الإنسان لا علاقة لها بمظهره الخارجي . . . فكم شخص يرتدي زياً محتشماً يتصرف بلا حشمة والعكس طبعاً صحيح . . . لا يعني ذلك أن ملابسنا خالية من الحشمة لكننا كنا أقل التزاماً في نظر عائلات أخرى كعائلة حمد .

لم يحاسبنا أبي أبداً على خروجنا مع صديقاتنا واعتدنا كل عام على السفر

إلى أوروبا وعلى الاحتفال بأعياد ميلادنا . . .

لكننا كنا جميعاً نصلي ونصوم شهر رمضان ونتصدق بما لا نحتاجه من ثيابنا . . . ورغم ذلك كنا بنظر كثيرين عائلة متحررة كما تصفنا أم حمد .

كان نمط حياتي مختلفاً تماماً عن نمط حياته ورغم ذلك أحببنا بعضنا كثيراً . . .

لم يتأثر حمد أثناء دراسته بالخارج بالأجانب ، ظل دائماً كويتياً ملتزماً كما كان في الكويت ، ولم ينجرف وراء ملذاته كما يفعل بعض الطلبة المبتعثين للخارج ، اهتم كثيراً بدراسته ، أراد أن تفخر أمه بعودته مهندساً . . . والشهادة التي أخذها حمد وعاد بها أثلجت صدرها وأفرحتها كثيراً . . . أخبرني حمد أنه يحب أخته هبة كثيراً فهي تكبره بعام واحد فقط وقد قضى طفولته كلها معها ، كما أنه يحب طباعها اللطيفة ودماثة خلقها ، كانت هبة متزوجة من ابن عمها ولديها منه طفلة واحدة في الرابعة من عمرها ، حدثني حمد كثيراً أيضاً عن أخيه الصغير سعود . . . الذي اكتشف مؤخراً مدى شقاوته وبدأ يتعلق به ، فقد كان مجرد طفل صغير وقت سفره للدراسة وجاء الوقت الآن لتكون له علاقة خاصة به . . .

أخبرني حمد أن والده كبير في السن ومريض بالضغط والسكر وأنه يكبر أمه بأكثر من عشرين عاماً . . .

وشعرت من حديثه أنه أقرب إلى أمه منه إلى أبيه ، رغم إنه كان يحب أباه كثيراً ويقدره . . .

حدثته أنا كثيراً عن أبي الراحل وعن خصاله الطيبة وروعته ، وحدثته عن

أختي دلال على وجه الخصوص وأخبرته عن حاستها السادسة لكنني لم أجرؤ على إخباره عن نبوءتها بشأن زواجي منه !

توطدت علاقتي بحمد بسرعة كبيرة . . . وأخبرت شريفة طبعاً عن هذه العلاقة فأنا لا أستطيع أن أخفي عليها سراً مهماً كهذا . . .

تحمست شريفة لحبنا الذي شهدت على بدايته وكان حمد يحترمها كثيراً ويصفها دائماً بصديقتي الصدوق ، فقد لمس بنفسه مدى تعلقنا ببعضنا وإخلاص كل منا للأخرى ،

لم تستسلم شريفة لضغوط أمها عليها ورفضت رؤية ذلك العريس ثانية ، فكما ذكرت أن شريفة لا تتراجع عن قراراتها أبداً . . .

بعد أربعة شهور من علاقتي بحمد تم ترشيحه للعمل في وزارة مهمة في البلد . . . وزارة حيوية وفي قسم ذي شأن مهم . . . أخبرني حمد أنه احتاج إلى واسطة أحد أقربائه كي يتعين في مكان كهذا ، حزنت بداخلي لكون الواسطة الطريق الوحيد للحصول على فرص العمل الجيدة في بلدنا ، فرغم أن حمد قد تخرج من جامعة محترمة ومن الخارج وبمعدل عال إلا أنه لم يجد عملاً مناسباً إلا من خلال الواسطة تلك الوسيلة التي نكرهها لكننّا نجد أنفسنا مضطرين للجوء إليها بسبب مسؤولين لا يعترفون إلا بسطوتها .

(9)

عمتي حصة

كنت أحب عمتي حصة على وجه الخصوص أكثر من جميع عماتي . . . كانت قريبة من قلبي بشكل خاص ،

ربما لجمال روحها وخفة دمها . . . كانت قد تجاوزت الأربعين من عمرها لكنها تتصرف كمراهقة وزوجها يحبها بجنون ، ويعاملها كطفلة ، يغار عليها ويدللها أمام الجميع ، تحاول هي دائماً إثارة غيرته كأن تمتدح أحد الممثلين أو المطربين أمامه فيتجهم في وجهها . . . تضحك هي وتقول بدلال : لكنك أكثر وسامة منه ، فتتهلل أساريره كطفل كبير ، يشيعان حولهما جواً مرحاً محبباً كلما جاءا إلى الكويت ، فزوجها من البحرين . . . تزوجته بعد قصة حب عاصفة ، وأضربت عن الطعام لعدة أيام كي يوافق جدي على هذا الزواج ، أيدتها جدتي نشمية في موضوع زواجها وكان لها دور كبير في اقناع جدي رحمه الله بالموافقة . . .

لم تندم عمتي أبداً أنها تزوجت من رجل غريب ولم تندم لأنها تغربت عن بلدها وعاشت في البحرين معه ،

فكلما سألتها إن كانت ندمت على زواجها كانت تبتسم كأنها تحلم وتقول : أندم على زواجي من عادل؟ إنه الأمر الوحيد الصحيح الذي قمت به في حياتي . . . والله لو أن الزمن أعاد نفسه لكنت تزوجت به ألف مرة . . .

كان الحب بينهما عميقاً . . . راسخاً . . . جميلاً . . . ومن شدة دلاله لها

لم تشعر عمتي حصة أبداً أنها كبرت في العمر ، لم تجزع عندماوصلت للأربعين ، ولم تستوعب أن لها ابنة في الثانوية وولداً سيدخل الجامعة خلال وقت قصير ، فهي لا تزال طفلة مدللة عند زوجها الذي لم يتغير أبداً عليها . . . يناديها دائماً بروحي . . . ما أجمل ذلك النداء . . . ولأنها عاشت بسعادة كانت تبدو أصغر من عمرها بكثير . . . فبشرتها النضرة المشدودة بلا أي نوع من الخطوط أو التجاعيد وعيناها المتألقتان بسعادتها وشعرها الذي لم يغزوه الشيب أبداً فظل طبيعياً بلا أصباغ أعطوها مظهراً شاباً جميلاً . . .

زارتنا عمتي حصة بعد انتهاء امتحانات الفصل الثاني للجامعة وكعادتها حلت ضيفة في منزلنا الكبير ، كان وجودها في البيت نعمة رائعة ومن شدة حبي لها كنت متلصقة بها على الدوام ،

حكيت لحمد كثيراً عن عمتي حصة . . . لكنني لم أحك لعمتي شيئاً عنه . . . كانت عمتي في ضيافتنا هذه المرة دون زوجها فقد أتت لحضور عرس في الكويت مع ابنتها وقررت البقاء معنا لأسبوع بعده . . .

أصبح حمد يغار من بقائي الدائم مع عمتي فقد قلت مكالماتنا بحكم وجودي معها أغلب الوقت ، كما قلت فرص رؤيتنا لبعضنا لأنه التزم في الدوام ولم يعد يستطيع ملاحقتي كما كان يفعل سابقاً . . . لم أخرج مع حمد لوحدي أبداً فكل لقاءاتنا كانت مجرد لقاءات خاطفة . . . كأن يأتي إلى أحد المطاعم ويراني مع شريفة ، أو أن نتعمد الخروج من المنزل في نفس الوقت فأراه قبل أن أركب سيارتي ، أو ينتظرني أثناء خروجي من الجامعة فابتسم لعينيه اللتين تعكسان حبه لي ، لم أتجاوز معه أبداً حدود الأدب التي وضعتها لنفسي حفاظاً على سمعتي أولاً ، ولشدة حيائي ثانياً ، واحتراماً لثقة أهلي بي ثالثاً . . .

وفي يوم كانت أمي قد أخذت جدتي إلى موعد طبيبها الخاص لعمل بعض التحاليل الروتينية ، وكانت دلال قد خرجت لزيارة صديقتها ومجبل أيضاً عند أحد أصدقائه ،

وبقيت مع عمتي حصة وحدنا في البيت . . . كان الجو حاراً ورغم ذلك جلسنا في الحديقة بقرب النافورة ونحن نشعر برذاذها على وجوهنا . . . وقد طلبنا بعض المثلجات التي تعشقها عمتي . . .

وفجأة سألتني : بسمة . . . أتحبين أحداً؟

وارتبكت . . . ربما ارتبكت لأنني لم أتوقع سؤالها الذي فاجأني . . . قالت ضاحكة : أرى الحب في عينيك . . . أخبريني من هو حبيبك؟ من هو سعيد الحظ الذي فاز بقلبك الطيب؟

ابتسمت لها وأشرت نحو منزل حمد وقلت : يعيش هناك . . .

اتسعت ابتسامتها : لا تقولي لي إنك أحببت ذلك الشاب المتجهم الذي صادفناه قبل يومين؟

ضحكت فقد كانت تقصد فواز . . . أخو حمد . . . فقلت : لا لا ، أنا أحب أخاه الأصغر . . . وهو بشوش وطيب ، مثلي . . .

قالت ضاحكة : الحمدلله . . .

قلت : كما أن فواز خاطب منذ مدة وسيتزوج قريباً . . .

قالت : الحمدلله . . .

ساد صمت قصير بيننا . . . وفجأة قالت عمتي : بسمة . . . أريد أن أرى حبيبك . . . اتصلي به ودعيه يأتي الآن . . .

شهقت : الآن؟

قالت مؤكدة : نعم . . . أمي وأمك ستتأخران ، لن تعودا قبل ساعتين على الأقل . . . وكذلك إخوتك ، اطلبي منه أن يأتي الآن إلى الحديقة وحتى لو رآه أحد سأقول إنني ناديته لأسأله عن أمه وهو خارج . . .

أثارتني روح المغامرة واتصلت بحمد . . . وأخبرته أن عمتي حصة تريد رؤيته . . . وكررت عليه كلامها ، وخلال ربع ساعة كان حمد يقف أمامنا في حديقتنا . . .

شعرت بأنني أسعد فتاة بالدنيا . . . تمنيت لو تعلقت بذراعه وصرخت بالعالم كله : هذا الرجل حبيبي . . . كنت أرتدي ملابس رياضية يومها ووجهي خالٍ من المساحيق ونمش خفيف غير ملحوظ ينتشر على وجنتي . . .

صفرت عمتي بطريقة مضحكة وهي تنظر إلى حمد : يا الله كل هذا الطول . . . كان الله في عونك يا بسمة . . . سيكون صعباً عليك معانقة هذا الرجل حتى وأنتِ واقفة ! يجبَ عليك شراء سلم لتتطلعي في عينيه . . .

انفجر حمد ضاحكاً . . . وغرقت أنا خجلاً لجرأة عمتي التي تتصرف بعفوية كعادتها . . .

حادثت عمتي حمد لبرهة وسألته عن أهله وعمله الجديد ، كانت لطيفة معه . . . وقد لمست مدى ارتياحهما لبعضهما ، ففرحت واستبشرت خيراً . . .

كان وقوفه أمام عمتي قد أعطاني شعوراً بأن حمد أصبح لي رسمياً . . .أو بالأصح أعطاني شعوراً بالاطمئنان نحو نوايا حمد نحوي . . . فحضوره ومثوله أمام عمتي يعني أنه لا يخشى أن يعرف أحد من أهلي بعلاقتنا وذلك يعني أنه يخطط لارتباط حقيقي بيننا في المستقبل . . .

بقي حمد لما يقارب الساعة معنا وأكل معنا المثلجات ، وعندما انسحب تمنيت لو استطعت أن أجري خلفه لأضمه إلى صدري . . .

تضاعف حبي لحمد لمجرد تعرفه على عمتي . . .ياه كم سأحبه أكثر عندما يخطبني . . .

التفت نحو عمتي وقلت ضاحكة بعد ذهاب حمد : ما رأيك بذوقي؟

قالت وهي تحرك أصابعها بطريقة مضحكة : فنانة . . .اخترتِ أطول رجل في الكويت . . .

ارتاحت عمتي لحمد وأحبته كثيراً ودعت من قلبها : عسى الله أن يجمعكما في بيت واحد قريباً وتفرح قلوبنا برؤيتكما معاً كزوجين جميلين رائعين . . .

قبلت عمتي واحتضنتها إلى صدري . . . كم أحبها . . . وفي تلك الليلة كان أغلب حديثي مع حمد عنها ، وقد ارتاح لها كثيراً وأعجب بجمالها واهتمامها بنفسها . . .قلت له ضاحكة : ما تراه فيها مجرد مفعول سحري للحب تعيشه مع زوجها .

قال حمد بجدية : وأعدكِ أن تعيشي معي حباً مثله يا بسمة . . .وسكت . . . وعرفت أن حمد يخطط للزواج بي . . .

(10)

تهاني... غاضبة

كنا في منزل جدتي نشمية ذلك المساء أنا وأمي ودلال عندما دخلت علينا تهاني بوجهها الممتقع . . .

منذ لحظة دخولها علينا عرفنا أن هناك خطباً ما . . . فوجهها كان متجهماً وكأنها تحمل هموم الدنيا فوق رأسها . . .

قالت جدتي بصوتها الجهوري القوي : ما بكِ؟

قالت تهاني بسرعة وكأنها اختزنت الكلام بداخلها طويلاً : تصوري يا جدتي . . . لقد اتصل بي عامر محمد . . . يقول إنه يريد أن يرى أولادي ! ! !

وشهقت أمي . . . عامر محمد هو طليق أمي ووالد تهاني الحقيقي الذي لم تكن تتواصل معه أبداً ، ولم يكن له أي وجود في حياتها إلا في يوم زفافها حيث حضر العرس كأي ضيف غريب حتى أنه لم يجرؤ على التواجد في زفة الرجال . . .

قالت جدتي : ما الذي قاله لك بالضبط؟

قالت تهاني بصوت مقهور : أنا لا أعرف رقمه . . . وعندما أجبت عليه فوجئت به . . . قال إنه يريد أن يرى أحفاده . . . فهو مريض . . . ويحب أن يتعرف عليهم . . . أنا لا أريده في حياتي يا جدتي . . . هو لم يسأل عني طوال

حياته ، ولم يصرف عليّ فلساً واحداً . . . ولا أحفاد له عندي . . . أولادي هم أحفاد والدي محمد رحمه الله ، هو الذي رباني ورعاني وزوجني ، هؤلاء الأحفاد يخصون رجلاً غيره . . . الأب ليس مجرد اسم على الورق . . . الأب هو من يربي ويكبر ويهتم ويعتني ويصرف . . . أم أن لكِ رأياً آخر؟

وانفجرت تهاني بالبكاء . . . وقامت أمي واقفة وهي تهم بالذهاب . . . فقلت : إلى أين يا أمي؟

قالت ببساطة : القرار لماما نشمية . . . هي المسؤولة عنا وولية أمرنا بعد أبيك . . . هي من تقرر وهي الأكثر حكمة . . . اعذروني . . . يجب أن أذهب لمجبل . . . فهو وحده بالبيت . . .

وذهبت أمي . . . أو بالأخص . . . هربت . . . فذكرى طليقها لا تعنيها بشيء . . . فرجل مثل أبي يمحو أثر كل من أتوا قبله . . . كانت عشرته طيبة عطرة لدرجة أن من يعرفه لا يمكن أن يكون في عقله أو قلبه أي رجل آخر حتى لو كان مجرد ذكرى بعيدة . . .

لذلك انزعجت أمي وانسحبت وتركت الموضوع لجدتي ، فكرت جدتي قليلاً ثم قالت : تهاني . . . هذا الرجل كما قلتِ أبوكِ على الورق . . . إن كنتِ تريدين التعرف عليه بعد كل هذه السنوات وأن يكون له وجود في حياة أولادك فالأمر عائد لكِ أنتِ . . . هذا الموضوع يخصكِ أنتِ وحدكِ . . . ولا أحد يستطيع أن يبعد ابناً عن والده . . . فكري وقرري . . . في هذا الموضوع بالذات لا أستطيع أن أعطيك رأياً . . .

قالت تهاني من بين دموعها : أولادي لا يعرفون بوجوده أصلاً ، أيمكن أن

يكتشفوا فجأة أن لهم جداً آخر غير جدهم الراحل الذي اعتدت أن أحكي لهم عنه؟؟

كانت تقصد أبي طبعاً . . . مسكينة تهاني . . . كم كان موقفها صعباً . . . وبعد نقاش طويل أصرت جدتي على أن القرار في هذا الموضوع يخصها وحدها . . .

رحلت تهاني وغفت جدتي على مقعدها المفضل وظللت أتأملها . . . كم عظيمة هي هذه المرأة . . . إن تهاني ابنة كنتها . . . أي لا تقرب لها ، ورغم ذلك اعتبرتها حفيدة لها . . . لم تشعرها قط أنها فتاة غريبة حتى تهاني نفسها نسيت أن ماما نشمية ليست جدتها ، بدليل أنها أتت الآن لتطلب مشورتها . . . في صغرنا كانت جدتي تدلل تهاني أكثر منا جميعاً وتخصها بعيدية مضاعفة في الأعياد . . . كانت تقول لأنها أول الأحفاد . . . لذلك أعطيها الضعف . . . كم عظيمة هي جدتي وعظيم مثلها أبي رحمه الله . . . كم أحب أهلي وافتخر بهم . . . لقد تعلمت منهم دروساً كثيرة في الحب والتضحية ، فتحت جدتي عينيها فالتقت بعيني . . . فابتسمت لي . . . وبهدوء اقتربت منها وجلست على الأرض ووضعت رأسي على ركبتيها بعد أن قبلت رأسها . . . فربتت على شعري ،

قالت جدتي يومها جملة علقت في ذهني طويلاً : تهاني ابنتنا . . . أحببناها كما أحببناكم جميعاً . . . تهاني حفيدتي الأولى . . .

قبلت يد جدتي الحانية . . . وشعرت كم كانت أمي محظوظة لزواجها من أبي .

بعد تلك الحادثة بفترة ، سألت تهاني خلال زيارتنا الأسبوعية عن ما فعلته

بخصوص أبيها . . .

قالت بلا مبالاة : اعتذرت منه . . . فقد تخلى عن أبوته لي منذ زمن طويل . . . ولا يمكنه تعويض ذلك الآن . . . ولا أريد إقحامه في حياتي وحياة أولادي بعد كل تلك السنوات .

لم أناقش تهاني في قرارها . . . في الحقيقة والواقع ينسى الإنسان أهله عندما يتجافى معهم ويخرجهم من حياته ،

تبني الجفوة أسواراً بين الأهل وكلما مر الوقت ازدادت تلك الأسوار صلابة وارتفاعاً . . . إلى أن يصبح تخطيها ضرباً من المستحيل . . .

(11)

صيف مختلف

جاء صيف الكويت المعتاد بحرارته الشديدة وكنت قد سجلت للفصل الدراسي الصيفي ذلك العام ، اعتادت عائلتي على السفر خلال الصيف فلدينا شقة جميلة في لندن وبيت ريفي رائع في فرنسا تحب ماما نشمية السفر إلى ذلك البيت كثيراً وترتاح وتسعد في الطبيعة الرائعة التي تحيط به . . .

تم ترتيب سفرنا مع جدتي بعد انتهائي من الفصل الدراسي الصيفي ، لنذهب إلى فرنسا وقد قررنا عدم الذهاب إلى لندن ذلك العام .

جاءت تهاني لزيارتنا وسألت أمي إن كانت تمانع إن سافرت وحدها مع زوجها على أن تترك أبناءها عندنا لمدة أسبوع فرحبت أمي بأحفادها الثلاثة وكذلك رحبت بهم ماما نشمية ،

تعرف تهاني أنني أكثر من سيهتم بأولادها وأنني سأكون مسؤولة عنهم . . . فكما ذكرت أنا أعشق الأطفال وبالذات أبناء أختي الحبيبة . . .

سافرت تهاني مع زوجها وانتقل الصغار إلى بيتنا . . .

محمد الذي يحمل اسم أبي ، غنى الجميلة والذكية والتي لاتكف عن طرح الأسئلة وإبراهيم الذي لم يتعد عامه الأول والملتصق بخادمته . . .

انشغلت عن حمد في ذلك الأسبوع وكان يغار ضاحكاً من أبناء أختي الذين

استحوذوا على اهتمامي ووقتي . .

أخذتهم مرة إلى أحد المجمعات مع صديقتي شريفة ، فوجدت حمد هناك بانتظاري ، سلم الأطفال عليه وقد عرفتهم به على أنه جارنا . . . ولاحظت أن حمد لطيف جداً معهم بل ويجيد التعامل معهم وكسب قلوبهم بسهولة . . . ليس من السهل اكتساب قلب طفل لا يعرفك . . . لكن حمد حادثهم بسهولة واستطاع كسب ودهم بسرعة . . .

قالت شريفة وهي تراقب حمد يلعب مع محمد في إحدى الألعاب : سيكون أباً رائعاً . . . يبدو أن كلاكما يحب الأطفال . . . سيكون الأمر خطيراً . . .

ضحكت على تعليقها وقلت : ما هو الأمر الخطير؟

قالت تشاكسني : لأن هذا يعني أنك ستنجبين الكثير من الأولاد . . .

قلت حالمة : وما المشكلة؟

ضحكت شريفة : هذا يعني أنك ستكونين حاملاً دائماً وسمينة لبقية حياتك .

ضربتها على كتفها مداعبة وقلت : الأطفال زينة الحياة . . . أتمنى أن يكونوا كلهم يشبهون حمد . . .

لهذه الدرجة أحببته؟ لدرجة أنني تمنيت أن يحمل أولادنا ملامحه؟ تخيلتهم كلهم يملكون شعره الذي يضحكني شكله . . . تخيلت أطفالاً صغاراً يشبهونه بكل تفاصيله وعجزت عن تخيل طفل واحد يشبهني أنا . . .

الحب يجعلنا ننسى أنفسنا . . . أن نحب يعني أن نرى في الطرف الآخر كل الصفات الجميلة في العالم . . . أن نقدس ملامح الحبيب لدرجة أننا ننسى ملامحنا .

مر ذلك الأسبوع سريعاً . . . كان الصغار الثلاثة يشاركونني تفاصيل يومي بالكامل . . . ما عدا الساعات القليلة التي كنت أذهب فيها إلى الجامعة . . .

حتى سريري كانوا يصرون على النوم فيه ، أصبحنا ننام بطريقة أفقية مضحكة وأحكي لهم حكايات من نسج خيالي قبل أن نغط في نوم عميق كل ليلة ،

وبكت غنى عندما أتت أمها لتأخذها . . . أما محمد فقد قال لها إنها أتت باكراً ، الوحيد الذي فرح لعودة أمه هو إبراهيم الصغير . . . رحل الصغار وتركوا وراءهم فراغاً كبيراً . . . حادثني حمد ضاحكاً تلك الليلة وهو يقول : إذن رحل أولادكِ؟

قلت بحزن : رحلوا . . . كلهم !

قال وهو يقهقه : لكني لا أزال هنا . . . معكِ . . .

ابتسمت وأنا أتخيله : يا لك من ولدٍ . . . كبير !

قال : أنا ولدكِ العملاق . . .

ضحكت لوصفه نفسه بالعملاق . . .

واسترسلنا في حديث عذب لساعات . . .

انتهى الفصل الصيفي . . . واقترب موعد سفرنا . . . سألت حمد إن كان سيسافر . . . فقال إنه قد توظف لتوه ولا يستطيع أخذ إجازة ، سألته عن أهله . . . فقال إنهم غير معتادين على السفر ، فوالده مريض والسفر صعب عليه . . . وعرفت أنهم حتى في طفولتهم لم يعتادوا على السفر كل صيف مثلنا . . .

في ليلة سفري أحسست بالحزن لأنني سأبتعد عن حمد ، وشعرت بأنه حزين مثلي . . .

أوصاني كثيراً على نفسي ووعدته بالاتصال به كلما سنحت لي الفرصة . . . طلب مني أن أراسله من خلال الهاتف على الدوام . . . وأوصاني بعدم الخروج وحدي إلى الأسواق هناك . . . ضحكت وأنا أطمئنه ففي بيتنا الريفي تبعد عنا الأسواق كثيراً . . . وتحيط بنا مساحات خضراء شاسعة . . . كانت الطبيعة هناك جميلة ، وبصراحة كنت أجدها مملة . . .

لكن في ذلك العام أحببت الطبيعة كثيراً . . . كان كل شيء حولي يشعرني بالحب الذي بات يسكنني . . . كل شيء أصبح شاعرياً فجأة . . . كنت أشعر بحمد في كل شيء يلامس روحي . . . ملمس العشب الأخضر . . . السماء الصافية . . . نسمات الهواء الباردة . . . الزهور الجميلة اليانعة ، أصبح للطبيعة لون آخر في عيني منذ أحببت حمد ،

تمنيت صادقة أن يكون معي . . . سأصحبه إلى هذا المكان في المستقبل . . . أريده أن يرى كل هذا الجمال بصحبتي ،

عندما يملأ الحب قلباً ، فإنه يطرد منه الملل ، لأن الحب يشغل تفكير المحب . . . تصبح الوحدة صديقة حميمة . . . ويصبح الخيال رفيقاً عزيزاً لا تمل صحبته .

هكذا أصبحت أنا . . . أحب البقاء وحيدة لأفكر في حمد ، أحب تخيله معي ، أحادثه عن بعد . . . وأكاد أسمع رده في كل موقف . . . أحببته لدرجة أنني أحسست أنه معي حتى وأنا في بلد بعيد عنه ،

مرت رحلتنا سريعاً . . . كنت أتوق للعودة إلى الكويت . . . ودلال أيضاً تتوق للعودة وتأسف لأننا لم نذهب للتسوق في لندن مثل كل عام وتلومني على اصراري على أخذ فصل صيفي في الجامعة مما قلل الوقت المتاح لنا للسفر .

لم أهتم لغضب دلال مني . . . كنت سعيدة لأنني سأعود لحمد ، وفي الليلة الأخيرة لنا قبل السفر ،

جلست مع جدتي تحت ضوء القمر في فناء المنزل الخارجي ، كانت ماما نشمية ترتدي شالاً سميكاً من الصوف لتحمي نفسها من نسمات البرد القاسية عليها . . . ورغم أن البرودة لم تكن شديدة إلا أنني أعرف أن جسدها لم يعد قوياً كالسابق ، وأن نسمات باردة كهذه قد تؤدي إلى مرضها ،

نظرت إلى وجه جدتي المغضن وإلى ملامحها القوية . . . كانت تضع وشاحاً من الصوف أيضاً حول وجهها . . .

نظرت جدتي إلى ا لسماء المتلألئة بالنجوم طويلاً . . .

سألتها فجأة : بماذا تفكرين ماما نشمية؟

ابتسمت لي وقالت : أفكر بكِ . . .

تعجبت من كلامها وقلت : لماذا؟

قالت : لأنكِ تبدين مختلفة . . . اشعر أنك تغيرتِ . . .

توترت قليلاً . . . فمن الصعب إخفاء أمر عن جدتي . . .

سكت . . . قالت جدتي : أشعر أنك نضجت كثيراً . . . طوال حياتي وأنا أشعر أنكِ قريبة مني يا بسمة ، أنت مختلفةَ عن كلَ أحفادي . . . أنت تشبهينني كثيراً . . . شكلاً وخُلقاً . . . النظَر إليك يشعرني دوماً أنني أنظر إلى نَفسي . . . وكأنكِ أنا لكن في زمن آخر . . .

أثرت بي كلمات جدتي كثيراً ، فبالنسبة لي . . . كانت جدتي قدوة جميلة لإمرأة أحببتها واحترمتها طوال عمري ، وأن تقول إنها ترى نفسها في شخصي المتواضع شرف كبير لي ومسؤولية كبيرة أيضاً بأن أكون على قدر توقعاتها وثقتها ،

وقالت وهي تنظر في عيني : جميل أن يشعر الشخص أن هناك من يمثله . . . خاصة وقد أوشك عمره على النهاية .

قلت بسرعة : لا تقولي هذا الكلام يا جدتي . . . أطال الله في عمرك .

قالت بحب : الموت حق . . . وأنا لا أخافه . . . لقد عشت حياة سعيدة . . . دللني زوجي . . . ورزقني الله بالأولاد وشهدت ولادة أحفادي بل وبلغني الله بأولادهم ، منحني الله الكثير من اللحظات الجميلة . . . أتعرفين يا بسمة ، عمر الإنسان لا يقاس بالسنوات ، عمره الحقيقي يقاس باللحظات الجميلة التي عاشها . . . إن بعض اللحظات تعادل عمراً بأكمله . . .

قلت بإعجاب : كلامكِ جميل جداً يا جدتي .

قالت : أتمنى لك حياة جميلة يا ابنتي . . . تملؤها اللحظات السعيدة . . . أتمنى لكِ لحظات طويلَة من الفرح . . . فأنتِ تستحقين كل خير .

قبلت يد جدتي وربتت هي على شعري . . . لكن دعوتها تلك لم تكن مجابة للأسف . . .

(12)

عودة إليه

«أهلاً بكم في دولة الكويت» ابتسمت وأنا أقرأ هذه اللافتة وأنا وأسرتي نسير لاستلام حقائبنا بعد عودتنا من فرنسا . . .

كنت سعيدة لعودتي ، أحب الكويت لأنها وطني ، ولأن لي فيها وطناً آخر . . . فقلب حبيبي وطني الذي اشتقت إليه بجنون . . .

انتهينا من الإجراءات واستلمنا حقائبنا . . . ومجبل لا يكف عن التحدث عن الملل الشديد الذي شعر به في فرنسا ،

خرجنا من بوابة المطار إلى بهو القادمين من الخارج ،

التفت على الفور ورأيت حمد يبتسم لي ، فجفلت ، خفق قلبي بعنف وأنا أراه يتقدم نحونا في بادرة جريئة لم أتوقعها منه ، سلم على أهلي وقال إنه أتى ليقل صديقاً له سيصل بعد قليل إلى الكويت ، لم تشك أمي بشيء والحمدلله وكذلك لم تفعل جدتي ، لكن دلال التي تحاشيت النظر إليها قدر الإمكان لم تكف عن الابتسام وعن لكزي بكوعها . . .

تحركت أسرتي . . . وتعلقت عيناي بعيني حمد ، فابتسمت له أجمل ابتساماتي ، أرسل إليّ رسالة هاتفية حالما ركبت سيارتنا : نورت الكويت . . . لم أطق صبراً حتى أراكِ . . .

رددت عليه : لقد فاجأتني . . .

رد حمد : أحبك . . .

لم انتبه لدلال المزعجة التي كانت تتلصص على رسائلنا ضاحكة ، همست لي : إنه يحبكِ كثيراً . . .

همست لها : كفى . . . ستسمعكِ أمي . . .

سكتت دلال وفي عينيها ضحكة كبيرة ، سكت أنا وفي قلبي ضحكة أكبر . . .

(13)

خبر خطبة

أخبرني حمد أن أخاه فواز قد خطب . . . كان فواز يكبر حمد بأربعة أعوام . . . وإن كان يبدو أكبر منه بأكثر من ذلك بسبب ملامحه الجادة ووجهه المتجهم على الدوام .

كانت الفتاة التي خطبها صديقة لأخته هبة . . . فتاة محجبة ترتدي العباءة ومن عائلة محافظة معروفة بالتزامها . . .

عرفت من حمد أن خطيبة أخيه تعمل مُدّرسة لأن فواز لا يحب أن تعمل زوجته في مكان مختلط ولا يحبذ أبداً فكرة احتكاكها برجال غيره . . .

لسبب ما شعرت بالانزعاج لكل تلك المعلومات . . . ربما لأنني أحسست بالفرق الكبير الذي بيني وبين الفتاة التي اختارتها عائلة حبيبي لولدها البكر ،

تُرى هل ستفرح أم حمد باختياره لي إن صارحها حمد برغبته بالزواج مني؟

لم أتطرق لهذا الموضوع مع حمد بتاتاً . . . فأنا أعرف أنه يحبني كثيراً ، وأثق تماماً بنواياه نحوي ، صحيح هو لم يفتح معي موضوع الزواج صراحة لكنه لمح لي بذلك أكثر من مرة بمناسبات عدة ،

عرفت من حمد أن زفاف أخيه قريب جداً وأن أمه تنوي دعوتنا إلى العرس

بصفتنا جيرانهم بالطبع ، سألت حمد إن كان العرس سيقام في أحد الفنادق؟

فقال إنه سيكون في منزل أهل العروس . . .

أقفلت الخط ليلتها وأنا أفكر . . . وفي اليوم التالي أتت شريفة لزيارتي . . . احتضنتني طويلاً فقد اشتاقت لي خلال سفري . . . وبعد حديث قصير عن رحلتي وبعد أن أعطيتها هدية جميلة اشتريتها لها ، صارحتها بمخاوفي وأفكاري ،

قالت شريفة إنني واهمة ، فعائلة حمد ستتشرف قطعاً بمصاهرة عائلة عريقة مثل عائلتي ، وأن أمه سترحب بالتأكيد بزواج ابنها مني ،

حكيت لها أنني مختلفة تماماً عن عروس فواز ،

فقالت بحكمة : وحمد أيضاً يختلف عن أخيه . . .

شعرت بالاطمئنان يتسرب إلى نفسي بعد مناقشتي مع شريفة ، في الحقيقة يشعرنا الأصدقاء المقربون بالأمان ، فكل المشاكل الكبيرة تصبح صغيرة بمجرد أن نحكيها لهم ، إنهم يجعلون الحياة أفضل وأسهل . . . لمجرد وجودهم بقربنا عندما نحتاج إليهم . . .

كم أحبك يا شريفة . . .

بعد أسبوع من عودتنا من السفر بدأ الفصل الدراسي الجديد . . . ذهبت إلى الجامعة مع شريفة كعادتنا وانشغلت كثيراً بموادي الجديدة ، كانت لدي مادة مهمة عند الدكتور خالد الذي احترمه كثيراً وأقدره . . . وكانت تلك المادة معروفة بصعوبتها في التخصص لكني كنت مطمئنة . . . فالدكتور خالد كما ذكرت

ن يبخل على طلبته بالمساعدة ومستعد دائماً للشرح والتوضيح دون كلل أو ملل . . .

بعد أسبوعين آخرين اتصلت والدة حمد لتدعونا جميعاً لعرس فواز . . . ستقبلت أمي اتصالها بالترحيب وباركت لها ووعدتها بالحضور . . . قالت جدتي نها لا تستطيع الذهاب لكنها أوصتنا بالذهاب نيابة عنها . . . اتصلت بتهاني لأخبرها عن الدعوة وقالت إنها ستأتي . . .

دخلت غرفتي وأخذت أبحث عن ثوب مناسب . . . وكما تعرفون أردت ن أبدو جميلة وأنيقة . . . فهؤلاء هم أهل حبيبي وأريد أن أبهرهم . . . فمن يدري قد يكون العرس التالي في عائلتهم هو عرسي أنا . . .

جاءت دلال لغرفتي ضاحكة وهي تقول : ماذا سترتدين؟

قلت لها بحيرة حقيقية : لا أعرف !

اقترحت قائلة : ما رأيك بالفستان الأزرق الذي اشتريناه من لندن العام ماضي؟ لم ترتديه حتى الآن؟

قلت : لا لا . . . ذلك الفستان مكشوف جداً .

سألتني باستغراب : وما المشكلة ! الحفلة كلها نساء ! !

قلت بسرعة : أريد شيئاً أكثر حشمة .

ضحكت دلال : هل أنتِ جادة؟

قلت غاضبة : سأشتري ثوباً جديداً . . . ثيابي كلها لا تصلح .

تعجبت دلال مني . . . وفي اليوم التالي خرجت عصراً مع شريفة لنبحث عن ثوب مناسب ،

كان حمد سعيداً لاهتمامي بشراء ثوب لعرس أخيه ، لم يكن يعلم أن دولابي مليء بملابس أخاف أن تثير حفيظة أهله إن رأوني بها . . .

أخبرتني شريفة أنني أبالغ في خيالاتي . . . لكنني أردت أن أبدو بصورة معينة أمام أهله ففي ذلك العرس سيحضر أهله كلهم وأردت أن أترك انطباعاً معيناً لديهم عني . . .

خرجت مع شريفة عدة مرات ، وأتعبتها وأنا لا أقتنع بأي ثوب أجربه ، رفضت أمي الذهاب معي إلى السوق وطلبت مني ارتداء أي ثوب أملكه . . .

رفضت دلال أيضاً مصاحبتي لانشغالها في الدراسة ، فذهبت إلى أحد المحال المشهورة وحدي وأخيراً وجدته ، كان ثوباً من الحرير . . . يغطي كمه ثلاثة أرباع ذراعي . . . يضيق عند الخصر ويتسع عند الذيل . . . ولا يكشف أبداً عن جسدي . . .

أخبرتني البائعة أن لديها أثواباً أخرى تناسب عمري أكثر ، لكنني أحببت ذلك الثوب كثيراً . . . وأحببت لونه الأحمر جداً . . . كان الثوب فخماً رغم بساطته وعندما ارتديته بدا وكأنه صنع خصيصاً لي ، حتى البائعة أطرت على قوامي بإعجاب وأثنت على اختياري .

حملت الثوب الذي لم يكن بحاجة إلى تصليح - وهو أمر نادر حقاً - إلى

المنزل ،

قالت أمي التي تجلس في الصالة فور رؤيتي : اشتريتِ ثوباً؟؟

قلت لها : نعم ، وجدت واحداً رائعاً . . .

قالت مستغربة : تملكين الكثير من الأثواب لم يرها أحد منهم ، لم اشتريت ثوباً جديداً . . .؟

قالت دلال بذكاء : تقول إنها لم تحضر عرساً منذ مدة لذا أحبت أن تشتري ثوباً جديداً . . . أنا أيضاً أردت أن أفعل مثلها ما رأيك أن نذهب للسوق غداً؟

ابتسمت لدلال شاكرة . . . وصعدت إلى غرفتي . . . واتصلت بشريفة وقلت فرحة بمجرد أن سمعت صوتها : لقد وجدته !

(14)

العرس

ألقيت نظرة أخيرة على مرآتي قبل أن أنزل إلى أمي وأختيَّ المنتظرات في بهو المنزل . . .

ابتسمت لصورتي المنعكسة في المرآة . . . اتصل بي حمد عندما كنت بالصالون . . . سيكون مشغولاً بعرس الرجال ، وأكد عليّ أن أرسل له رسالة هاتفية لأخبره بمكان جلوسي كي يراني أثناء زفة فواز . . .

ارتدت أمي ليلتها ثوباً أسوداً أنيقاً وتحلت بعقد ماسي ضخم يخطف الأبصار ، ارتدت تهاني ثوباً أزرقاً بسيطاً وتركت شعرها المتماوج منسدلاً على ظهرها في حين ارتدت دلال ثوباً قصيراً بلون الورد اشترته من فرنسا . . .

أذكر انتقاد دلال لثوبي عندما رأته ، قالت إنني سأبدو كأم العروس ! وأنه لا يناسب عمري . . . لكنني لم أهتم برأيها ، فما رأيته خلال مرآتي اليوم يكفيني . . .

نزلت إليهن فشهقت أمي : ما أجملكِ اليوم يا بسمة !

صفقت تهاني كطفلة : الله . . . تبدين رائعة !

أما دلال فقد ابتسمت لي بإعجاب وقالت : لم أتوقع أن يكون الثوب رائعاً هكذا . . .

قالت أمي : أختكِ هي الرائعة . . .

كان الثوب فخماً ومميزاً . . . رفعت شعري كله خلف رأسي بتسريحة جميلة ورغم أنها كانت ثقيلة جداً وكأنني أحمل طفلاً فوق رأسي إلا أنني أحببتها . . . ارتديت كعباً عالياً منحني طولاً فارعاً . . . وارتديت أقراطاً ماسية ضخمة وخاتماً يناسبها بيدي اليمنى واكتفيت بساعتي الثمينة بيدي اليسرى ،

صبغت شفتي بلون أحمر كلون الثوب تماماً وكحلت عيني بكحل أسود فاحم . . . بدوت جميلة جداً ، أجمل من المعتاد . . . والحب في قلبي منحني روحاً ذات رونق خاص وثقة كبيرة . . .

وضعت دلال وشاحاً على كتفيها قبل أن تخرج وفعلت تهاني مثلها . . . أما أمي فلم ترتدي فوق ثوبها ذي الأكمام الطويلة شيئاً وكذلك أنا . . .

خرجنا لنركب مع السائق الذي أعطته أمي العنوان ذلك الصباح ليبحث عن البيت ، فلم تكن تطيق البحث بالسيارة مما يصيبها بالغثيان . . .

قبل أن نخرج قلت : أريد أن تراني ماما نشمية . . .

قالت دلال : لقد تأخرنا . . .

قلت بإصرار : سأطل عليها وآتي سريعاً . . .

خطوت نحو منزل جدتي مسرعة رغم كعبي العالي . . .

وكانت تجلس في الصالة مع عمي ماجد . . . دخلت عليهما فوقف عمي مبهوراً بجمالي . . . قلت ضاحكة : ما رأيكما؟

لمعت عينا جدتي بفرحة وقالت : تبارك الله أحسن الخالقين . . .

سألني عمي : ستذهبون إلى عرس الجيران؟

قلت : نعم . . .

قال : أخبرتني أمي . . . تبدين جميلة جداً يا بسمة . . . لم أكن أعرف أنك بهذا الجمال !

أسعدني إطراء عمي كثيراً . . . ورق قلبي عليه . . . فقد كنا نعامله دائماً بجفاء لأنه أراد فرض سطوته علينا بعد وفاة أبي . . .

قلت له بلطف : شكراً يا عمي الحبيب . . .

ابتسم لي وقال : حفظكِ الله يا بسمة . . .

سمعنا بوق السيارة بالخارج فعرفت أن عليّ الذهاب قبل أن تقتلني دلال ، فاستأذنت ذاهبة ،

خرجت لأركب السيارة وسط تذمر دلال مني لتأخري ،

وذهبنا إلى العرس . . .

كان منزل العروس آلاء كبيراً . . . إنه منزل ذو بناء قديم وقاعات كبيرة . . . عرفت لاحقاً من حمد أن هذا المنزل كان لجدها وبعد وفاته وقد استدخله والدها بعد أن سدد ثمنه للورثة ،

في السرداب الضخم الذي يضم قاعة كبيرة تمتد على حجم مساحة المنزل

الكبير كان الحفل . . .

دخلنا مع أمي التي تقدمتنا ، لمحتها والدة حمد ورحبت بها كثيراً ، بجوارها كانت أم آلاء وخالتها ثم وقفت هبة أخت حمد ، وكانت المرة الأولى التي أراها فيها ،

عرفتها على الفور قبل أن تقدمها أمها لنا . . . لم تكن تعرف وقتها علاقتي بأخيها . . . لكنها رحبت بنا بطريقة ودودة جداً . . .

تشبه هبة أمها كثيراً وتحمل بعض ملامح حمد ، أحسست أنها إنسانة طيبة ، وارتحت لها منذ رأيتها ، تقدمنا إلى داخل القاعة وقد اتجهت عشرات العيون صوبنا ، كنا مختلفين عن الحضور الذي يضم المقربين من العائلتين ، ولم يكن هناك أي من معارفنا في الحفل ،

جلسنا على يمين الكوشة في مكان بارز . . . وقد اخترت بنفسي مكان جلوسنا . . . حيث يمكننا رؤية العروس عندما تجلس بوضوح .

كان الحفل يضم أغاني بلا موسيقى ، كما تعتمد بعض الأسر المتدينة في أفراحها ، وكانت المرة الأولى التي أحضر فيها حفلاً كهذا . . .

بدت أم حمد سعيدة جداً . . . وقد أتت لتتحدث مع أمي عدة مرات ولتطمئن أننا على ما يرام ،

اعتذرت أمي لها عن عدم حضور ماما نشمية وأوصلت إليها سلامها . . . عند العاشرة والنصف دخلت العروس . . .

كانت آلاء قصيرة القامة . . . بيضاء البشرة . . . شعرها مصبوغ بلون بني فاتح جميل . . . ملامحها ناعمة . . . يبدو عليها الهدوء . . . دخلت وهي ترتدي ثوباً أبيضاً بسيطاً . . . وطرحة طويلة جداً تجرها خلفها وتساعدها أختها في جرها كلما خطت نحو الكوشة . . .

لم أكن أحب الطرحة الطويلة التي تتعب العروس في سحبها ، لكن دلال كانت تحبها وقالت إنها سترتدي طرحة طويلة جداً في عرسها كي أقوم بسحبها وراءها . . . ضحكت على تعليق دلال ،

همست لي : قد تكونين عروسهم التالية . . .

ابتسمت لها . . . سألتنا تهاني : هل ستبقون إلى أن يدخل العريس؟

قلت بسرعة : نعم . . .

قالت تهاني : لا أستطيع أن أتأخر كثيراً . . .

قالت دلال لتنقذني من خروج مبكر قبل رؤيتي لحمد : يمكنك أن تعودي مع زوجك إن أردت . . . لأننا نريد البقاء للعشاء . . . فهم جيراننا ونريد عمل الواجب معهم . . . لن يكون لائقاً أن ننصرف باكراً .

سكتت تهاني على مضض وأرسلت رسالة لزوجها بأننا سنتأخر وأخبرها أنه سيأتي لاصطحابها بعد ساعة ،

قالت أمي : تريدون البقاء للعشاء؟

أصرت دلال المنقذة : طبعاً . . . ألا ترين كيف فرحت بنا الخالة عالية؟ عيب

أن نخرج باكراً . . .

أومأت أمي برأسها موافقة على كلامها ، مددت يدي وضغطت على يد دلال شاكرة فهمست لي : عندما أحب . . . يجب عليكِ أن تردي لي الجميل . . .

ضحكت وضربت يدها : لازلتِ صغيرة على الحب .

مضى الوقت سريعاً ولم أنسى أن أبعث لحمد رسالة هاتفية كتبت فيها : نحن نجلس على يمين الكوشة . . . في الصف الثاني .

ولم يرد عليّ . . . لكن لابد أن رسالتي وصلت إليه . . . في الحادية عشرة والنصف قامت تهاني لترحل حيث وصل زوجها ليأخذها . . .

وبعدها بنصف ساعة . . . عند منتصف الليل تماماً أعلن عن دخول العريس ،

دخل فواز يتوسط أباه وحمد . . . وبجوارهم أخوهم الصغير سعود . . . ورجال آخرون لا أعرفهم وراءهم . . .

تعلقت عيني بحمد منذ دخوله . . . خفق قلبي وأنا أراه في الزفة وتخيلته عريساً . . . يرتدي البشت ، ويزف إليّ . . .

كان يبدو وسيماً . . . وبمجرد اقترابه من الكوشة التفت نحوي مباشرة ، لمحني فابتسم . . .

قالت أمي : العريس طويل جداً على العروس .

ولأول مرة انتبه لفواز . . . ذي الطول الفارع كحمد والذي يبدو ضخماً جداً بجوار آلاء الصغيرة الحجم . . .

بدت آلاء شديدة الخجل وقد تمت تغطية شعرها ووجهها بالكامل بقماش أبيض مطرز عند دخول الرجال فباتت كتمثال أبيض صغير لا يظهر منه شيء . . . بقي الرجال يسلمون على فواز ويباركون له زواجه وحمد يلتفت نحوي كل برهة ويبتسم لي سعيداً ،

بعد خروج أغلب الرجال بقيت أسرة حمد وحدها لتلتقط الصور مع فواز وعروسه وقد صعدوا جميعاً نحو الكوشة . . . كانت هبة تقف مع زوجها بجوار حمد وكذلك ابنتها الصغيرة . . .

وبعد انتهاء التصوير همس لها حمد بشيء ما ، فالتفتت نحوي بدهشة . . . ثم ابتسمت لي ابتسامة كبيرة ، وعرفت أن حمد قال لها شيئاً عني ، فخجلت وأطرقت برأسي . . .

عند العشاء أبدت بي هبة اهتماماً كبيراً . . . وكانت تسترق إليّ نظرات متفحصة لم تغب عن ملاحظتي .

وعندما حان وقت الرحيل ودعتني بحرارة وهي تقبلني ،

عدت إلى المنزل سعيدة وقد تملكتني أحلام واعدة تجمعني بحمد ،

وبمجرد دخولي إلى غرفتي رن هاتفي . . . وكان هو المتصل ،

سألته ضاحكة : كيف عرفت بعودتي؟

قال ضاحكاً : كنت أراقب بيتكم . . . ورأيتكم تدخلون . . .

امتدت مكالمتنا تلك الليلة إلى الفجر . . . ونمت خلالها من شدة التعب وأنا بثوب السهرة وعندما استيقظت وجدت الهاتف في يدي ،

قلت : ألو؟

فجاءني صوت حمد الذي بقي يستمع لأنفاسي النائمة : أحبك يا بسمة . . . حب يتسع للكون كله . . .

(15)

فبراير

نلتقي في حياتنا بأشخاص يغيرون مصيرنا . . . بعدهم لا يعود أي شيء كما كان سابقاً . . . كل ما بداخلنا يختلف ويتغير . . . وكل ما حولنا تصبح له دلالات مختلفة بسببهم .

منزلنا ، أصبحت أحبه أكثر من أي مكان في العالم لأنه ملاصق لمنزله ، سيارتي أصبحت أعشقها لأنها الوسيلة التي تنقلني إلى الأماكن التي تجمعني بحمد . . .

عيناي أصبحتا أكثر ما أحبه في وجهي لأن حمد يتغزل بهما ويقول إنه لم يرَ في حياته أجمل منهما . . .

كل شيء كان يتغير بمجرد أن يصبح له علاقة بحمد ، أصبح حمد كل عالمي . . .أقيس الأمور بمقياسه وأحب كل ما يحبه وأتأثر بكل آرائه ، لا يعني ذلك أنني ألغيت شخصيتي من أجله ، أبداً ، لكن روحي كانت تنصهر حباً فيه ،

شريفة ، دلال ، وعمتي حصة كلهن يعرفن بقصتي معه ، كلهن يعرفن كم هو قوي هذا الحب . . . وكم غيرني . . .

جاء عيد ميلادي الواحد والعشرين هذا العام مختلفاً ، لم أرد أن أقيم حفلة . . . فحفلتي الحقيقية هي حمد ، لم يعد يسعدني أحد سواه ،

ألحت عليّ دلال لنقيم حفلة . . . فكما تقول إنني سأبلغ سن الرشد ، والأمر يستحق الاحتفال ، ضحكت على كلامها ورفضت ، وفي يوم عيد ميلادي صحوت باكراً ونزلت إلى بهو منزلنا لأجد باقة من الزهور تنتظرني ، ابتسمت للباقة الحمراء الجميلة ، اقتربت منها وقرأت البطاقة ، «عيد ميلاد سعيد . . . جارتك هبة» وضحكت ، إنه حمد ، يتخفى تحت اسم أخته هبة ، سحبت أكبر وردة في الباقة الجميلة وقربتها من أنفي بحب ، قبلت أوراقها ، وأخذتها إلى غرفتي ، فتحت إحدى الروايات التي أحبها ووضعت الوردة بين صفحاتها ثم أخفيتها تحت مجموعة من الكتب . . .

اقتحمت دلال غرفتي فجأة وقالت : رأيت الباقة التي أرسلها حمد؟

ابتسمت لها ، وقد عرفت مثلي أنها من حمد المتخفي باسم أخته

وقلت : نعم . . .

قالت دلال : كم هي جميلة . . . أشعر وكأنه قام باختيارها وردة وردة . . .

قلت بهدوء : لا تبالغي . . .

قالت : ماذا سنفعل اليوم؟

قلت بخجل : يريد حمد أن يراني ، واعدته في السابعة على البحر .

قالت : ألن نخرج للعشاء؟ ألا تحبين أن نقوم بشيء مميز؟ ألا يكفي أنك رفضت الاحتفال !

قلت لها : يمكننا إحضار كعكة في يوم الزوارة الاسبوعية ما رأيك؟

قالت : لكن عيدك الحقيقي اليوم؟ دعينا نخرج . . .

لم أرد أن أخيب ظن دلال . . . فقررت أن أخرج معها هي وشريفة للعشاء في الثامنة والنصف . . .

بعد أن ألتقي حمد ، قلت لها أن تحجز طاولة لنا في أحد المطاعم . . . وأن تأتي إلى هناك مع السائق بعد أن تقل شريفة التي -ترفض القيادة- في طريقها ، أما أنا فسوف ألحق بهما بعد لقائي بحمد ،

اتصل بي حمد وشكرته على الورود الجميلة التي فرحت أمي بها ووضعتها في إناء زجاجي أنيق وقد أشادت بلطف هبة .

تلقيت عدة رسائل تهنئة على الهاتف من صديقاتي ومن البعض من قريباتي ، اتصلت بي عمتي حصة وقالت بلهجتها الكويتية - البحرينية التي اكتسبتها بعد زواجها : كل عام وأجمل بسمة بخير . . .

فرحت باتصالها كثيراً ، وأخبرتني أنها ستأتي إلى الكويت خلال عطلة العيد الوطني نهاية الأسبوع القادم .

سعدت لهذا الخبر ، وفي السادسة والنصف بدلت ثيابي وأنا ابتسم . . . ارتديت بنطالاً واسعاً أبيض اللون وقميصاً كحلياً ذا أكمام واسعة ، وحزاماً عريضاً جميلاً يظهر خصري النحيل . . . وحذاءً أنيقاً ذهبي اللون ، حملت حقيبتي الذهبية التي أحبها وخرجت بعد أن تزينت بعناية وتركت شعري منسدلاً خلف ظهري ،

قدت سيارتي إلى شارع الخليج وعند أحد المطاعم الفاخرة ركنت سيارتي ونزلت أمشي باتجاه البحر ، جلست على كرسي مقابل المياه الهادئة التي تسطع عليها الأضواء ، وخلال دقائق سمعت صوت حمد يقول وهو يجلس بجواري : كل عام وحبيبتي بخير . . .

نظرت إليه بسعادة وقلت : وأنت بألف خير . . .

قال حمد : مر عام على لقائنا . . . لا أصدق كيف مرت الأيام بهذه السرعة .

قلت : تقول ماما نشمية أن الأيام الجميلة هي التي تمضي بسرعة ،

قال حمد : وستكون كل أيامنا معاً جميلة . . . أعدكِ . . .

أخرج حمد علبة صغيرة من جيبه . . . فتحها فبرقت فيها دبلة ذهبية بها فصوص ماسية صغيرة براقة ،

التقط حمد يدي . . . ورغم خجلي لم أقم بسحبها منه ، وضع دبلته في اصبعي وقال : بسمة . . . أريد أن أتقدم للزواج بكِ . . .

فاجأني حمد تماماً . . . وتلعثمت ولم أعرف كيف أرد عليه ، انحنى وقبل يدي ثم تركها وقال : سأكون أسعد رجل في العالم إن أصبحتِ زوجتي . . .

نظرت إلى الدبلة التي ناسبت اصبعي تماماً . . . مددت يدي الأخرى ولمستها وكأنني أريد أن أتأكد أنني لا أحلم . . .

ثم نظرت إلى حمد بحب لا حد له ، قلت بصوت هرب مني : حمد . . .

أنا سعيدة جداً ، لقد فاجأتني . . .

قال : الليلة سأفاتح أهلي بموضوع زواجنا ، وبعدها سأطلب منك تمهيد الأمر مع أهلك قبل أن تتصل أمي بهم . . . المهم أن نكون معاً ، لم أعَد أطيق البعد عنكِ . . .

قلت : وأنا أيضاً . . . لقد أصبحت كل شيء في حياتي ، لم يعد للحياة معنى من غيرك . . .

مر الوقت سريعاً وأنا أكاد أطير من فرط سعادتي وأخيراً هممت بالقيام كي لا أتأخر على أختي وصديقتي . . .

وقفت مودعة لحبيب عمري الذي تضاعف حبه في قلبي بعد طلبه الزواج مني ،

أعطيته ظهري لأسير باتجاه سيارتي . . .

لكنه ناداني : بسمة . . .

التفت نحوه وقلت : يا بعده . . .

نظر إليّ متسائلاً : يا بعده؟

قلت بصدق وعشق لا تصفه الحروف : يا بعد قلب بسمة ، وعمر بسمة وروح بسمة * .

ابتسم لي ابتسامة كبيرة واقترب مني بقامته الطويلة وقال : أحبكِ .

---

* أسلوب للتدليل بين العشاق .

(16)

عشاء مختلف

لحقت بموعدي مع أختي وشريفة قرابة التاسعة ، دخلت إليهما في المطعم بوجه يفيض بشراً وسعادة ،

قالت دلال : لولا أنه عيد ميلادك لأكلنا أنا وشريفة قبلك وتركناكِ تدفعين لنا الفاتورة أيضاً .

قلت ضاحكة وأنا أجلس : مستعدة أن أدفع كل فواتيركما لشهر قادم . . . بل لسنة قادمة .

قالت شريفة : يجب أن توقعي على هذا الكلام والآن قبل أن تغيري رأيك . . . ما الأمر؟ ما الذي يسعدكِ إلى هذا الحد؟

رفعت يدي أمامها وشهقت كلتاهما وهما تريان الدبلة اللامعة في اصبعي . . .

صرخت دلال : سيخطبكِ؟

هززت رأسي إيجاباً ، فهتفت شريفة : ألف ألف مبروك ، ما أجمل هذا الخبر . . .

قلت : سيفاتح أمه بالموضوع الليلة . . .

قالت دلال : لقد أخبرتك . . . حاستي لا تخيب . . . كنت أعرف أنكما ستتزوجان . . . ألف مبروك يا أختي .

قالت شريفة : يجب أن أعمل رجيماً بأسرع وقت ، أعز صديقاتي ستتزوج وأنا على هذه الحال !

طلبنا على الفور عشاءً فاخراً على شرف عيد ميلادي الأسعد في حياتي وعلى شرف خطبتي المرتقبة ،

أكلنا كثيراً ، وشريفة التي كانت تتحدث عن الرجيم نسيت حديثها على الفور ، اقترب العاملون في المطعم مني وهم يغنون لي أغنية العيد ميلاد ويحملون كعكة صغيرة عليها شمعة واحدة ، أطفأت شمعتي وتمنيت أن يتم زواجي من حمد على خير . . . وبأقرب وقت . . . انتهت حفلتنا الصغيرة قرابة الحادية عشرة مساءً ، وصلنا شريفة بسيارتي وعدت مع أختي إلى المنزل ، لم تغضب أمي لتأخرنا فقد تعودنا على الحرية ، وتعرف هي مكان وجودنا وأننا نحتفل بعيدي السعيد ،

قبلتني أمي وقالت : أتمنى لكِ سنة سعيدة يا ابنتي الغالية .

قبلتها بدوري واحتضنتها بسعادة ، لمحت الدبلة في اصبعي ،

فقالت : بسمة . . . ما هذا الخاتم في اصعبك؟

أنقذتني دلال كعادتها : هذه هدية شريفة ، قالت إنها اشترت دبلة لبسمة لتكون فأل خير عليها وتتزوج سريعاً .

ضحكت أمي وقالت : كم غريبة تصرفات شريفة . . .

سنرى إن كانت فألاً طيباً أم لا .

نظرت إلى دلال بامتنان . . . وشعرت كم أحبها . . . صعدت إلى غرفتي . . . بعثت رسالة إلى حمد فلم يرد . . . اتصلت به فلم يرد أيضاً . . . بدلت ثيابي واندسست في سريري ، وتركت هاتفي بجواري كي أجيب حمد عندما يتصل ،

نمت من شدة التعب ودبلة حمد – الذي لم يتصل تلك الليلة – تلمع في اصبعي .

(17)

رفض غير متوقع

لم تعجبني نبرة صوته عندما حادثته في اليوم التالي ، شيء ما بصوته أخبرني أن الأمور ليست على ما يرام ،

وعندما ألححت عليه ليخبرني تلقيت صدمة عظيمة ، عندما أخبرني أن أمه غير موافقة على زواجنا !

قالت أمه إنني غير مناسبة لحمد ، فمن ناحية عائلتنا ذات تقاليد مختلفة عن عائلتهم ، فأطباعنا تختلف عنهم !

ومن ناحية أخرى وصفتني أمه بالفتاة المتحررة !

قالت له إنني غير محجبة ومتبرجة وفوق هذا أخرج وحدي مع صديقاتي وأتأخر كثيراً في عودتي ،

قالت إنني مختلفة كثيراً عن آلاء زوجة فواز . . . المتدينة والمحجبة طبعاً والتي تناسبهم جداً !

غضبت من كلام حمد الذي حاول تهدئتي ، وقال لي إنه لم يرد اخباري بكل ما قالته أمه لكنه لم يستطع إخفاء الأمر عني خاصة وأنه وعدني بالتقدم لي على الفور ، ولم يحب أن يبدو مماطلاً في نظري . . .

فوجيء حمد نفسه بردة فعل أمه التي وصفها أنها تبالغ ، لكنه أكد لي

أنه سيكون عند رأيه ، وسيصر على الزواج مني وإلا فإنه لن يتزوج أبداً طوال حياته ،

طمأنني بأنه متمسك بي ، وأنه لن يستسلم أبداً ، وحاول تهدئتي ، فقد استشطت غضباً لكلام أمه عنا ، وتمنيت لو استطعت الرد عليها ،

لكنني أحب حمد حقاً ، ورضاها مهم لإتمام زواجي منه ، لذلك قررت ترك الأمر له ،

فأنا في كل الأحوال لا أستطيع مناقشتها أو التحدث معها في أمر كهذا . . .

ذهبت إلى الجامعة بوجه مكفهر غاضب ، فوجئت شريفة بتبدل أحوالي عن البارحة ، جلست معها وحدنا وانفجرت قنبلة غضبي ، أخبرتها بكل ما قالته أم حمد وبلغتها برفضها لي . . .

قالت شريفة بحنان : لا عليك . . . أسبابها واهية ، ومع بعض الالحاح من حمد ستوافق . . . المهم أن حمد يَحبك . . . والأسباب التي ذكرتها أمه ليست خطيرة أو جوهرية بحيث أنها قد تمنع زواجكما ، تفاءلي بالخير وسترين .

قلت بحزن : ماذا إن أصرت على الرفض؟ أخاف أن أخسر حمد بسبب عناد أمه .

بجدية قالت شريفة : لن تخسريه مادام جاداً بحبك ، انظري ، لقد اشترى لك الدبلة . . . الرجل يريدك . . . وهو صادق في حبه .

ضحكت وأنا أقول : على فكرة . . . أمي تظن أن هذه الدبلة هديتك لي . . . دلال أنقذتني بهذا الكلام عندما لمحت أمي الدبلة . . .

ضحكت شريفة وخبطت على صدرها بطريقة مضحكة : حسبي الله عليكما أنتِ وأختكِ المجنونة . . .

وهكذا هي شريفة . . . تجعلني ابتسم حتى وأنا بأسوأ حالاتي ، ما أروع أصدقات . . .

(18)

مناقشات

أخبرت دلال برفض أم حمد لاختياره لي فجنت غضباً قالت بانفعال : من تظن نفسها هذه المرأة؟ من هي لترفضك؟ لو كنت مكانك لكنت رفضتهم وتركت حمد على الفور !

نظرت في عينيها . . . ورأت هي في عيني حب حمد الذي بات من المستحيل انتزاعه ، قلت بحكمة : هو لا ذنب له ، يحبني كثيراً ، وأنا أثق به . . . يحتاج الأمر لبعض الوقت والاقناع .

كادت دلال أن تصرخ : يا لبرودك يا بسمة ، تناقشين الأمر ببساطة . . . الموضوع يخص كرامتكِ وكرامة أسرتنا كلها و . . .

قاطعتها : دلال . . . أنا أحب حمد ، ولا يهمني ما تظنه أمه بنا ، لكنني لا أستطيع أن أتزوجه دون موافقتها ورضاها ، لذا أنا هادئة ، وخارج الموضوع تماماً ، حمد ينقل لي كلامها كي لا أظن أنه يماطل كما أنه يريد أن يكون صريحاً معي على الدوام ، لا يوجد حل سوى الصبر والانتظار . . .

لم تقتنع دلال بكلامي ، كانت تريدني أن أثور على حمد وأمه وأن أصرخ بأنني أنا التي لا تريدهم . . . وأن عائلتهم لا ترتقي لتناسب عائلتنا و . . .

لم أستطع لومها ، فكل شخص يشعر بغضب لا حد له عندما يتم المساس بكرامته وعائلته .

لم يتغير شيء بيني وبين حمد ، ولم أعد أسأله كثيراً عن موضوع الزواج . . . كنت واثقة أنه لن يستسلم لذا تركت الأمر له ، فتلك المرأة هي أمه وهو أقدر الناس على اقناعها ، المهم أن نكون معاً ، لهذه الدرجة أحببته ، لدرجة أنني لم أكن أتخيل حياتي بدونه ،

https://t.me/tea_sugar

أتت عمتي حصة كما أخبرتني وحلت مع زوجها هذه المرة ضيفين عزيزين في منزلنا . . .

كم أحبهما . . . كنت أشعر بأن الحياة كلها تبتسم كلما رأيتهما ،

بدت عمتي حصة متألقة وأخذت تتحدث عن ولدها الذي سينهي الثانوية خلال أشهر قليلة ويريد الدراسة في الولايات المتحدة ، لم تكن تتصور أن يعيش ولدها في بلد آخر بعيداً عنها ، قالت لها ماما نشمية إن الأمر عادي وسيعلمه الاعتماد على النفس ، وسينضج ويتحمل المسؤولية باكراً ، وكذلك كان رأي أمي قلت لأمي : إذن ستسمحين لمجبل أن يدرس في الخارج؟

قال مجبل الذي لم يتجاوز الخامسة عشرة من عمره وقتها : طبعاً سأدرس في الخارج ، كل أصدقائي يريدون الذهاب لأمريكا . . .

بدت الحيرة على وجه أمي لحظتها ، فضحكت عمتي حصة وقالت : الكلام سهل ، لكنك وقتها ستخافين ، أشعر بالخوف لفكرة أن ولدي الذي اعتنيت به طوال عمري سيعيَش وحيداً في بلد بعيد في قارة أخرى ، سأقلق عليه طوال الوقت ، من يهتم به؟ ومن يطبخ له؟ وماذا لو اتصلت به فلم يجب عليّ؟ ستتقاذفني الأفكار وسأعيش بقلق دائم . . .

قال زوجها : أنا درست في الخارج ، أتذكرين؟ كنت تشتاقين لي كثيراً . . . وتقلقين عليّ طوال الوقت .

طبعاً كان ذلك قبل زواجهما ، أيام حبهما الكبير ،

تنحنحت جدتي لتذكرهما بوجودها ، فضحكت عمتي وقالت كطفلة شقية : حبيبي . . . لا تقل شيئاً آخر أرجوك . . . ستغضب أمي . . . فهي لا تحب فكرة أنني أحببتك لسنوات دون أن تدري .

ضحكنا كلنا . . . حتى جدتي ابتسمت رغماً عنها ، فعمتي تتصرف بعفوية محببة . . . وتشيع حولها جواً مرحاً أينما حلت .

في أمسية لاحقة جلست مع عمتي في جناحها ،

كان زوجها خارج البيت . . . وبمجرد أن جلست على سريرها جلست بجواري وطوقت كتفي بذراعها ،

وقالت : ما الأمر . . . تبدين حزينة . . . ما الذي يحدث معكِ؟

غمرني حنانها على نحو مفاجيء ودون أن أعي وجدت نفسي أبكي وقد دفنت وجهي في صدرها ،

بلهجتها المحببة قالت : لا . . . لا . . . يبدو أن الأمر أكبر مما كنت أتصور . . . ماذا فعل حمد؟ أخبريني . . .

قلت من بين دموعي : ليس حمد . . . بل أمه !

وحكيت لها . . . كل شيء . . . قالت عمتي بعد أن انهيت حديثي : تريدين الحقيقة أم تريدين مني مجاملتك؟

قلت صادقة : الحقيقة طبعاً . . .

قالت : أمه معها حق . . . نحن مختلفون جداً عن هؤلاء الناس ، نحن فعلاً أكثر تحرراً وتفتحاً . . . انظري إلى حياتنا ، نحن نعيش كما يحلو لنا . . . لو كان حمد أحب ابنة عمك ماجد لكان الأمر أسهل مثلاً فهو معقد . . . مثل أم حمد .

ضحكت على كلامها . . . قرصت وجنتي مداعبة وقالت : اضحكي . . . ودعي الحياة تبتسم لك . . . واتركي الأمور لحمد كي يحلها بطريقته . . . وحاولي أن تتفهمي وجهَة نظر أمه بدلاً من أن تغضبي منها ، أمي مثلاً عارضت زواجي طويلاً ، كنت وقتها متيمة بعادل ، ولم اقتنع بكل حججها رغم أن بعضها منطقي . . . المهم في هذه المواقف أن يتمسك حمد بكِ . . . واعتقد أنه صادق بحبك ، ذلك الطويل بدا لي عاطفياً جداً . . .

قلت بخجل : اشترى لي هذه الدبلة في عيد ميلادي .

أريتها الدبلة التي لم أخلعها من اصبعي من يومها . . . صفقت بيدها فرحة وقالت : قلت لكِ . . . لدي نظرة لا تخيب بالرجال ، حمد لن يتخلى عنكِ أبداً . . .

قلت بحزن : فاتح أمه بموضوعنا بعدها مباشرة ورفضت .

احتضنتني بحنان وقالت : لأنها لا تعرفك جيداً ، والله لو أنها عرفتكِ لكانت

أسعد الناس لاختيار ابنها لكِ .

أسعدتني كلمات عمتي - وزرعت فيّ روح الأمل - وفي تلك الليلة حادثت حمد بروح مختلفة ، أحس هو بمزاجي الجميل الذي غاب عني لفترة قال لي ليلتها أن أكثر ما يسعده في هذا العالم هو رؤيتي سعيدة ، قال إن ابتسامتي هي أغلى شيء لديه ، أخبرني بحب : أتمنى أن أكون دائماً سبباً لسعادتك . . . لا أريد شيئاً من الدنيا كلها سوى أن نكون معاً لأنعم بقربك وأتغزل بجمال عينيك وابتسامتك .

أثرت بي كلماته . . . داعبت الدبلة في اصبعي . . . دعوت أن يأتي اليوم الذي أرتدي فيه دبلة حمد أمام كل الناس . . . كان زواجي منه هو الحلم الذي أصبحت أعيش من أجله ، تقدم لي عريس في تلك الفترة ورفضته على الفور ، لم تناقشني أمي برفضي لأنه كان يدرس في الخارج دراسات عليا ، وتعذرت أنا بهذا السبب ، فأنا لا ما زلت بالجامعة ، ولا أريد السفر مع رجل لا أعرفه بعد الزواج .

عرفت جدتي عن العريس الذي كان من عائلة طيبة تعرفها جيداً ، وتمنت لو أنني تزوجت به ،

لكنها تفهمت سبب رفضي ،

لم أخبر حمد عن العريس أبداً كي لا يظن أنني أقوم بالضغط عليه ليتحرك لخطبتي . . .

أردت انتظاره إلى أن يحل معضلة أمه . . . وأردت منحه كل الوقت اللازم لذلك .

(19)

كل الوقت

انشغلت بدراستي . . . كانت موادي صعبة ذلك الفصل وتحتاج للكثير من الجهد . . . وكنت أحضر بحثاً مهماً في أحدها تحت إشراف الدكتور خالد ،

انشغالي في دراستي جعلني ابتعد قليلاً عن مشكلتي مع حمد . . . مر شهر مارس دون أحداث تذكر ، وتلاه إبريل . . .

لم يعد حمد يحدثني عن موضوع زواجنا أبداً ولم أكن أعرف شيئاً عن وضع أمه ،

لاأعرف ما الذي يدور في بيتهم ولاأعرف إن كانت أمه مصرة على التمسك بموقفها الرافض لي أم لا ،

كان الأمر برمته يزعجني لكنني قررت عدم الخوض فيه ، كنت مجروحة جداً . . . وبنفس الوقت عاجزة عن الانسحاب من هذه العلاقة التي أصبحت أدمنها ،

كان حمد أهم شخص في حياتي ويومي كله مرتبط بيومه ، يصحيني صوته كل صباح ، حيث إنه يذهب إلى عمله قبلي ،

أغير ملابسي وأكلمه طوال طريقي لمنزل شريفة التي أقلها كل يوم ، خلال محاضراتي يبعث لي برسائله الحانية . . . وبعد أن أقل شريفة لمنزلها اتصل به ،

ويكون عادة في طريقه إلى المنزل ، نلتقي أحياناً عند منزلينا ، نتبادل النظرات والابتسامات ويذهب كل منا في طريقه ،

عندما أخرج لأي مكان يأتي حمد ليراني من بعيد ، كان يلاحقني أينما ذهبت بلا كلل أو ملل ،

يحب أن يراني ، يقول إنه لا يشبع من تأملي ،

وفي الليل أنام على صوته ، أغفو أحياناً قبله فاستيقظ لأجده يستمع لأنفاسي النائمة ،

أتركه لأنام لأصحو بعدها على صوته ،

في العطل أوقظه أنا من النوم ، أتعمد أن أتركه لينام فدوامه طويل ومرهق . . . يفرح بي عندما اتصل . . . يجيبني بصوته النائم وأكاد ألمح ابتسامته وهو يقول : صباح الخير حبيبتي . . .

لم تفارق دبلته اصبعي منذ ألبسني اياها . . . لاحظت أمي تعلقي بذلك الخاتم ، تدخلت دلال المنقذة وقالت لترد عني : تعرفين كم تحب شريفة ! رغم أن نبوءتها لم تتحقق . . . ولا تزال بسمة عالة علينا !

أضحك على كلام دلال التي تصب غضبها على أم حمد كلما سنحت لها الفرصة ،

وأم حمد لم تعد تزور جدتي بتاتاً ، لاحظت جدتي انقطاعها وعلقت عليه دون أن تجد لهذا الانقطاع سبباً واضحاً . . .

انتهى إبريل . . . ودخل شهر مايو . . . وتحددت مواعيد الامتحانات في الشهر القادم ، سلمت بحثي المهم للدكتور خالد وتحدد موعد تقديمي لبحثي أمام الطلبة في التاسع من مايو ،

وارتديت بدلة أنيقة يومها وربطت شعري وراء ظهري ووقفت أمام الطلبة لأقدم بحثي وأشرحه والدكتور خالد يسجل ملاحظاته وقد جلس آخر القاعة وترك لي مكانه ،

لم أرتبك رغم أنني كنت خائفة ، لكنني انطلقت أتحدث بوضوح وثقة أمام الجميع ،

وكلما لمحت نظرات الدكتور خالد المشجعة لي كنت أزداد ثقة ، شرحت بحثي بالكامل ثم تلقيت أسئلة بعض الطلبة ، انتهيت أخيراً وقد أحسست أنني أستاذة حقيقية ، لم أكن أعرف أنني أمتلك تلك القدرة على توصيل المعلومة وأن لي أسلوباً شيقاً في الشرح كما قال لي الدكتور خالد الذي طلبني في مكتبه بعد المحاضرة ،

جلست أمامه يومها وقد فرحت لثنائه الشديد على بحثي وعلى تقديمي الرائع كما وصفه ،

قال لي : بسمة . . . ألا تحبين أن تكوني أستاذة في الجامعة؟

فوجئت بكلامه ، فأردف : فكري بالأمر جيداً ، لديك فرصة للعمل كمعيدة بعد التخرج فأنت متفوقة ، ودرجاتك عالية ، ولديك شخصية لطيفة ، واليوم اكتشفت أنك محاضرة جيدة ، بل رائعة ، فكري بالموضوع وإن أحببت الانخراط

في هذا المجال سوف أساعدك وأعمل على تدريبك منذ الآن . . . ما رأيك؟

راقت لي فكرة العمل كمعيدة في الجامعة كثيراً ، فأنا أعشق جو الجامعة ، ولطالما تمنيت أن لا أتخرج منها من شدة ولعي بها ، وكنت أحب التمويل الذي تخصصت فيه ، وتروق لي فكرة تدريسه ومن يدري قد أحصل على الماجستير والدكتوراه لاحقاً وأصبح دكتورة مميزة مثل الدكتور خالد . . .

قرأ الدكتور خالد تعابير وجهي فقال مشجعاً : أرى أن الفكرة أعجبتكِ . . .؟

قلت : كثيراً يا دكتور . . . لاشيء أحب لي من أن أكون معيدة في الجامعة ، فعلاً أحب ذلك .

قال : حسناً يا معيدة المستقبل ، سأهتم بالأمر وابتداء من الفصل القادم سأنسق مع أحد المعيدين لتحضري معه محاضراته ، أريدك أن تتعلمي منه . . . وسأعمل على تأهيلك لتنضمي إلى أسرة التدريس بعد تخرجك إن شاء الله .

قلت والسعادة تغمرني : كم أنا سعيدة يا دكتور . . . شكراً لك .

قال مبتسماً : لاشكر على واجب ، أنت مكسب للجامعة ، وأنا متأكد أنك في يوم ما ستكونين زميلة لي ، ودكتورة ناجحة ومحبوبة أيضاً . . .

عدت إلى البيت يومها وأنا أكاد أطير من الفرح ، اتصلت بحمد فلم يجب اتصالي ، وأرسل لي رسالة هاتفية أنه في اجتماع ،

أخبرت شريفة عن حديثي مع الدكتور خالد وفرحت كثيراً من أجلي ،

أوصلتها إلى بيتها ، وعدت إلى البيت لأجد أجمل مفاجأة في انتظاري . . .

دخلت إلى البهو فوجدت أمي تجلس بانتظاري . . . وبجوارها دلال وملامحها توحي بفرح عظيم ، وكلتاهما تحدقان بي . . .

قلت على الفور : ما بكما؟

قالت أمي : لقد اتصلت جارتنا عالية . . . وطلبت يدكِ لولدها حمد .

(20)

21 مايو

تحددت خطوبتي الرسمية في 21 مايو ،

وعرفت كل عائلتي أنني أحب حمد ، وأريده ، لم ترفض أسرتي ارتباطنا مثلما فعلت أسرته – وكنت الوحيدة التي أعرف ذلك الرفض – لكنهم ترددوا بعض الشيء ، إن قرار الزواج قرار صعب للغاية . . . لكنني حسمته بإصراري على الموافقة . . . وذلك الاصرار فضح سر حبي أنا وحمد ،

اتصلت يومها بحمد ضاحكة قال لي : كم أنا سعيد لأنك تضحكين ما رأيك بالمفاجأة؟

هتفت به : أجمل مفاجأة . . .

قال : بسمة . . .

قلت : يا بعده . . .

فقال : ستصبحين خطيبتي أمام كل الناس وبعدها ستكونين زوجتي ، لا أريد من هذه الدنيا أكثر من ذلك .

ضحكت وأنا أقول : لكن أنا أريد . . .

قال : وماذا تريدين أكثر؟

قلت : أريد ستة أولاد . . . كلهم يشبهونك . . .

ضحك وقال : لكنكِ أجمل مني . . . سأوافق على انجاب ستة أولاد بشرط أن يكونوا يشبهونكِ أنتِ .

قلت : لا لا . . . أريدهم يشبهونك أنت . . .

نادتني ماما نشمية لتعرف رأيي بالزواج من حمد ، وبمجرد جلوسي قرأت سري في ملامحي ، قالت لي : هكذا إذن ، تريدين الزواج من حمد؟

أومأت برأسي خجلة منها ، فمهما كنت قوية ، كانت لجدتي هيبة لا تضاهى . . .

قالت : أتمنى أن يكون هذا الحمد يستحقك . . .

قلت بخجل : صدقيني يا جدتي أن اختياري في محله .

قالت : واثقة أنا برجاحة عقلكِ . . . مبروك يا ابنتي . . .

وتهلل وجهي بالفرح ، فكلمة مبروك من جدتي تعني أن الأمر قد تم . . .

فبعد كلمتها لا يمكن لأحد الاعتراض ، حتى عمي ماجد الذي يعتبر نفسه مكان أبي لم يستطع أن يبدي رأيه . . .

فعندما أبلغته جدتي الخبر لم تترك له المجال ليقول أي شيء . . . كانت تبلغه بموضوع حُسم الرأي فيه . . . ولم يكن لرأيه أمام رأيها أي أهمية . . .

وتحدد موعد خطبتي الرسمية في الواحد والعشرين من مايو ،

حددت جدتي التاريخ ولم نعارضها . . . وبدأت تجهيزات الخطبة ، أخبرتنا أم حمد أنها ستأتي بصحبة ابنتها طبعاً وكنتها آلاء وخالات حمد وعماته وعددهن يفوق العشرين معاً ،

في حين دعت أمي عماتي . . . ولم يكن لي خالات . . . وستتواجد أختاي وجدتي وعمتي حصة التي وعدتنا بالحضور من البحرين ، ودعوت صديقة عمري الغالية شريفة أيضاً . . .

كان عدد الحضور يفوق الثلاثين شخصاً من النساء ، في حين تقرر أن تكون خطبة الرجال في منزل عمي ماجد . . .

بدأت التحضيرات للمناسبة الأسعد في حياتي ، وانشغلت أمي باختيار أصناف العشاء وحلويات التقديم وغيرها من التفاصيل ،

في حين انشغلت أنا بالبحث عن ثوب مناسب . . . تركت أمي مهمة اختيار الثوب لي ولأختي دلال على أن لا نشتريه قبل أن تأتي معنا لرؤيته ، وبدأت مهمة البحث عن الثوب المطلوب في الأسواق وجاءت معنا شريفة التي لا يمكنني الاستغناء عنها وعن مساعدتها ،

وجدت أختي لنفسها ثوباً جميلاً خلال جولتنا الأولى في التسوق ، واتصلت بي تهاني لتطمئن ان كنت أريدها أن تأتي معي . . .

فأخبرتها أننا على ما يرام . . . كنت أعرف مدى انشغالها مع أطفالها لذلك لم أحب ازعاجها . . . كما أنني أعرف أنه من الصعب اختيار ثوب يرضي جميع

الأذواق وبالتالي كلما كنا أقل عدداً سيكون الاختيار أسهل .

اشترت شريفة لنفسها ثوباً أنيقاً بسيطاً خلال جولتنا الثانية للتسوق ، وبقيت أنا أبحث دون أن أجد ما يعجبني ،

اقترب الموعد وبدأت أقلق . . . ماذا سأرتدي !

خرجت يوم العطلة الاسبوعية باكراً وحدي وأخذت أبحث في أحد المجمعات الراقية ، كان ذلك الصباح هادئاً والمجمع يكاد يخلو من الناس ،

دخلت أحد المحلات ووجدت الثوب المنشود بين يدي البائعة وهي تهم بتعليقه في مدخل المحل ،

تعلقت عيناي بالثوب السماوي البهي ، فقالت البائعة وهي تبتسم : لقد وصل هذا الثوب من ايطاليا للتو . . . وهو قطعة واحدة ، أعتقد أنه سيكون مقاسك .

دخلت غرفة القياس على الفور ، وناديت البائعة كي تساعدني على إغلاق الثوب من الخلف . . . ووقفت أنظر لنفسي . . . كان الثوب قصيراً يصل إلى أسفل ركبتي بأكمام مطرزة باللون الفضي وكذلك كانت حاشيته مطرزة . . . وشريط فضي عريض يحيط بالخصر ، كان الثوب تحفة فنية . . . وهذا أقل ما يقال بحقه ،

وقعت في حبه على الفور ، وبان الرضا على وجهي ، قررت أن اشتريه ، وتغاضيت عن طلب أمي بأن ترى ما اختاره قبل أن أشتريه . . .

وخرجت من المحل بعد أن دفعت ثمنه وأنا أحمله بين يدي برفق وابتسامتي

تعلو وجهي ،

كان الثوب غالياً جداً ، لكنه يستحق ثمنه الذي لم أفاصل فيه البائعة من شدة إعجابي به ، وللمرة الثانية لم يكن يحتاج إلى أية إصلاحات .

في محل مجاور وجدت في النافذة حذاءً فضياً مرصعاً بالكريستال فدخلت لأجربه ، واشتريته أيضاً على الفور ، وهكذا اشتريت كل ما احتاجه وحدي وبجولة واحدة ، كم ستشعر دلال بالاحباط لأنها لم تأتِ معي هذا الصباح .

عدت إلى البيت قرابة الظهر ووجدت أمي تتناول إفطارها مع دلال التي صرخت : خرجت وحدكِ؟ اشتريت ثوباً؟

قالت أمي بانفعال : أردت أن أراه أولاً . . .

ضحكت وأنا أقول : لن أريكما إياه . . . سيكون مفاجأة للجميع . . .

سألتني أمي بقلق : ما هو لونه؟ لا تقولي إنه أبيض؟ الأفضل أن تتركي الأبيض للعرس .

قلت لها مطمئنة : لا تقلقي . . . ليس أبيض . . . إنه مفاجأة .

صعدت إلى غرفتي وكما توقعت صعدت دلال خلفي وهي لا تطيق صبراً لترى الثوب ، لكنني أصررت على موقفي . . . سيكون الثوب مفاجأة للجميع ، وضعته في دولابي الكبير وأقفلت عليه وأخفيت المفتاح في حقيبة يدي ،

اتصلت بحمد النائم ، وقلت : صباح الخير . . . خطيبتك وجدت ثوب الخطوبة واشترته وأخفته في دولابها أيضاً . . .

ضحك وهو يقول بصوته النائم : ومتى قامت خطيبتي بكل هذا؟ كم الساعة الآن؟ أم أنك ذهبت للسوق خلال الليل؟

قلت وأنا أكاد أقفز فرحاً : ذهبت صباحاً ، وحدي ، واشتريته فور رؤيتي له ، كان بين يدي البائعة وقد وصل للتو . . . و . . .

قال حمد : لابد أن دلال اغتاظت لأنها لم تكن معك .

ضحكت قائلة : كادت تفقد وعيها عندما رأتني أدخل وأنا أحمل الكيس .

حادثته لساعة . . . حديثاً جميلاً . . . رائعاً . . . حنوناً ، مفعماً بالأمل وبالأيام الجميلة القادمة والتي ستشهد ارتباطنا أمام كل الناس ،

قال حمد : على فكرة ، لقد قررت أن أقدم لكِ سواراً في الخطبة . . .

قلت حائرة : عادة يقدم العريس دبلة للعروس في الخطوبة؟

قال : لكن دبلتي الآن بين أصابعكِ ، أخبري أمك أنني سأقدم لكِ دبلة فخمة في العرس ، ما رأيكِ؟

معه حق ، فالدبلة التي قدمها لي غالية جداً عندي . . . ولا أريد استبدالها بأي دبلة أخرى ، سيكون السوار فكرة جيدة وفي العرس لا بأس أن يقدم لي دبلة أخرى مع الشبكة . . .

قلت بحب : معك حق ، حمد . . . أنا أحبك . . . كثيراً .

قال بحب مماثل : وأنا أحبكِ أكثر . . .

(21)

سوار

وجاء اليوم الموعود ، بدت أمي جميلة وأنيقة لأقصى حد والسعادة تلمع على وجهها ،

وبدت دلال رائعة وكذلك كانت تهاني . . . شعرت يومها أن كل ركن في بيتنا يلمع ، والبيت كله في حالة حركة منذ الصباح ،

انتشرت الورود والشموع في كل مكان . . . ورود كلها بيضاء كقلبي ،

وصفت الحلوى في أوان فضية فاخرة وزينت طاولتنا الكبيرة بالورود وأصناف العشاء الفاخر الذي طلبته أمي على ذوقها جاهزة للضيوف المهمين ،

حرقت أمي أجود أنواع البخور ، ووقفت إحدى الخادمات تحمل مرشاً لماء الورد لتستقبل الحضور الذين بدأوا بالتوافد قرابة الثامنة ، اتصلت شريفة التي داهمها المرض فجأة واعتذرت عن الحضور مما أحزنني . . .

وصلت عمتي حصة ذلك الصباح ، وأصرت على أن تذهب معي إلى الصالون ، وأسعدني وجودها بقربي خاصة وأن مرحها قلل من توتري في مناسبة كهذه وقد عوض وجودها غياب شريفة بعض الشيء . . .

عدنا إلى البيت معاً في حين ذهبت أمي ودلال إلى صالون آخر ، ذهبت إلى غرفتي مباشرة وأغلقت الباب ، وقد قررت أن يراني الجميع عندما أنزل

للضيوف . . .

أرسل إلي حمد رسالة قرابة الثامنة والنصف بأنه في الطريق لمنزل عمي . . . كتب لي : اليوم أخبر العالم أنني لا أريد سوى بسمة ، ولا أحب سوى بسمة ولن تحمل اسمي سوى بسمة . . .

ابتسمت وأنا أكتب له : يا بعده . . .

وبدأت استعد ،

وصلت أم حمد بصحبة هبة وآلاء والأخريات من نساء عائلتهن ، ورحبت بهن أمي على نحو لائق ،

توسطت جدتي نشمية المجلس وقد ارتدت بدلة سوداء غاية في الأناقة ، بدت وجيهة جداً . . . وعميدة عظيمة لعائلة حقيقية . . .

في التاسعة والنصف طرقت تهاني باب غرفتي وهي تقول : لقد حان الوقت . . . دعيني أدخل لأراكِ . . .

وأخيراً فتحت الباب . . . خطت تهاني للداخل وصرخت : الله . . . كل هذا الجمال يا بسمة . . . تبارك الله أحسن الخالقين . . .

كنت جميلة . . . كما لم أكن في حياتي . . . كان الحب زينتي والعشق تاجي . . . وبثوبي السماوي بدوت كملاك نزل من السماء . . .

بدوت رقيقة بشعري المصفف بعناية والذي تركته متماوجاً خلف ظهري . . . وعيناي الواسعتان يظللهما ظل أزرق سماوي كلون ثوبي ورموشي السوداء

الطويلة كسهام تخترق القلوب على خط عريض من الكحل الأسود مما يبرز اتساع عيني . . . وشفتاي المصبوغتان بلون الورد وكذلك كانت أظافري .

ثبت دبوساً ماسياً ضخماً على صدري وارتديت معه أقراطاً ماسية دائرية كانت هدية عزيزة من أبي ،

تمنيت لو كان أبي حياً ليراني عروساً وليخطبني حبيبي منه ، دعوت له بالرحمة وأحسست بشكل ما أنه معي وسعيد لأجلي . . .

بدأت تهاني تقرأ عليّ المعوذات وهي تقول : لم أكن أظنكِ جميلة إلى هذا الحد . . .

قلت ضاحكة : كنتِ تريننني بشعة؟

قالت بحرارة : أبداً ، أنت دائماً جميلة ، لكنك اليوم جميلة جداً جداً . . . أتمنى لك السعادة يا أختي .

قلت لها بحب : شكراً لكِ .

ونزلت إلى الضيوف . . . دخلت صالة بيتنا الفخمة . . . ووقفت النساء لدخولي ، كانت هبة قد تقدمت نحوي وقبلتني وبدأت تعرفني على نساء العائلة . . . رأيت انبهارهن في عيونهن فاطمئن قلبي . . . عندما اقتربت من أم حمد قالت لي بفرح : أهلاً بعروس ابني . . .

وقبلتني بحرارة . . . بدت الأمور طيبة وعيون الموجودات تلتهمني التهاماً . . .

جلست بجوار جدتي نشمية التي بدت جامدة الملامح وساد بعض الصمت قبل أن تتحدث خالة حمد الأكبر سناً قائلة : باسم الله وعلى سنة الله ورسوله أتينا اليوم لنطلب يد ابنتكم بسمة لولدنا حمد . . . ولنا كل الشرف بمصاهرة عائلتكم الكريمة عسى أن يجد طلبنا هذا القبول لديكم .

ردت جدتي نشمية قائلة : بسمة أصبحت ابنتكم وحمد أصبح ولدنا . . . وعسى أن تكون هذه المصاهرة قدم خير لعائلتنا وعائلتكم جمعنا الله وإياكم على خير وسعة . . .

أطلقت إحدى عمات حمد زغرودة وهي تقول : ألف الصلاة والسلام عليك يا حبيب الله محمد ،

زغردت النساء وتقدمت أم حمد مني وهي تحمل علبة خشبية فخمة نقش عليها اسمي بجوار اسم حمد ،

فتحت أمه العلبة وبرق فيها سوار ماسي فخم وعريض ألبسته لي بنفسها في يدي اليمنى ،

التقطت المصورة التي أحضرتها لتوثق أجمل لحظات حياتي الصور ، وبدأ على الفور تقديم القهوة العربية مع الحلويات الفاخرة التي اختارتها أمي لهذه المناسبة السعيدة ،

أحسست بالسوار عزيزاً عليّ وكأنه قطعة مني . . . واندمجت أسرتي مع أسرة حمد سريعاً . . . جميل أن يجتمع كل هؤلاء الناس من أجلنا أنا وحمد ،

أما عمتي حصة فقد أشاعت جواً مرحاً كعادتها وأخذت تحدث أهل حمد

عن حياتها في البحرين العزيزة .

تم تقديم العشاء وانتقلت النساء إلى القاعة الأخرى ، وبقيت بجوار جدتي التي همست لي : ألف مبروك يا ابنتي أتمنى لك كل السعادة . . .

انحنيت وقبلت يدها وأنا أقول : أطال الله في عمرك يا جدتي وأدامك لنا .

ربتت جدتي على رأسي بحب وقد أحسست لحظتها كم أحبها وكم تحبني هي أيضاً . . .

بدأت النساء في المغادرة وقرابة الحادية عشرة مساءً قالت عمتي حصة وقد بقي المقربون فقط من العائلتين : أين هو حمد؟ نريد أن نراه .

بتردد قالت أمه : لم نحسب حسابنا أنه سيأتي .

قالت عمتي : وهل هناك خطبة دون حضور الخطيب . . . اتصلوا به ليأتي ، لا يوجد أحد غريب بيننا . . .

ترددت أمه ، ففي عائلتهم لم يكن الخاطب يحضر الخطوبة حسب عاداتهم ،

تدخلت هبة وهي تقول لتنقذ الموقف المتوتر : سأتصل به ، جميل أن يأتي ليرى خطيبته وهي بهذا الجمال ، سيفوته الكثير إن لم يحضر .

ضحكت عمتي وقالت : هذا عين العقل !

اتصلت هبة بحمد الذي رحب بالفكرة وخلال نصف ساعة وصل حمد ودخل بعد أن فتحت له هبة الباب وبجوارها أختي دلال ،

زغردت عمتي حصة لدخوله ، تقدم حمد وقبل رأس جدتي احتراماً لها . . . وقبل رأس أمه ،

ثم نظر نحوي واتسعت ابتسامته ،

جلس حمد بجواري واحمر وجهي خجلاً . . . التقطت المصورة لنا عدة صور ، قالت تهاني وهي تشد غنى نحو حمد : هذه ابنتي . . .

مسح حمد على شعر غنى التي يعرفها ، ولحسن الحظ لم تذكر غنى شيئاً عن رؤيتها لحمد سابقاً .

دخل أخي مجبل الذي عاد من منزل عمي وعرفته أمي بالموجودين ، انشغل الجميع في الحديث وبادرت عمتي حصة أخيراً بأن قالت : تعال يا حمد أنت وبسمة واجلسا معاً في الصالة المقابلة . . . هيا . . .

كانت الصالة المقابلة مفتوحة على الصالة الرئيسية بحيث يرانا الجميع ، وبجوارها نافورة صغيرة تحيط بها بعض الزهور في أوانٍ خزفية جميلة تهتم بها أمي وتحبها ،

جلست مع حمد أخيراً وحدنا . . . أطرقت برأسي بخجل . . .

فقال : بسمة . . . انظري إليّ . . .

رفعت عيني إلى وجهه الحبيب وغصت في بحور عينيه . . .

قال لي : ما أروعكِ الليلة . . . كم أنا محظوظ بكِ .

لم استطع الرد عليه فقد كنت غارقة في خجلي . . .

قال : بعد شهر سيكون عيد ميلادي ، ووقتها سأعقد قراني عليك ، سأخبر الجميع بهذا والآن .

نطقت أخيراً : بعد شهر؟؟

قال نعم : وقتها تكونين قد انتهيت من الامتحانات النهائية ، نعقد قراننا ونسافر لشهر العسل خلال عطلة الصيفَ ، لِمَ علينا الانتظار أكثر؟ أم أنك تريدين التعرف عليّ؟

ضحكت لكلامه فأنا أعرفه منذ أكثر من عام ، وأحبه بجنون ،

فقلت موافقة : كما تريد . . . أتمنى أن أجد فستاناً مناسباً ! تعبت وأنا أبحث عن الفساتين .

قال بجدية مضحكة : ثوبك هذا مناسب ، ضعي عليه طرحة ونتزوج اليوم إن أردتِ .

ضحكت بشدة : أنت مجنون . . .

قال ضاحكاً : مجنون بكِ . . .

دمعت عيناي من شدة الضحك ، فرفعت اصبعي لأمسح دمعة فرت من طرف عيني ، فلمح السوار في معصمي ،

قال حمد : ما رأيك بالسوار . . . لقد اخترته لكِ بنفسي . . .

قلت : صحيح؟ لم أعلم أنك ذهبت مع أمك لتختاره .

قال : هناك الكثير من الأمور التي أخفيها ، فأنا أحب المفاجآت . . . أعدك بأن تمتلئ حياتنا بمفاجآت كثيرة . . .

ابتسمت لعينيه ، ولم أكن أعرف وقتها أن حياتنا ستكون حقاً حافلة بالمفاجآت . . . والتي لم تكن سعيدة ، بكل أسف . . .

(22)

6/21

قبل أن يخرج حمد من بيتنا بليلة خطوبتنا فجر مفاجأة عندما قال أمام الجميع : سنعقد قراننا إن شاء الله الشهر القادم ، يوم 21/ 6 وهو يوم ميلادي ، أظن أن الوقت سيكون كافياً للتجهيز . . .

فغر الجميع أفواههم في حين وقفت أنا بجوار حمد مبتسمة ، خرج حمد مع أهله ، فقالت عمتي حصة بطريقة مسرحية مضحكة : إنه طويل . . . وأيضاً مجنون . . .

فضحكت ، قالت أمي بقلق : أهو جاد؟

قلت : أظن إنه جاد !

قالت جدتي : سنتكلم في هذا الموضوع لاحقاً . . . كلنا متعبون الآن والوقت غير مناسب للكلام ،

وقفت جدتي فسكت الجميع ، أوصلتها تهاني إلى منزلها ثم عادت . . . تحدث الجميع عن أحداث الخطبة ، وعلقوا عليها ، بقيت أنا سارحة في سعادتي الكبيرة . . . وأخيراً صعدت إلى غرفتي لأحادث حمد ولأنام على صوته ككل ليلة . . .

صحوت في اليوم التالي على اتصال من شريفة . . . كان صوتها مريضاً

وقد أثر الزكام على نبراته ،

بدت متحمسة لسماع تفاصيل ما حدث بالأمس وقد تملكها الحزن لعدم حضورها ، قالت : يا للأسف . . . لم أحضر خطبتك ولم أرتد الثوب الذي اشتريته من أجلكِ .

قلت لها بصوتي المبحوح المتعب : لا تقلقي . . . سترتدينه قريباً ، سيكون عقد قراننا بعد شهر .

شهقت شريفة : هل أنتِ جادة ! !؟

قلت : إنها إحدى مفاجآت حمد ، فاتتك رؤية وجه أمي عندما قال لها ذلك .

صرخت شريفة : أخبريني ماذا حدث بالتفصيل . . .

وأخذت أخبرها بأحداث البارحة بالتفصيل الممل رغم تعبي وإرهاقي والصداع في رأسي ،

امتدت مكالمتنا ساعة كاملة ، حاولت أن أعود للنوم بعدها لكنني لم أستطع ،

أغمضت عينيّ وأخذت أفكر ، هل حقاً يكفي شهر واحد للتجهيز لزواجي؟ وأين ستقام حفلة العرس؟ وهل ستكون حفلة صغيرة في البيت أم حفلة كبيرة في فندق؟

تساؤلات كثيرة اجتاحت عقلي . . . والسؤال الأهم . . . أين سأسكن مع

حمد بعد الزواج؟

لم نتطرق أبداً لهذه التفاصيل . . . أحسست أن قرار زواجنا بهذه السرعة غير ممكن فأمامنا الكثير من الترتيبات والأمور التي يجب مناقشتها ،

اتصل بي حمد ففتحت عيني على رقمه الظاهر على شاشة هاتفي النقال ، فأجبته على الفور . . .

فوجىء بأنني مستيقظة فقد اعتدت على ايقاظه أيام العطل فأخبرته بمخاوفي . . . طمأنني بأن كل شيء سيكون كما أريد وأنه سيتناقش مع أهله بخصوص سكننا والعرس . . .

قال في نهاية المكالمة : المهم أن تصبحي زوجتي . . . لا أريد الانتظار أكثر ومستعد لتحقيق كل ما تريدين . . .

في ذلك اليوم دارت مناقشات كثيرة بيني وبين أهلي وبحضور جدتي ، قلت إن زواجي بعد شهر سيكون قراراً جيداً خاصة وأننا سنملك الوقت لنسافر خلال العطلة ، كما أنني لست بحاجة للتعرف على حمد فأنا أعرفه جيداً وأريده ، وأوضحت أنني لا أريد حفلة عرس كبيرة ذات ترتيبات كثيرة ، يكفي أن أقيم حفلة بالبيت وسأدعو المقربين من العائلتين بحيث لا يزيد عددهم عن مائتي مدعو وبيتنا يمكنه استيعاب هذا العدد ، قالت أمي إنها تمنت لي عرساً كبيراً تدعو فيه كل معارفنا . . .

قالت : ولم العجلة هكذا؟ دعينا نحضر نفسنا خلال الصيف على أن يقام الزفاف في آخر العام ، سيكون من الصعب عليكِ إيجاد فستان جاهز لك خلال

هذه المدة القصيرة ، دعينا نسافر في الصيف للتجهيز وتصميم فستان لائق لك ، حمد رجل ، والرجال لا يعرفون أهمية هذه الأمور .

كانت دلال حائرة فمرة تنحاز لي ومرة تنحاز لرأي أمي ، أما عمتي حصة – والتي ستسافر هذا المساء – كانت تؤيدني . . . قالت إن الحفلة الكبيرة غير مهمة ، فالمظاهر كلها لا تعني شيئاً بجوار رغبتي بالاقتران بالرجل الذي أحبه ،

قالت بلكنتها المحببة : بماذا يفيدها العرس غير الحسد؟ نصف المدعوات يكدن يمتن حسداً والنصف الآخر أتين للفرجة والنميمة ، المهم أن تدعو من يحبها بصدق والعدد الذي ذكرته بسمة كاف ومناسب وستكون حفلة رائعة وستجد ثوباً بسهولة ، ما حاجتها لثوب فخم مادام العرس في البيت؟ ستجد ما يناسبها كما وجدت فستان الخطبة الرائع بالأمس .

بدت مناقشاتنا لن تنتهي ، سألتني أمي عن محل سكني معه بعد الزواج فقلت لها إن حمد سيخبرني اليوم بعد أن يعرف رأي أمه ، كنت أعرف أن أخاه فواز يعيش مع زوجته في بيتهم . . . ولم يكن من المحتمل أن أعيش أنا أيضاً معهم . . . وهذا ما قلته لأمي . . .

وبعد كلام كثير . . . واختلاف كثير . . . نطقت جدتي نشمية لتقول الرأي الأخير ، خفق قلبي ونظرت إليها راجية ، فمصيري كله بات معلقاً بين شفتيها . . .

قالت جدتي : لا مانع من أن نقيم حفلة العرس بعد شهر ، كما يريد حمد ، لقد أحببت الفتى ، ولن نكسر بخاطره ما دامت هذه رغبة بسمة أيضاً . . .

جريت من مكاني ورميت نفسي في حضن جدتي وأنا أشبعها تقبيلاً . . .

(23)

تجهيزات كثيرة

كانت أمي متبرمة بقرار جدتي لكنها لم تجد بداً من الرضوخ ، فلا رأي بعد رأيها ، هكذا تعودنا طوال عمرنا ، واحترام أمي الكبير لجدتي وحبها العميق أيضاً لها لم يسمحا لها بالتمرد عليها من أجل مجرد حفلة !

قسمت أمي المسؤوليات عليّ وعلى أختيّ أيضاً وتقرر أن يكون الحفل في منزلنا على أن يكون عدد المدعوين لا يزيد عن المائتين ، مائة من طرفنا ومائة من طرف أهل حمد .

تكفلت أم حمد بموضوع السكن وقررت أن تجهز لنا جناحاً صغيراً في بيتهم يتكون من غرفتين . . .إحداهما غرفة حمد أساساً والغرفة المقابلة له كانت لفواز - الذي يحتل الطابق العلوي بأكمله مع زوجته - وبين الغرفتين حمام كبير ، كان هذا السكن مؤقتاً كما وعدني حمد ، إلى أن نعود من شهر العسل ونبحث عن مكان مناسب ،

لم يعجب الأمر أمي واقترحت أن ينتقل حمد للسكن في بيتنا مؤقتاً لحين عثورنا على سكن مناسب ،

رفض حمد اقتراحها ووعدني أن يبدأ البحث على الفور عن شقة مناسبة وإن لم نجد ننتقل إلى منزل أهله كما اتفقنا سابقاً .

رحلتي في البحث عن ثوب هذه المرة لم تكن سهلة وأصرت أمي على

الذهاب معي رغم انشغالها . . .

أتت شريفة معنا إلى أحد المحال لكن ذوقها المختلف تماماً عن ذوق أمي جعلها تنسحب من هذه المهمة المستحيلة ،

تريد أمي لي ثوباً كبيراً وضخماً في حين أميل أنا وصديقتي لاختيار ثوب بسيط وأنيق ، تغضب عندما تختار إحدانا شيئاً لا يعجبها وتصرخ بي : ستبدين وكأنك إحدى المدعوات ولست العروس !

أحاول مسايرتها لأنني أعرف حجم الضغط الذي تمر به ، بصراحة كنت أشعر بالذنب نحوها ، فأنا لم أحقق لها أياً من رغباتها فيما يخص موضوع زواجي .

دخل شهر يونيو وبقي على زفافي ثلاثة أسابيع بالضبط ولم أجد الفستان المنشود ، فكرت أمي أن نسافر إلى لبنان لعدة أيام لنشتري ثوب عرسي . . . لكنني كنت مشغولة والامتحانات على الأبواب . . . كان الوقت ضيقاً حقاً مما أصابني بالتوتر ، في مكالمتي مع حمد تلك الليلة شكوت له أمر ذلك الفستان الذي لم أجده ، فأخذ يضحك . . .

ثم قال لي : غداً سأذهب إلى طبيب الأسنان بعد الدوام مباشرة لذا لا تقلقي إن اتصلت ولم أرد عليك .

قلت له بلا مبالاة فقد كان تفكيري محصوراً بمشكلة فستان زفافي : حقاً . . . لماذا؟ أتؤلمك أسنانك؟

قال ضاحكاً : أريد تنظيفها للعرس ولدي ضرس يحتاج إلى علاج فقد بدأ يؤلمني مؤخراً .

قلت مداعبة : ضرس واحد فقط ؟

فقال مشاكساً : اممم . . . بما أنه الضرس الوحيد الحقيقي في فمي فالبقية كلها تركيب . . . فعلي الاهتمام به ومعالجته .

ضحكت على كلامه فقال : ابتهجي واضحكي . . . وإن لم تجدي الفستان ارتدي أي شيء تملكينه ، لن يهمني أي شيء سوى أن نكون معاً .

تمنيت لو كان الأمر بهذه البساطة فأهم شيء في العرس هو فستان العروس .

اتصلت بي أمي في اليوم التالي وكنت في الجامعة مع شريفة وطلبت مني الحضور على الفور إلى أحد المحلات المعروفة في الكويت ،

قالت وهي سعيدة : أظن أنني وجدت لك الثوب المناسب أخيراً .

خرجنا إليها أنا وشريفة ودخلنا المحل حيث كانت أمي تنتظرنا هناك وهي تشرب فنجاناً من القهوة ،

قالت البائعة مرحبة : أهلاً بكِ يا عروس .

ابتسمت لها وذهبت لتحضر الثوب وشعور بالتوتر يقتحمني ، كان الثوب معضلة حقيقية هذه المرة ،

أتت البائعة وهي تحمل ثوباً طويلاً بلون الفانيلا الداكنة . . . ثوب بلا أكمام . . . منقوش برسومات دائرية متداخلة . . . قماشه جميل جداً ، ومعه تاج يناسبه . . .

قالت البائعة : يمكنني تصميم طرحة قصيرة نثبتها على التاج ، سيكون ثوباً فريداً جداً ، ومختلفاً عن المألوف .

نظرت إلى الثوب بحيرة ، فقالت شريفة مشجعة : جربيه يا بسمة ، اعتقد أنه سيكون جميلاً جداً ومميزاً .

ذهبت إلى غرفة القياس وارتديت الثوب ، ساعدتني البائعة بإغلاقه وأعطتني حذاء ذا كعب عال لأرتديه ،

خرجت إلى أمي التي دمعت عيناها بمجرد رؤيتي وقالت : ألف مبروك يا ابنتي . . . أظنه سيكون ثوب زفافك .

وفعلاً كان الثوب هو المطلوب ، صحيح أنه ليس أبيض وأنه مختلف عن المألوف في فساتين الزفاف ، لكنني أحببته ،

نظرت إلى شريفة لأسمع رأيها فوجدتها تكاد تبكي ، لا أعرف لم تأثرت أمي وشريفة أيضاً لرؤيتي في ثوب عرسي ،

تقدمت وقبلت أمي وقلت : ما أجمل ذوقكِ يا أمي . . .

ثم احتضنت شريفة بكل الحب الذي أحمله لها بقلبي وقلت : عقبالك .

بدأت البائعة بتثبيت بعض الدبابيس فالثوب يحتاج هذه المرة لبعض التعديلات ووعدتنا بعمل الطرحة المناسبة ، دفعت أمي نصف ثمن الثوب ووعدت بدفع الباقي عندما نأتي لاستلامه بعد أسبوع ،

في السيارة اتصلت بحمد ولم يرد فتذكرت أنه عند طبيب الأسنان ، كانت

لساعة قد تجاوزت الرابعة وقتها فقد أخذنا الوقت في المحل ثم تناولنا الغداء خارجاً حتفالاً بالثوب وأوصلت شريفة إلى منزلها وعادت أمي معي أيضاً بعد أن صرفت لسائق ،

تحادثت مع أمي أثناء الطريق وكانت سعيدة جداً لأنها من اختار ثوب عرسي ، وحكت لي مراراً عن دخولها للمحل وشعورها عندما رأت الثوب . . . و . . .

وصلنا إلى البيت وذهبت إلى غرفتي لأبدل ثيابي ثم نمت قليلاً ، صحوت من نومي قرابة السادسة واتصلت بحمد فلم يرد ، قلت لنفسي إنه قد يكون نائماً بعد موعد الطبيب فلم أقلق عليه ، نزلت إلى أهلي ثم صعدت لأدرس ،

في السابعة والنصف اتصلت بحمد أيضاً ولم يرد ، هنا بدأ القلق الكريه يتسرب إلى نفسي فأرسلت له رسالة هاتفية ،

لم يرد حمد على رسالتي وعند الثامنة والنصف استولى عليّ القلق تماماً ، فاتصلت عليه بشكل ملح ومتواصل فأجابتني أخته هبة . . . سألت هبة عن حمد . . .

فقالت : لا تقلقي حبيبتي . . . تعرض حمد لنزيف حاد أثناء علاج أسنانه ، ولا يستطيع الكلام الآن .

شهقت خائفة : أهو بخير؟

قالت هبة : هو أمامي ويشير لك أن لا تقلقي . . . لقد خف النزيف قليلاً لكنه لم يتوقف ، سيحادثك غداً إن شاء الله ، يجب أن يرتاح .

أنهيت المكالمة وأنا قلقة . . . اتصلت شريفة وأخبرتها ما حصل ، هونت الأمر عليّ وقالت إن الأمر عادي وربما هو متعب فعلاً . . .

نمت نوماً قلقاً واشتقت لحمد الذي تعودت على أن أحادثه كل ليلة ،

في الثامنة صباحاً اتصلت بحمد ولم يرد . . . فنهشتني الوساوس ، اتصلت على هبة وأنا مترددة فلم ترد ، يا إلهي ما به حبيبي !

بقيت في فراشي والهاتف أمام عيني . . . بعثت رسالتين الأولى لحمد وأنا أطلب منه الاتصال بي والثانية لهبة وأنا أطلب منها أن تطمئنني عليه . . .

اتصلت بي هبة قرابة التاسعة فأجبت عليها بلهفة : ألو . . .

كان الصوت حولها يوحي أنها في مكان مزدحم . . .

قالت هبة : صباح الخير حبيبتي بسمة . . .

قلت بسرعة : صباح النور . . . كيف حال حمد؟ هل توقف النزيف؟

قالت هبة : لا . . . لا تزال لثته تنزف . . . وظهرت بقع حمراء في كل جسده ، نحن الآن في المستشفى لعمل الفحوصات اللازمة . . . لا تقلقي إن شاء الله الأمر بسيط لقد طمأننا الطبيب . . .

قلت وقد تملكني الخوف : ماذا قال الطبيب؟

قالت : لا تقلقي حبيبتي . . . هو بخير . . . ربما كان الأمر مجرد حساسية المهم أنه في أيدٍ أمينة . . . عندما تنتهي الفحوصات سيتصل حمد بك بنفسه . . .

انتهت المكالمة بيني وبين هبة وغاص قلبي من الخوف ،

اتصلت بشريفة التي صرخت بي : لا تقولي أنك لم تخرجي من البيت حتى الآن؟

وفجأة انفجرت باكية . . . جزعت شريفة وأخبرتها بدوري عن ما حصل مع حمد ،

طمأنتني هي بدورها وداعبتني قائلة : لم أكن أعرف أنك تحبينه وتخافين عليه لهذه الدرجة . . . انهضي وغيري ثيابك لنذهب إلى الجامعة ، الامتحانات على الأبواب ، وتفاءلي بالخير تجديه حبيبتي . . .

وأحسست أنها على حق ، لقد كبرت الموضوع ، سيكون حمد بخير ، إنه مجرد عارض صحي ، لابد أنني بالغت بخوفي لأنني لم أنم جيداً كما أنني متعبة ، تجهيزات العرس أتعبتني ، الحمدلله أن حفلتي بالبيت وليس بالفندق ، لكانت التحضيرات مضاعفة . . . هكذا كنت أفكر وأنا أبدل ملابسي . . .

ذهبت إلى شريفة وتوجهنا للجامعة ، حاولت أن أكون طبيعية على قدر استطاعتي لكن تفكيري كان مع حمد ، بعثت رسالة لهبة فلم ترد ثم اتصلت بها ،

فردت على عجل وقالت : كل شيء على ما يرام ، سنعود للبيت بعد قليل .

وارتحت . . . طلبت أن تعطيني حمد فقالت إنه لا يزال يحادث الطبيب وسيكلمني لاحقاً . . .

استبشرت خيراً وتغيرت ملامحي ، قالت شريفة : أخبرتك أنه مجرد عارض . . . رباه كم أقلقتِ نفسكِ دون داعٍ .

عدت إلى المنزل كعادتي بعد أن أوصلت شريفة ،

وعند الخامسة اتصل بي حمد أخيراً ،

عندما سمعت صوته أحسست أنني كنت كالأرض الجافة اليابسة التي ارتوت بالماء العذب . . .

قال بصوته الحبيب : خفتِ عليّ؟

قلت جادة : كثيراً . . . أكثر مما تتصور . . .

شيء ما كان مختلفاً في نبرته . . . شيء ما كان يجعله متألماً . . . شيء لم أدرك كنهه بعد ،

قال فجأة : بسمة أريد أن أراكِ الآن . . .

قلت متفاجئة : الآن؟

قال مؤكداً : الآن . . . ما رأيك في المقهى الهادىء الذي على البحر؟

نبرته أشعرتني أن الأمر مهم ، لم أخرج مع حمد أبداً وحدنا أمام الناس في مكان عام من قبل ،

لكنني لم أجادله ، فهو خطيبي وخلال أسابيع قليلة سيصبح زوجي ولابد أن ما يريده مهم لدرجة أنه طلب لقائي في الحال . . . فوافقت . . .

ارتديت ملابسي على عجل وخرجت من البيت متسللة دون أن أخبر أحداً . . . انتبهت أثناء قيادتي للسيارة أنني لم أتزين كما يجب ، أوقفت سيارتي على جانب الطريق ، ووضعت بعض الطلاء على شفتي وبعض الكحل حول عيني . . .

ابتسمت لوجهي المنعكس بمرآة السيارة وقلت لنفسي : مهما يكن يجب أن يراني جميلة ، ومن يدري قد يكون حضر لي مفاجأة سارة . . . قد يمسك يدي ليضع فيها دبلة العرس التي وعدني بشرائها ، إن حمد مليء بالمفاجآت .

ووصلت إلى المقهى . . . وجدت حمد هناك قبلي وقد جلس إلى طاولة منعزلة في طرف المكان وتطل على البحر . . .

ذهبت إليه وأنا أشعر بقلبي يهفو نحوه ، وجلست بعد أن سلمت عليه . . . كان وجهه الحبيب قريباً مني ، نظرت في عينيه فلمحت في عينيه عذاباً . . .

كان حمد يتعذب بلا شك . . . سألته : ما الأمر؟ ما الذي حصل؟

نظر في عينيّ طويلاً دون أن يتكلم . . .

خفق قلبي بعنف فعدت أسأله : حمد . . . ما الموضوع؟ ما الذي يحصل؟ أخبرني أرجوك . . .

فجر حمد قنبلته التي حولت حياتي إلى أشلاء : بسمة . . . أنا مصاب بمرض اللوكيميا . . .

وانهار عالمي . . .

(24)

معلومات

يعرف اللوكيميا بسرطان الدم وهو مرض خبيث يصيب الخلايا المكونة للدم والموجودة في النخاع العظمي بحيث يجعل الخلايا الطبيعية لا تجد مساحة كافية للتكاثر لانتاج مكونات الدم من كريات الدم الحمراء أو البيضاء أو الصفائح الدموية ،

والغالبية العظمى من الحالات المصابة بهذا المرض لا يمكن التكهن بسبب إصابتها به وقد يكون سببه بعض الفيروسات التي يصاب بها الإنسان في طفولته أو لوجود خلل في الكروموسومات .

العلاج الأساسي لهذا المرض هو العلاج الكيماوي وزراعة النخاع في حال وجود متبرع مطابق أما العلاج الإشاعي فقد يأخذه بعض المرضى قبل عملية الزراعة بعدة أيام .

(25)

صدمة عمري

انهرت باكية فور سماعي الخبر ، بكيت غير مبالية بالناس حولنا في المقهى والذين التفتوا إلينا وهم يتفرجون على دموعي التي قلت من خلالها : كيف يا حمد؟ كيف أصبت بالمرض . . . ما هذه المصيبة يا ربي . . .

حاول حمد تهدئتي دون جدوى ، شعرت بأنني على وشك الاختناق وصورة حمد الجالس أمامي تهتز أمامي عيني . . . رباه . . . حبيبي مريض . . . ومرضه خطير جداً ، وقد يموت . . . بكيت أكثر . . . قام حمد وشدني من ذراعي بعد أن ترك حساب طلبنا الذي لم نلمسه بعد ، سرت معه كالمغيبة وأنا لا أكاد أرى طريقي ، أخذني إلى سيارته ، اركبني بجواره وأغلق الباب ثم جلس بجواري دون أن يحرك السيارة ،

قال حمد : أرجوك اهدئي يا بسمة . . . وفجأة بدأ حمد يبكي معي ، نظرت إليه ذاهلة . . . كانت المَرة الأولى في حياتي التي أرى فيها رجلاً يبكي . . . ففي مجتمعنا البكاء ممنوع على الرجال ، وكأن الدموع تنتقص من الرجولة ، رغم أن الرجل إنسان لديه مشاعر وأحاسيس ، لكنه مطالب بكتمان انفعالاته ، حتى أخي مجبل عندما كان طفلاً اعتاد والدي على أن ينهره بشدة كلما بكى وهو يقول : إياك أن تبكي . . . فالرجل لا يبكي !

لكن حبيبي كان يبكي . . . وبكاؤه حطمني . . . تمنيت في تلك اللحظة لو كنت أنا المريضة لا هو ، المهم أن لا يبكي حبيبي . . . أمسكت يد حمد . . .

وقبلتها . . .

مددت يدي الأخرى ومسحت دموعه فقبل هو يدي . . .

ساد صمت حزين بيننا بعد أن أفرغنا كل دموعنا ،

تحدثت أخيراً : ماذا سنفعل الآن؟

قال حمد : يقول الطبيب أن عليّ السفر في أقرب وقت لأخضع لعملية زراعة النخاع يجب عمل اختبار لإخوتي لمعرفة من منهم يستطيع التبرع لي . . .

قلت ذاهلة : متى ستسافر؟

قال حمد : سيتم عرض حالتي بشكل عاجل على لجنة العلاج في الخارج ، يقول الطبيب إنني سأسافر بعد شهر ربما .

سكت . . . تذكرت تحضيرات عرسي . . . ثوبي الجديد . . . أحلامي الضائعة . . . كم أنا مسكينة . . .

قال حمد : بسمة . . . أريد أن نتمم زواجنا .

شهقت : كيف نتزوج في هذه الظروف؟

نظر في عيني وقال : لا يعلم سوى الله كم سأعيش . . . وهل سأتعافى أم لا . . .

قلت بسرعة : ستشفى بإذن الله .

قال بحنان : بسمة . . . لو بقي في عمري لحظة واحدة فأنا أريد أن أقضيها معك . . . حتى المحكوم عليه بالإعدام يسمحون له بأمنية أخيرة وأنت أمنيتي يا بسَمة . . . أريد أن أتزوج بك ، قد يكون هذا القرار أنانياً . . . لكنَني أريد المجازفة . . . قد أشفى وقد أموت ، وفي كلتا الحالتين سأكون راضياً ، إن كنت بجواري . . . صدقيني . . .

انهمرت دموعي مرة أخرى ، فربت حمد على شعري وقال : لِمَ تبكين الآن؟

قلت بألم : لا أتخيل كيف سأعيش بعدك إن لم تشفى يا حمد . . .

أغمض حمد عينيه بألم يضاهي ألمي وأكثر .

(26)

قرار صعب

عدت ليلتها إلى البيت وأنا استرجع كلمات حمد الأخيرة لي : القرار لك . . . وسأحترم قرارك . . . فكري جيداً بالموضوع ، إن أردتِ الانسحاب من حياتَي فلن ألومك . . . وإن وافقت على البقاءِ معي سأكون أسعد رجل في الدنيا . . .

انهمرت دموعي عشرات المرات قبل أن أصل أخيراً إلى بيتنا ، كان حمد يقود سيارته خلفي فوصلنا معاً . . . التفت نحوه والبؤس يتجسد في ملامحي ، ابتسم لي ابتسامته الحبيبة التي أعشقها ، وأرسل لي قبلة في الهواء فبكيت من جديد . . .

دخلت إلى المنزل فلمحت الصالة مضاءة في منزل جدتي فعرفت أن أمي عندها . . . كانت الساعة قد تجاوزت التاسعة مساء . . .

توجهت إلى منزل جدتي . . . ودخلت . . . كانت ماما نشمية تجلس وبجوارها أمي وبيدها قائمة المدعوين لعرسي وهي تراجعها معها ، ودلال ومجبل يجلسان في الجهة المقابلة لهما . . .

كانت دلال تقول وقت دخولي : هذا ليس عـدلاً . . . أريـد دعـوة كل صديقاتي و . . .

وسكت الجميع بمجرد دخولي ، كنت منهارة ، وعيناي متورمتان من كثرة البكاء ، ضربت أمي على صدرها وقامت واقفة : بسمة؟؟ ما الذي حدث؟؟

انهرت باكية على أقرب مقعد حملتني إليه قدماي المرتعشتان . . . وقلت : حمد . . . حمد . . .

صرخت دلال : تشاجرت معه؟ تركتما بعضكما؟

هززت رأسي نافية : لا . . .

قالت جدتي وقد شلها الخوف : ما الذي حدث يا ابنتي تكلمي؟

قلت : حمد مريض . . . حمد مصاب باللوكيميا . . .

صمت الجميع للحظة . . . ثم استوعبوا الخبر ، بكت دلال وهي تضمني إلى صدرها . . .

قال مجبل : ماذا يعني هذا المرض؟

همست أمي بألم : سرطان الدم . . .

شهق مجبل وسكت على الفور . . . ظلت جدتي صامتة من هول الصدمة ثم انهمرت دمعة على خدها ، بكت أمي أيضاً وقامت لتربت على شعري بيدها وقائمة المدعوين في يدها الأخرى .

مر بعض الوقت قبل أن نتمالك أنفسنا ،

وأخيراً قالت أمي : قدر الله وما شاء فعل ، الحمدلله أنه اكتشف الأمر قبل أن تعقدا قرانكما يا ابنتي . . .

قالت دلال : صحيح يا أختي . . . كان الله في عونك وعونه أتمنى أن

يشفى . . . مسكين حمد . . .

وفجرت مفاجأتي عندها : لاأريد أن أتخلى عن حمد . . . أريد أن يتم عقد القران في موعده .

صرخت أمي وقد فقدت أعصابها : ما هذا الجنون؟ الرجل مريض بمرض خطير ويعلم الله ماذا سيكون مصيره ، وأنتِ تريدين الزواج منه؟ انتظري على الأقل حتى يتعافى وبعدها قرري .

قلت بجدية : لو كنت أنا المريضة . . . ما الذي كنتم ستشعرون به لو أنه تخلى عني؟

قالت أمي غاضبة : بسمة ، الموضوع جدي ، ولو كنتِ أنتِ المريضة لما كنا زوجناك له قطعاً ، ولو كان يريدك لطلبنا منه الانتظار إلى أن يتم شفاؤك . . . هذه الأمور لا مجاملة فيها . . . أنتِ ابنتي وأنا لن أوافق على هذا الزواج حتى لو انطبقت السماء على الأرض .

نظرت إلى جدتي مستنجدة . . . فقالت : نحن الآن مصدومون ، نحتاج لبعض الوقت لنستوعب الخبر ، دلال خذي أختك لترتاح قليلاً . . . وسنتكلم في هذا الموضوع لاحقاً .

هنا وقفت أمي وقد جنت : اسمحي لي يا ماما نشمية ، هذه المرة سيكون القرار لي أنا . . . بسمة ابنتي والموضوع مصيري جداً وجديّ ، لن أسمح بهذا الزواج مهما حصل ، أتفهمون؟

وخرجت أمي وصفقت الباب وراءها بعنف وسط ذهولنا .

(27)

مواجهة

كانت الستائر مسدلة في غرفتي وقد بقيت في سريري رغم أن الوقت قد تأخر للظهيرة ، أقفلت هاتفي النقال ولم أذهب إلى الجامعة ، لابد أن شريفة اتصلت عليّ عشرات المرات ، كنت في حالة لا تسمح لي بمحادثة أحد ، لم أذق للنوم طعماً في الليلة الماضية وكلما غفوت من شدة التعب هاجمتني كوابيس مخيفة فأصحو مرتعدة لأبكي ، شعرت أن دموعي قد جفت مع حلول صباح لا نور له في قلبي فنمت كالقتيلة . . .

فُتح باب غرفتي ودخلت عليّ تهاني . . . اقتربت من ستائري وأزاحتها قليلاً ليدخل بعض الضوء لغرفتي . . . ثم جلست على سريري ونظرت إليّ بحزن . . . كنت متكومة في سريري واللحاف يغطي كل جسدي ووجهي المنهك يعكس مدى عذابي . . .

قالت أختي : بسمة . . . قومي يا حبيبتي . . . اغسلي وجهك وستحضر لك الخادمة إفطارك الآن ، يجب أن تأكلي شيئاً .

قلت وقد انقبضت معدتي بمجرد أن فكرت بالأكل : لا أستطيع أن آكل شيئاً .

شدتني أختي برفق بعد أن أزاحت اللحاف عني نحو الحمام وهي تقول : يجب أن تكوني قوية . . . هناك الكثير من الأمور التي يجب عليكِ مواجهتها

وعلى الفور هيا حبيبتي لا تكوني عنيدة . . .

دخلت إلى الحمام وغسلت وجهي وأسناني . . . هالني انعكاس وجهي على المرآة . . . كنت محطمة بكل ما تعنيه هذه الكلمة من معنى ،

هربت من صورتي المخيفة التي لم أعتد عليها وخرجت إلى تهاني التي فتحت كل الستائر وكانت الخادمة تضع صينية الإفطار على طاولتي . . . خرجت الخادمة وشدتني تهاني لأجلس ثم أجبرتني على شرب بعض العصير وعلى قضم لقمتين من الخبز ،

تحسنت فعلياً بمجرد أن دخل الزاد إلى أحشائي ، فأكملت أكلي . . . قالت أختي : بسمة . . . تعرفين أننا جميعاً نهتم لأمرك . . . ونعرف كم كانت صدمتك كبيرة . . . حبيبتي . . . أعرف أن القرار صعب جداً وأتفهم كل ما تحسين به ، لكن في ظروف كهذه يجب أن يكون قرار العقل فيصلاً . . . لا يجب عليك الانسياق وراء قلبك . . . حمد مريض . . . وهذه الحقيقة يجب عليك استيعاَب أبعادها وعواقبها ، لازلتِ صغيرة . . . عليكِ تركه أو على الأقل انتظَار شفائه .

قلت : لا أريد أن أتخلى عنه ، لا أستطيع أن أفعل ذلك به .

قالت بحكمة : لا تتخلي عنه . . . لكن لا تتزوجيه إلا بعد أن يشفى تماماً ، هذا كل ما نريده منك . . . نريدكِ أن تتصرفي بعقلانية ، وتذكري أن قرارك هذه المرة سيؤثر على الجميع .

نظرت إليها متسائلة فقالت موضحة : أمي غاضبة جداً ، وتعرف أن ماما نشمية ضعيفة أمامك ، ويصعب عليها أن ترد لكِ طلباً ، وإن وافقت ماما نشمية

على زواجك من حمد ، قد تتفاقم الأمور بينهما وتسوء علاقتهما الطيبة والتي امتدت لعشرات السنين بسبب هذا الموضوع ، لا تضعيهما في مواجهة يعلم الله وحده عواقبها يا بسمة .

تأثرت لكلام تهاني . . . لكنني كنت مشوشة جداً . . . كنت أعلم في قرارة نفسي أن أمي على حق . . . وأن عليّ إلغاء زواجي برمته ، لكن قلبي المعلق بحمد كان يعاندني . . . حبيبي الذي لا يريد شيئاً أكثر من أن أكون بجواره في محنته . . .

خاصمتني أمي ذلك اليوم كوسيلة للضغط عليّ ، وحادثتني دلال في الموضوع أيضاً وكان رأيها موافقاً لرأي أمي ،

عند العصر أتت شريفة لزيارتي بعد أن اتصلت بدلال وعرفت منها ما حدث ، بكت شريفة بمجرد دخولها لغرفتي وبكيت معها . . .

تفهمت شريفة دوافعي أكثر مما فعل أهلي لكنها تفهمت موقفهم أيضاً . . . ولم تستطع نصحي بشيء . . . كانت مثلي . . . تقدس الحب ، وتعتبر الإخلاص فيه أمراً مفروغاً منه ، في نظرنا كان الحب هو أن يكون الطرفان معاً في السراء والضراء ، أي حب هذا الذي يلغيه المرض . . . لم لا أتفاءل وأتيقن من شفاء حبيبي ؟ ماذا لو كنت أنا مكانه ، لكان تخليه عني عذاباً يفوق عذاب المرض وآلامه ، ستكون معنوياته مرتفعة لو كنت إلى جواره ، وللنفسية أثر مهم في الشفاء والكل يعرف ذلك .

كنت أريد حمد ، وأحبه بصدق ، لا يهمني إن كان مريضاً ، فقد أتزوج من شخص معافى ويمرض فهل يعني ذلك أن أتخلى عنه؟ كان رباط الحب في نظري

لا يتجزأ ، أن أحب شخصاً يعني أن أكون معه في كل حالاته ،

قضيت يومي في غرفتي ، عرفت من دلال أن أمي اجتمعت بجدتي ، لابد أنها اعتذرت منها وناقشتها في موضوع زواجي ، أعرف كيف تفكر أمي ، إنها تحب جدتي كثيراً ولن تطيق فكرة إغضابها وبنفس الوقت ستحاول أن تضمن وقوفها في صفها ومنعها لزواجي من حمد .

عرفت أن عليّ خوض حرب ضارية لأقترن بحمد في هذه الظروف وكنت جاهزة لخوضها من أجله . . .

مر اليوم التالي دون أن أفتح هاتفي النقال أيضاً . . . ولم أذهب إلى الجامعة ، تحسنت حالتي قليلاً لكنني كنت لا أزال مشوشة ،

بدأ قراري بالزواج من حمد يتبلور في ذهني وعرفت أنني اتخذت قراري أخيراً .

في عصر ذلك اليوم ذهبت إلى أمي وكانت في غرفتها ، فوجئت بدخولي إليها ، وزمت شفتيها بحزم لا يناسبها وهي تقول : بسمة . . . اعتقد أن علينا البدء بإلغاء ترتيبات الزواج .

قلت موافقة : يمكنك إلغاء كل شيء فيما يخص الترتيبات فقط .

قالت بحدة : ماذا تقصدين؟

قلت بإصرار : لا داعي لعمل حفل . . . حتى لو كان صغيراً ، لكن عقد القران سيتم على أية حال في موعده ، أريد منكم احترام رغبتي وعدم مناقشتي في قراري .

صرخت أمي : ما هذا الجنون؟ وكم عمرك لتعرفي القرار الصحيح؟؟ لازلتِ صغيرة ومثلك لم تختبر الحياة بعد .

قلت بعناد : أرجوك يا أمي لا تصعبي الأمور أكثر . . . أريد أن أقف بجوار الرجل الوحيد الذي أحببتَه ، لن أسافر معه للعلاج ، اتركوني فقط على ذمته ، دعوه يشعر بالسعادة والأمان وبأنني له .

صرخت أمي : ما هذا الذي أسمعه؟ هل فقدت عقلكِ؟ لم تربطين نفسك برجل قد يموت في أي لحظة؟

قلت وأنا أعض شفتي ألماً : ومن منا يضمن عمره؟ قد أموت أنا قبله . . . الأعمار بيد الله .

وتشاجرت مع أمي . . . وجريت إلى جدتي . . . وكانت في غرفتها ، طرقت الباب عليها ودخلت ، ورأت كل ما أريد قوله في وجهي ، وقلته لها . . .

لم تعلق جدتي بشيء اكتفت بسماع كلامي دون أن تنطق . . . لم أكن أعرف بم تفكر لكنني كنت أعرف أنها أكثر من يفهمني في هذا العالم ، كان بيننا رابط روحي وثيق . . . إنه أمر لا أستطيع تفسيره . . . ذلك الارتباط بيني وبين جدتي كان كمعجزة حقيقية يمكنني الاعتماد عليها . . .

وأخيراً وقبل أن أخرج من غرفتها قلت لها : أتذكرين حديثنا تلك الليلة قبل عودتنا من فرنسا؟ أتذكرين عندما قلت لي إن عمر الإنسان لا يقاس بالسنوات؟ بل يقاس باللحظات الجميلة التي عاشها؟ . . . وإن بعض اللحظات تعادل عمراً بأكمله ، أنا متأكدة أن أيامي الأجمل ستكون مع حمد ، وأنها ستعادل عمري كله . . . أرجوكِ يا جدتي ، لا تحرميني من أن أعيش أجمل لحظاتي . . .

(28)

قرار ووعد

في اليوم التالي اجتمعت بنا جدتي باكراً ، أنا وأمي ودلال ومجبل . . . وأيضاً تهاني التي اتصلت بها لتحضر ،

جلسنا حولها بوجوه مترقبة . . . أمي بوجهها الخائف ، أنا بوجهي الراجي ، دلال بوجهها الحائر ، تهاني بوجهها الخائف ، ومجبل بوجهه المتعجب . . .

وأخيراً أصدرت جدتي قرارها قائلة : أعرف أن ما سأقوله صعب . . . وأريد منكم عدم مقاطعتي إلى أن أنتهي من حديثي كله . . . لقد فكرت طويلاً بموضوع زواج بسمة من حمد ، ولأنني أحس بمشاعر الآخرين وأقدرها ، فأنا موافقة على أن يتم عقد القران فقط ، على أن يؤجل الزفاف إلى ما بعد رحلة علاج حمد وشفائه التام بإذن الله ، وعليك يا بسمة أن تعديني وأمام الجميع بأن تنفذي ما قلته ، وأن لا تتزوجي حمد إلا بعد شفائه وأن تخبريه وبوضوح أنك لن تسافري معه . . . وبذلك تكونين أرضيت قلبك وضميرك وأرضيت أمك وعَائلتكِ أيضاً . . . مفهوم؟

قلت فرحة : أعدكِ يا جدتي . . .

وعدتها . . . وقد كانت تلك المرة الأولى التي أكذب فيها عليها وأخلف فيها وعداً أقطعه لها .

(29)

يا حبيب الروح

واتصلت بحمد بعد غياب دام يومين كاملين . . .

جاءني صوته حزيناً . . . مهموماً . . . بائساً ، قال بمجرد أن سمع صوتي : أهلاً . . . حبيبتي . . . اشتقت إليك . . .

وسكت . . . عرفت أن في نبرته عتاباً لغيابي عنه ، وخوفاً لقرار يترقبه ،

سألته : كيف حالك؟ هل صحتك على ما يرام؟

قال وقد فقد صبره : بسمة . . . ما هو قرارك؟ أريد أن أعرفه الآن . . .

سكت قليلاً ثم قلت : يا حبيب الروح . . . قررت أن أكون معك بالحلوة والمرة . . . لن أتخلى عنك ، وافق أهلي على عقد قراننا بشرط أن لا أسافر معك ، ووعدتهم بذلك إرضاءً لهم ، لكنني سأكون معك خلال رحلة العلاج . . . لن أتخلى عنك أبداً وستشفى إن شاء الله وسنعود معاً ونعيش دائماً معاً . . .

سمعت صوت بكائه فقلت له : إن كان لي خاطر عندك لا تبكي .

ناداني بحب : بسمة .

أجبت نداءه : يا بعده .

فقال : لن أنسى موقفك هذا طوال عمري . . .

وبدأت المواجهات الأخرى ، مواجهة حمد مع أهله الذين رأوا أيضاً أن رغبتنا بالزواج جنوناً تاماً ، خاض معهم حروباً لا أعرف عنها الكثير ،

وبدأت أمي بإلغاء ترتيبات الحفل الذي لن يتم ، سنكتفي بعقد قران ضيق يضم العائلتين فقط دون المقربين حتى ، كانت أمي حزينة جداً ، لكنها رضيت بالأمر الواقع ، لم يكن للفرح مكاناً في قلوبنا ، لقد سرق المرض منا فرحتنا وبات مصير مستقبلنا مجهولاً ، فرضينا بحاضر يجمعنا مهما كان عمره . . . المهم أن نكون معاً . . .

الوحيدة التي أردت حضورها خلال عقد قراني كانت عمتي حصة ، أخبرتها بالهاتف أننا قررنا عمل عقد قران محدود بسبب ظروف سأخبرها عنها عندما تصل مع ابنتها قبل الموعد بيوم واحد . . . سارت الأمور بهدوء حزين إلى أن عرف عمي ماجد بحقيقة مرض حمد بعد أن أبلغته جدتي بالأمر ، جاء ثائراً لمنزل جدتي وصرخ فينا جميعاً : ما هذا الذي أسمعه؟؟ تريدونني أن أزوج ابنة أخي لرجل مريض؟؟ هل فقدتكم عقولكم؟ أمي تكلمي أرجوكِ ، قولي شيئاً ! !

قالت جدتي : قلت لك ما عندي . . . هذا الزواج سيتم . . .

صرخ عمي فينا وقد ارتعدت أمام غضبه الهادر : لماذا؟ أريد أن أفهم . . . لا تقولوا إنها تحبه ، لتحبه . . . لا أحد يمنعها . . . لكن أن ترتبط به قبل أن يشفى من مرضه لا وألف لا . . . إلا إذا كانت . . .

نظر إليّ والشرر يتطاير من عينيه . . . لقد ظن أن خطيئة ما حدثت بيني وبين حمد وهي التي تبرر ارتباطنا في هذه الظروف ،

دُهل الجميع لظنه ، وقبل أن يتكلم أي منهم ،

صرخت أنا دفاعاً عن نفسي : أبداً يا عمي ، ما تفكر به عار عن الصحة ، أنا أحب حمد حباً شريفاً عفيفاً ، ومن المستحيل أن أقوم بأمر مشين كما تلمح . . . أريد فقط أن أقف معه في محنته وأن أعطيه الأمل في الحياة .

قال عمي قبل أن يخرج غاضباً ويصفق الباب خلفه بعنف حتى كاد أن يحطمه : أنا غير موافق على هذا الجنون ، لو كان أخي محمد على قيد الحياة لما وافق أبداً وابنته أمانه في عنقي . . . كم أنتم مجانين ، سترمون ببسمة إلى التهلكة . . . وستندمون . . . وخرج . . .

وفجأة بكت أمي بحرقة وقالت : عمك كلامه صحيح . . . إن هذا الزواج هو الجنون بعينه ، ليت أباكِ كان حياً ليمنع هذا الزواج .

حدجتها جدتي بنظرة غاضبة ، قالت أمي وهي لا تزال تولول : سامحيني يا ماما نشمية ، لكن قرارك هذه المرة غير سليم ، وسنندم كلنا على هذا القرار . . . وستدفع بسمة ثمنه من عمرها وشبابها . . . كم أرثي لحالك يا ابنتي . . .

كنت أعرف أن عمي سيضطر لحضور عقد قراني رغم رفضه ، لن يجرؤ على مخالفة أوامر جدتي بكل تأكيد .

في منزل حمد كان الحال مماثلاً للحال عندنا ، استغربت أمه موافقة أهلي على زواجنا وعرفت أنني مصرة على موقفي وأن هذه الموافقة جاءت بعد ضغطي الشديد عليهم ،

حاولت اقناع حمد بتأجيل ارتباطنا إلى أن يعود من رحلة العلاج ، لكنه طبعاً

لم يوافق ، وأخيراً اتصلت أمه بأمي لتزورنا وتحضر لي المهر والشبكة ،

حددت لها أمي موعداً سريعاً وجاءت أم حمد دون أن يبدو الفرح على وجهها ، كانت رسمية جداً وجافة أيضاً وكذلك كانت أمي مثلها ، فكلتاهما لا تريدان أن يتم هذا الزواج ،

لم تأت أمه في تلك الزيارة على ذكر سيرة الزواج ولم تتحدث أبداً عن أي ترتيبات تخصَ التاريخ المحدد والذي بقي عليه أسبوع واحد فقط ،

تحدثت بالكاد عن أمور عامة ثم ناولت أمي ظرفاً كبيراً وهي تقول : هذا مهر بسمة ، وأضفت إليه مبلغاً كي تشتري لها شبكة على ذوقها ، بصراحة لم نجد الوقت للذهاب إلى محلات المجوهرات ، اعذرونا على ذلك ، وأنتم أعلم بظروفنا .

أومأت أمي برأسها متفهمة ولم تنطق بأي كلمة ، وأخيراً خرجت أم حمد من بيتنا وكأنها تهرب !

لم أهتم بكل ما قالته أمي بعد تلك الزيارة ولم أهتم لنصائح تهاني ولا بكلام دلال . . . ولا بأي شيء آخر ، كل ما فكرت فيه أنني سأتصدق بجزء من مهري للمحتاجين عسى أن يدفع الله عنا البلاء برحمته وفضله . . .

وقررت أن لا أشتري شبكة في الوقت الحالي ، فكرت أنني سأقيم حفلة استقبال ضخمة كالعرس عندما يمن الله على حمد بالشفاء ووقتها سأشتري معه شبكة على ذوقه ، لن أستعجل أبداً . . . وسيكون أمامنا كل الوقت لنفعل إن شاء الله .

وانتهت الامتحانات التي بالكاد استطعت التركيز فيها ، وجاء اليوم الموعود ، يوم عيد ميلاد حمد الخامس والعشرين ويوم عقد قراننا . . .

صحوت ذلك الصباح على رسالة هاتفية من حمد وهو يقول : اليوم يتحقق أجمل أحلامي . . .

ابتسمت وأنا أكتب له : وأجمل أحلامي أنا أيضاً .

نزلت إلى الطابق السفلي في المنزل لأجد أمي بوجهها الممتقع ، اقتربت منها وقبلت رأسها ،

وقلت : أرجوك افرحي لأجلي . . . فاليوم أجمل يومٍ في حياتي . . . ابتسمي من أجلي أنا .

حاولت أمي أن تبتسم ، فجاءت ابتسامتها شاحبة كوجهها ،

ذهبت إلى منزل جدتي وقبلت رأسها ولسبب ما أحسست أنها حزينة أيضاً ،

كان عليّ تجاهل حزن الجميع في يوم زفافي . . . وأن أصر على التشبث بالحب والأمل لأمضي إلى مصير مجهول يعلم الله نهايته ، لكنني قررت المضي بخطوات مرتعدة رغم كل المخاوف والهموم ، خطوة وراء خطوة . . .

لطمت عمتي حصة على خديها يوم وصلت الكويت وعرفت بمرض حمد ، لم تستطع مناقشتي بقراري ، فامرأة تقدس الحب مثلها لم تكن تستطيع أن تتخيل أنني قد أترك حبيبي لأنه مريض ، كانت تتفهم مشاعري ، لكنها حزينة أيضاً من

أجلي وأجله .

وجاء اليوم الموعود نظرت إلى مرآتي ذلك المساء وابتسمت لصورتي ، تركت شعري منسدلاً ناعماً وقد شبكت فيه دبوساً من الماس وتزينت بزينة خفيفة بألوان فاتحة جداً وأصرت خبيرة التجميل على أن تركب لي رموشاً صناعية طويلة رغم أنني لست بحاجة إليها . . . لكنها أضفت المزيد من الاتساع لعينيّ الجميلتين ،

تأملت نفسي وثوب الفانيلا ملتف حول جسدي كأنه يحضنه ، وقد استغنيت عن ارتداء طرحتي المسكينة التي بقيت على السرير . . .

كان هناك شيء مفقود في جمالي ذلك المساء ، شيء ناقص ، كصورة تحتاج لبعض الرتوش أو كلوحة تنقصها بعض الألوان لتغدو زاهية متألقة ،

كان الفرح ينقصني . . . الفرح الذي أردت أن أراه في عيون أهلي وأحبائي . . .

دخلت إليّ عمتي حصة وقالت : بسمة عمك ماجد يريد أن يراكِ قبل عقد القران .

قلت بدهشة : ماذا يريد؟

لم ترد على دهشتي لكنها أفسحت المجال لعمي ماجد بأن يدخل ، وبتلك اللحظة رق قلبي عليه أيضاً ، لطالما تمردنا عليه ، واعتبرناه متطفلاً على أمورنا وحياتنا . . . لكنه عمنا في النهاية ، ورجلنا من بعد أبي رحمه الله . . .

اقترب مني ونظر في عيني مباشرة وسألني : هل أنتِ واثقة مما تفعلينه؟

خفق قلبي وقلت : واثقة .

نظر إليّ برهة ، ودون أن أعي وجدت نفسي بين ذراعيه . . . فوجئت بعاطفته نحوي وهو الذي عُرف بصلابته وجفائه ، وفجأة ذاب ذلك الجليد بيننا فطوقته بين ذراعي بشدة ، قبّل رأسي وقال : بسمة . . . يعلم الله أنني غير راض عن هذا الزواج ، لكنك لم تهوني عليّ . . . وها أنا أتيت لأكون وكيلك اليوم . . . أتمنى أن تكوني مدركة لخطورة الارتباط بهذا الرجل . . . وأن يكون قرارك صائباً . . .

تنهدت بحرقة وأنا ابتعد عنه قليلاً : شكراً لك يا عمي ، لن أنسى صنيعك هذا ما حييت . . .

وعُقد قراني على حمد . . .

(30)

أن أحبك

أن أحبك لدرجة تنسيني حزني ،

أن أحبك لدرجة تلهيني عن نظرات الحسرة في عيون أهلي ،

أن أحبك لدرجة تمحو فكرة الفراق من عقلي ،

وتحيي مشاعر العشق في قلبي ،

أن أحتضنك فأحس بكل الأمان في هذا العالم يجتمع في صدرك أنت ،

أن أشعر بأنفاسك حولي كرائحة بخور معتق أصيل ،

أن أكون لك . . . وحدك . . . وكأنني خلقت منك ، كقطعة من قلبك ، من روحك ، من جسدك ،

أن أكون زوجتك أخيراً رغم كل الصعاب . . .

خرجت معك ليلتها للعشاء في أحد الفنادق ويدك لا تريد مفارقة يدي ، حتى عندما وصل الطعام كنت لا تريد ترك يدي ،

قلت لك ضاحكة : لم آكل شيئاً طوال اليوم . . .

ابتسمت لي وقلت : كلي بسرعة . . . فيدي ستشتاق للمس يديك .

تناولنا عشاءنا الأول على ضوء الشموع ، كنت قد بدلت ثوب الفانيلا بثوب عادي آخر ،

أوصتني أمي قبل أن أخرج أن أعود للمنزل بعد سهرتنا الأولى ، وفهمت أنا قصدها ، فهي تخشى عليّ من زفاف مبكر ، قبل شفاء زوجي وحبيبي . . .

تأملته ، أيعقل أن يكون هذا الرجل الضخم مريضاً بهكذا مرض؟ هذا الطويل الوسيم الذي أحببته دوناً عن كل رجال الأرض يحمل المرض الخطير في دمه؟

أيمكن أن يكون ذلك التشخيص المخيف خاطئاً؟ لابد أن هناك خطأ ما ، فحبيبي لا يبدو مريضاً على الإطلاق . . . كم أنت خبيث أيها المرض . . . ياه ما أخبثك . . . كيف تسللت إلى حمد واختبأت في دمه الممتزج بحبي !

انتهى العشاء وعدت إلى بيتنا كما وعدت أمي التي كانت تنتظرني بوجه منطفئ . . .

صعدت إلى غرفتي ونمت كطفلة سعيدة ، وفي اليوم التالي خرجت مع حمد إلى أحد المجمعات ، قررنا قضاء اليوم بأكمله مع بعضنا البعض ، كان يوماً رائعاً ، ارتدنا السينما وبقينا متشابكي الأيدي طوال الفيلم . . .

وضعت رأسي هانئة على كتفه والسعادة تغمرني ، وتناولنا غداءنا بعد ذلك . . .

اشترى لي حمد يومها سواراً ذهبياً وضعه في معصمي ، أراده أن يذكرني باليوم الأول لزواجنا قال ضاحكاً : لا تخلعيه أبداً . . . إن خلعته كأنك خلعتني . . .

أحببت ذلك السوار البسيط الذي حفر عليه البائع الحرف الأول من اسمينا وقد قررت عدم خلعه ،

جاء الليل وكنا لا نزال معاً ، دخل حمد منطقتنا وقال فجأة : ما رأيك أن نقوم بمغامرة صغيرة؟

قلت له : ما هي؟

قال ضاحكاً : سترين الآن . . .

أوقف حمد سيارته بجوار الحديقة العامة في منطقة سكننا ، ونزل وقال : انزلي ،

أمسك بيدي ودخلنا الحديقة . . . طلب مني حمد أن أخلع حذائي ففعلت ضاحكة . . . شدني من يدي وأخذ يركض معي فوق العشب الندي . . . ضحكت من أعماق قلبي وكان حمد يضحك هو الآخر ، كانت الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة ليلاً عندما استلقينا معاً على العشب ونحن ننظر إلى السماء ، لم أعبأ بثوبي الفاتح الذي سيتسخ لا محالة ،

كان هدوء الليل جميلاً والنجوم تطل علينا من عليائها . . . قال حمد : لا تعرفين كم أشعر بالسعادة في هذه اللحظة ، أشعر أنني أملك العالم . . . هنا . . . وأنت معي ، بجواري . . . ملكي . . . ما أجمل هذا الشعور . . . منذ اللحظة التي رأيتك فيها عرفت أنك اخترقت مشاعري وتربعت على عرش قلبي . . . أنتِ وحدكِ ملكتي . . . معشوقتي . . . وحبيبتي إلى الأبد .

نظرت إليه بطرف عيني . . . جسده الكبير الراقد بجواري . . . وضعت

رأسي على ذراعه . . . نظرت إلى السماء متضرعة . . . قلت بداخلي : يارب . . . لا تفجعني فيه . . . فهو أحب خلقك إليّ . . . لن أتحمل خسارته ، أرجوك يا إلهي . . . ساعده . . . وتغمده بلطفك وشفائك .

ورغماً عني انزلقت دمعة حارة من عيني ، وسقطت على ذراعه ، أحس هو بدموعي ، فشدني إليه بقوة . . . وتمنيت لو استطعت الدخول بين ضلوعه لأبقى آمنة إلى الأبد .

(31)

تعارف

في اليوم الرابع لزواجنا قررت أم حمد دعوتي على الغداء في بيتهم ، كانت تلك هي المرة الأولى التي سأدخل فيها بيت حمد وتحمست لذلك ، ارتديت تنورة قصيرة وحذاء جميلاً مريحاً ذا كعب متوسط وقميصاً حريرياً زاهياً . . .

انتظرني حمد خارج المنزل كي يدخلني إلى أهله ابتسمت لعينيه السعيدتين لوجودي في بيتهم . . .

خطوت والخجل يغمرني ، عرفني حمد أولاً على أبيه المسن وكانت تلك المرة الأولى التي أراه فيها ، تقدمت منه وقبلت رأسه بأدب ، قال وملامحه الطيبة تحفر الود نحوه في قلبي : ألف مبروك يا ابنتي ، كم أحسن ولدي الاختيار .

رحبت بي أم حمد ترحيباً عادياً لا يليق بعروس جديدة لكن هبة احتضنتني إليها بحرارة ، وكذلك رحبت بي آلاء زوجة فواز بود ،

عرفني حمد من بعيد على أخيه فواز الذي اكتفى بهزة من رأسه لتحيتي ، وبزوج هبة الذي وقف لي احتراماً لكن دون أن يصافحني ثم اقترب مني سعود الذي أحببته من كل قلبي وسلم عليّ وهو يتأملني بفضول فداعبت خصلات شعره الناعمة المتطايرة كالدبابيس مثل شعر حمد ، جلست بين هبة وآلاء في حين جلس حمد بعيداً عني بجوار الرجال في آخر الصالة ، وفجأة لمحت فتاة صغيرة تقرب من الخامسة من عمرها وهي تنظر إليّ بحقد شديد !

استغربت تلك النظرات الغاضبة والتي تكاد تكون مضحكة لصغر سن صاحبتها ،

https://t.me/tea_sugar

لاحظت هبة ما يحدث فقالت ضاحكة : هذه هاجر ابنتي . . .

قلت متسائلة : لم هي غاضبة هكذا؟

قالت هبة : لأنها تحب خالها حمد ، وتغار عليه منك ، إنها متعلقة به كثيراً ، كانت تريد الزواج منه عندما تكبر . . .

انفجرت ضاحكة . . . كم هم بريئون هؤلاء الأطفال ، إنهم يجهلون النفاق ، ولا يعرفون المجاملة ، يجاهرون بمشاعرهم بصراحة ، كم نفتقد نحن الكبار مصداقيتهم . . .إن أردت الحقيقة ، فابحث عنها في عيني طفل . . .وفي عيني هاجر الصغيرة رأيت غيرة كبيرة وعداءً صريحاً . . .

قالت آلاء ضاحكة : تريد الزواج من خالها؟

أومأت هبة : لا تصدق أنها لا تستطيع الزواج به ، لكن بسمة خطفته منها على أي حال .

لمحت هاجر تختفي بعدها . . . وانشغلت عن التفكير بها أثناء حديثي مع هبة وآلاء التي كانت حاملاً في الشهور الأولى ،

أتت أم حمد تنادينا لتناول الغداء ، قمنا جميعاً وكذلك فعل الرجال إلى غرفة مجاورة ، وهناك كانت المفاجأة ، كان الأكل موضوعاً على الأرض . . .

في منزلنا اعتدنا الأكل على طاولة الطعام طوال عمرنا ، لم تكن لدي مشكلة

في الجلوس على الأرض قطعاً لكن المشكلة كانت في تنورتي القصيرة والضيقة والتي انحسرت عن ساقيّ بمجرد جلوسي فأصبحت أجلس بطريقة غير مريحة بالمرة خاصة مع نظرات فواز الحارقة التي كانت تعبر عن عدم رضاه على ملابسي والتي كانت أم حمد تبادله مثلها !

أحس حمد الذي كان يجلس بعيداً عني بما أعانيه فقام فجأة وذهب وأنا أكاد أغرق في خجلي ،

عاد حمد بفوطة كبيرة ثم جلس ملتصقاً بي ووضع الفوطة على ساقيّ وقال : ضعي هذه كي لا تتسخ ملابسكِ . . .

ابتسمت له شاكرة فقد أنقذني بحق ،

لم يقم حمد من جواري وبدأ يضع الأكل في طبقي رغم نظرات أخيه وأمه العاتبة . . .

نادت هبة ابنتها الغيورة فرفضت الأكل ، وبعد أن انتهينا لمحتها تلعب وحدها في الصالة ، حاولت ملاطفتها فصدت عني . . .

وأخيراً دعاني حمد لأرى غرفته بعد أن انسحب أباه لينام كعادته بعد الغداء ، وانشغلت أمه بإعطاء بعض الأوامر للخدم . . .

قمت مع حمد . . . ودخلت غرفته للمرة الأولى . . . كانت مصنوعة من الخشب الداكن . . . واسعة ، يحتل دولابه حائطاً كاملاً منها ، وسريره الضخم يتوسطها أمام تلفاز حديث كبير جداً . . .

شدني حمد نحو نافذته ، أزاح الستار فظهرت حديقة بيتنا . . . طوقني بذراعيه وأنا أمام النافذة وقال : ومن هنا كنت أطل عليكِ . . . ومن هنا رأيتك تطفئين شموع عيد ميلادك ، فتمنيت أن تقفي معي في غرفتي في يوم ما . . . وها هي أمنيتي قد تحققت .

ابتسمت وأنا أحدق في منزلنا الكبير . . . وكأن ذلك المنزل أصبح غريباً عني فجأة . . . فمنزلي الآن هو حيث يكون حمد ،

استدرت فأصبح وجهي قريباً من وجهه . . . حدقت بعينيه طويلاً فقبلّ جبيني . . .

وضمني إلى صدره بهدوء ، استمعت لدقات قلبه المنتظمة وأغمضت عينيّ ، تمنيت لو يقف الزمن فأقضي عمري وأنا استمع لدقات قلب حبيبي . . .

بقيت مع حمد إلى أن اتصلت بي أمي قبل أن يحل المساء وتطلب مني العودة للمنزل ، لم تجد أمي عذراً لعودتي ، فقد انتهت الامتحانات قبل زواجي ، ولم أقم بالتسجيل للفصل الدراسي الصيفي . . . كنت متفرغة لحمد ، لكن أمي كانت خائفة من تفرغي له !

عدت إلى المنزل دون أن أرى أحداً من أهله أثناء خروجي ، أوصلني حمد إلى باب منزلنا وذهب ، دخلت لأجد أمي غارقة في توترها ، لكنني تماسكت ، لم أرد أن تُفسد عليّ اللحظات الجميلة التي قضيتها ذلك اليوم ، كنت عروساً جديدة ، لا يشعر أي شخص من حولها أنها عروس حقيقية . . .

في تلك الليلة أخبرني حمد أن أخويه خضعا لفحص تطابق الأنسجة كي

يقوم أحدهما بالتبرع له بالنخاع . . . كانت عملية زراعة النخاع هي الأمل الكبير لشفاء حمد ، والمتبرع في هذه الحالة يجب أن تكون أنسجته مطابقة لأنسجة حمد . . . ولابد أن يكون من أحد إخوته الأشقاء . . .

أخبرني حمد أيضاً أنه قد بدأ في عمل الإجراءات اللازمة لعرض حالته على لجنة العلاج في الخارج كي يسافر لتلقي العلاج على حساب الدولة ، وأنه رفض الخضوع لجلسات الكيماوي في الكويت كبداية ،

فرغم أن مرضه خطير ، إلا أنه يرى أن الأفضل أن يتم العلاج بالكامل في الخارج . . .

وانقبض قلبي ، كان لذلك الحديث صدى مرعباً في نفسي . . . كان ذلك الحديث يؤكد لي تلك الحقيقة التي أرغب بنسيانها وتجاهل وجودها ، وهي أن حمد مريض . . .

في حياة كل منا حقائق مؤلمة نعجز عن استيعابها لهول أثرها في أنفسنا ، نكابر ، نحاول ، نجاهد لننسى ، لنمضي ، لنتخطى ، لكن في بعض الأحيان تصبح المواجهة ضرورة ، لا مفر منها رغماً عنا .

مرت أيامي التالية وأنا أتأرجح بين السعادة والخوف ، السعادة لقربي من حمد ، ولتلك اللحظات الجميلة التي تجمعني به وتقربني منه أكثر وأكثر ، والخوف من ذلك المرض في دمه . . . والذي يجب أن يخضع للعلاج المؤلم ليتخلص منه . . .

وفي ليلة صيف دعاني حمد لنشاهد فيلماً جديداً في السينما ، كان يحب

الأفلام الأجنبية كثيراً وكنت استمتع بمشاهدته يتابعها ، أحب انفعاله بالمشاهد . . . وأحب أصابعه التي تتشابك حول أصابعي طوال العرض . . .

أخبرني أن الفيلم سيبدأ في العاشرة مساءً ، وفي تمام التاسعة والنصف كنت جاهزة بانتظاره ، أوصتني أمي بقفل باب المنزل بالمفتاح عند عودتي حيث سيكون الكل نياماً . . .

خرجت لأجد حمد في سيارته أمام منزلنا . . .

ركبت بجواره وأنا ابتسم ، فإذا به يحرك السيارة ويقف بها بجوار منزلهم .

سألته : لم وقفت هنا؟

قال ضاحكاً : نسيت شيئاً في غرفتي ، تعالي معي لنحضره .

قلت : سأنتظرك . . . وإلا سنتأخر على الفيلم .

قال بسرعة : تعالي معي . . . لن نتأخر . . . ولا أحد في المنزل ، أبي خرج مع فواز وأمي وآلاء مدعوتان إلى عرس أحد أقربائنا .

نزلت معه . . . وصعدنا إلى غرفته ، فتح حمد الباب ، فشهقت للمفاجأة . . . كانت إضاءة غرفته خافتة ، وقد وضع بعض المقاعد الأرضية المريحة والوسائد الكبيرة على الأرض أمام التلفاز الكبير في غرفته ، وصحن كبير من الفوشار يتربع أمام المقاعد ، قال ضاحكاً : قررت أن أدعوكِ لمشاهدة الفيلم في غرفتي . . .

فتح أحد الأدراج بجوار سريره وقال : وهذه نسخة واضحة عن الفيلم

المعروض حالياً في السينما ، فكرت أن نراه معاً هنا ما رأيك بالمفاجأة؟

ابتسمت له بحب وكانت مفاجأته جميلة حقاً ، خلعت حذائي وتوسدنا الوسائد الكبيرة على الأرض . . . وضمني إليه لنتابع الفيلم المشهور المليء بالمغامرات ،

سعدت بوجودي بقربه ، وحدنا تحت الإضاءة الخافتة ، وشعرت أن ذلك الفيلم بالذات أجمل الأفلام التي رأيتها في حياتي ، انتهى الفيلم عند منتصف الليل تقريباً . . . أخبرني حمد أنه لم يخبر أحداً أنني سآتي لزيارته اليوم ، قلت ضاحكة : يا للحرج ، سيكون الأمر مفاجئاً عندما يراني أهلك وأنا أخرج من غرفتك في هذا الوقت .

قال حمد بجدية : ما رأيك إذن أن لا تخرجي؟

سألته بدهشة : ماذا تقصد؟

قال حمد : ابقي معي هذه الليلة . . .

وارتبكت . . . إنه زوجي على سنة الله ورسوله ، وأنا على ذمته شرعاً وقانوناً . . .

لكن ماذا عن أمي؟؟ !! وتوصياتها لي !!

ربت حمد على خدي برقة ، ثم مسح على خصلات شعري وقال هامساً : لا تتركيني . . .

وفجأة اتخذت قراري . . . سأبقى معه هذه الليلة ، واتصلت على الفور

بدلال . . . جاءني صوتها ناعساً فقلت بسرعة : دلال . . . سأقضي ليلتي عند حمد ، أريدك أن تقفلي باب المنزل وغداً صباحاً إن سألتك أمي عني أخبريها أنني خرجت إلى الصالون . . . ولا تنسي أن تبعثري الوسائدَ في سريري كي تصدق أنني نمت فيه . . .

قاطعتني دلال بحدة : بسمة . . . هل تعرفين ماذا تفعلين؟ هل أنتِ مجنونة؟ لقد وعدت أمي و . . .

خطف حمد الهاتف مني وقال لدلال : دلال . . . نفذي ما قالته بسمة ، لن أنسى لكِ هذا المعروف ، ولا تقلقي أختك بأيدٍ أمينة . . .

أحست دلال بالحرج ، وأنهت المكالمة بسرعة ، ضحك حمد منتصراً ، وشدني إليه وهو لا يزال يضحك .

(32)

خبر صعب

فتحت عيني في اليوم التالي وابتسمت وأنا أرى حمد نائماً بجواري ،

حدقت فيه وشعرت بالسلام يجتاح روحي ،

لم يعد حمد حبيبي فقط ، بل صار زوجي ، زوجي الذي أعشقه ، فتح حمد عينيه وابتسم أكبر ابتساماته لرؤيتي ، فتح لي ذراعيه لأستقر بينهما هانئة ،

ساد بعض الصمت بيننا . . . إلى أن قلت : ستقتلني أمي إن عرفت . . .

قال : ستقتلني أنا أيضاً لأنني أريدك أن تنتقلي للعيش في بيتنا .

سألته بجدية : صحيح؟

قال بجدية : طبعاً . . . أنت زوجتي ، ويجب أن تعيشي معي .

قلت ضاحكة : دعني أمهد للأمر تدريجياً . . . سيكون كل ذلك صدمة لأمي وجدتي . . . و . . .

وقبل أن أكمل جملتي . . . رن هاتفه النقال ، نظر إلى ا لرقم وقال : هذه هبة . . .

رد حمد عليها وكنت أنا أتوسد صدره . . .

لم تكن هبة تعرف طبعاً أنني معه ، لا أحد كان يعرف ، سوى أختي دلال . . .

كنت أستطيع أن أسمع صوت هبة المنبثق من الهاتف بوضوح وهي تقول : لقد ظهرت نتائج الفحص .

سألها حمد بلهفة : ومن يستطيع أن تبرع لي؟

قالت هبة بانفعال : تصور أنه سعود ، لقد جاءت نتائجه مطابقة لك ، عليه أن يتبرع لك بالنخاع .

أحسست بدقات قلب حمد تتسارع وكذلك كانت دقات قلبي . . . فسعود قد أكمل التاسعة من عمره لتوه ، لا يزال صغيراً ،

سألها حمد بقلق : ألن يتعرض للأذى بسبب ذلك؟ أيمكنه التبرع وهو في هذه السن؟

قالت هبة : الطبيب يقول إن الأمر آمن ، وهناك من هم أصغر منه ويقومون بالتبرع ، لا تقلق ، المهم أن تُشفى ، وبالخارج يملكون أحدث الأجهزة وأكفأ الأطباء . . . لكن . . .

وسكتت هبة ،

فسألها حمد : لكن ماذا؟

قالت بحزن : هناك أمر مهم أخبرني به الطبيب . . .

زفر حمد : ماذا أيضاً؟

قالت هبة : لا أعرف كيف سأخبرك . . . لكن عليك أن تعرف به على كل حال ، يقول الطبيب أنك لن تتمكن من الانجاب . . . و . . .

ولم أسمع الباقي ، سرت في جسدي رعشة كالكهرباء هزتني من أعلى رأسي إلى أخمص قدميّ . . . كانت هبة لا تزال تتحدث . . . لكنني لم أعد قادرة على سماع ما تقول . . . وكلماتها تلك تطن في رأسي : لن تتمكن من الإنجاب . . . لن تتمكن من الإنجاب . . .

أحس حمد بارتعاشتي . . . وأقفل الخط وأخبر هبة أنه سيكلمها لاحقاً . . . لا أذكر بم تعذر لها لينهي تلك المكالمة المشؤومة . . .

هربت من حمد فوقفت وأنا أقول : سأدخل إلى الحمام ، جريت إلى الحمام ، أقفلت الباب عليّ بالمفتاح ، وفتحت الماء البارد ، وقفت تحت الماء لأذرف كل دموعي . . . وصرخة ألم هائلة تكاد تخنقني . . . أنا لن أصبح أماً . . . لن أصبح أماً أبداً . . . وحمد لن يستطيع الانجاب ، أنا التي أعشق الأطفال ، ويعرف الجميع ذلك عني ، لن أستطيع أن أحظى بطفل يخصني ، لا أعرف كم بقيت تحت الماء ، ولا كم بكيت ، لكنني انتبهت على طرقات مترددة على الباب وصوت حمد يناديني : بسمة . . . هل أنتِ بخير؟

استجمعت شجاعتي ورددت عليه كاذبة : أنا بخير ، انتهيت الآن .

استعملت منشفة حمد ، وارتديت ثياباً له وجدتها معلقة بحمامه ،

بدوت صغيرة جداً بملابسه الكبيرة جداً عليّ ، لم أنظر إلى وجهي في المرآة

قبل أن أخرج إليه بشعري المبلل بالماء وقلبي المبلل بدموعي ،

نظر هو إليّ بجمود . . . ثم بدأت بارتداء ثيابي ، يجب أن أعود لمنزلي ، وعليه أن يجد طريقة ما لإخراجي دون أن يراني أحد من أهله ،

لا أذكر حقاً كيف وجدت نفسي في غرفتي بعد ذلك ، لا أذكر حتى كيف أخرجني حمد من باب منزلهم الخلفي كاللصوص ، ودون أن يراني أحد ، فقد كنت ذاهلة تماماً عما يجري حولي وكل تفكيري منحصر في ذلك الخبر الصعب الذي عرفته لتوي ،

كل ما أذكره أن حمد قبلني على جبيني قبل أن أجري نحو بيتنا وهو يهمس لي : أنا آسف . . .

(33)

مغامرات

لجأت إلى شريفة كعادتي ، بكيت على صدرها وأنا أخبرها بالخبر الصعب ،

وبختني وهي تحاول أن تخفض صوتها قدر استطاعتها : هل أنتِ مجنونة يا بسمة؟ لم لا تصغين لكلام أهلكِ؟ ألم تعديهم بتأجيل الزفاف . . . و . . .

سكتت شريفة وقد استوعبت أن ما تقوله الآن لن يفيد ، وأخيراً قالت : بسمة . . . أنتِ اخترتِ حمد ووافقت على الزواج به رغم مرضه ، وعليكِ أن تتحملي مسؤولية قرارك ، وبشجاعة .

كان كلامها صحيحاً تماماً ، بالإضافة إلى أنني أحب حمد كثيراً وبصدق ، وإن كان الله سبحانه قدر لي عدم الانجاب فلا أملك إلا الرضا بقدره سبحانه ، نعم . . . راضية أنا بقدري ، وعليّ أن أكون شجاعة في تقبله والصبر عليه . . .

ومنحني ذلك الرضا اطمئناناً عجيباً ، اتصلت بحمد بعدها ، وكان صوته حزيناً ، وتحادثنا ، وبشجاعة أخبرته أنني أحبه ، ولا يهمني إن لم نستطع الانجاب ، أخبرته أنه الأهم بالنسبة لي ، فما فائدة أولاد لا يكون هو والدهم؟ سيكون هو ولدي . . . كما هو حبيبي وزوجي . . . المهم أن نكون معاً . . .

لهذه الدرجة أحببت حمد ، أحببته لدرجة أنني لم أرد شيئاً في هذه الدنيا سوى أن أكون معه ، وأحبني هو أكثر وأكثر ،

وقادنا الحب إلى مغامرات مجنونة . . . أصبحت أهرب إلى بيته كل ليلة ، نبتكر عشرات الحيل لنقضي وقتنا معاً . . . أحببنا فكرة الهرب واللقاء بالسر ، كان الأمر أشبه بلعبة وأختي دلال تتستر عليّ ، وكأن حمد عشيقي وليس زوجي ، ومّر شهر على زواجنا وأخيراً تحدد موعد سفر حمد للولايات المتحدة ليبدأ العلاج .

(34)

إصرار

كانت معركتي هذه المرة حامية ، ومختلفة عن كل ما خضته سابقاً ، وقفت أمام أمي وجدتي وقلت بهدوء : أريد أن أسافر مع زوجي خلال رحلة علاجه .

تمنت أمي لو استطاعت صفعي وبالكاد منعت نفسها أن تفعل ، دارت عشرات المناقشات عن هذا الموضوع وأنا مصرة على رأيي ، ضربت برأي أهلي عرض الحائط ، وتمسكت بموقفي ، صرخت أمي من أعلى رأسها عندما أخبرتها أنني صرت زوجة لحمد ولم أعد زوجته فقط على الورق ، كادت المسكينة أن تصاب بنوبة قلبية ، كنت شابة متمردة ، قوية ، والأهم من ذلك عاشقة ، وبجنون مع مرتبة الشرف ! لم يعد يهمني أحد سوى حمد الذي لا أريد تركه أو بالأحرى لا أستطيع تركه ، ازددت حباً له بعد الزواج ، وفكرة تركه ليسافر دون أن أذهب معه كانت غير واردة في قاموسي على الإطلاق .

صمتت جدتي نشمية ، وكان في صمتها عتب استطعت الإحساس به ، فقد أخلفت وعدي لها وتخطيت حدود الطاعة لقراراتها التي لم يجرؤ أحد منا على مخالفتها قبل أن أفعل أنا . . .

اتصلت أمي بعمي ماجد مستنجدة به ، فرفض التدخل ، وأخبرها أنه لم يكن موافقاً على زواجي من الأساس وأنه لا يستطيع منعي من مرافقة زوجي الآن . . .

طلبت أمي من شريفة أن تتحدث معي وأن تقنعني بالعدول عن السفر ، لكن شريفة أيضاً لم تستطع تغيير رأيي ،

حتى دلال حاولت ، وتهاني ، ومجبل الذي سلطته أمي ليستعطفني ، كلهم فشلوا أمام إصراري ورغبتي بالسفر . . .

بدأ حمد بعمل إجراءات السفر وتحضير الأوراق اللازمة ، وتم تسجيل اسمي كمرافقة له ، أنا وأخوه فواز ، في حين قررت أمه السفر معنا وأيضاً سعود الذي سيقوم بالتبرع بالنخاع لأخيه .

تحدد موعد السفر في الأسبوع الأول من أغسطس وتقرر سكننا في مجمع سكني ملحق بالمستشفى الذي سيتلقى فيه حمد العلاج . . .

في تلك الأيام شعرت أنني أعيش في دوامة لا تنتهي ، أسمع نفس الكلام يومياً من أمي وأرد عليها نفس الردود ،

أتلقى نظرات جدتي العاتبة وأرد عليها بنظراتي الآسفة ،

أخوض نفس النقاشات مع أختيّ وصديقتي وننتهي إلى نفس النتيجة بإصراري على مرافقة زوجي . . .

اقترب موعد سفري وحصلت على التأشيرة اللازمة . . . أصبحت أقضي الكثير من الليالي في منزل حمد ويعلم أهلي بذلك ويصمتون رغماً عنهم . . . وفي تلك الليالي كنت أنسى أن حمد مريض . . . كنت أنفصل عن الواقع ، وأضحك من أعماق قلبي كأي عروس عادية سعيدة في الأشهر الأولى لزواجها ، يدللني حمد ، ويعرف كم أضحي من أجله راضية ، دون أن أشعره أبداً بحجم ما

أقدمه لأجله ، وما أتنازل عنه لأكون معه ،

اقترب موعد السفر ، وبدأت بتحضير حقائبي . . . لم أكن أعرف كم ستطول رحلة العلاج . . .وعرفت أنه من المحتمل أن اضطر للانسحاب من الفصل الدراسي القادم . . .

قبل سفري بأيام قليلة خرجت مع شريفة لأشتري بعض الحاجيات ،

وبالصدفة التقينا الدكتور خالد بصحبة أحد أصدقائه ، اقتربنا منه لنسلم عليه ، عتب عليّ لعدم حضوري خلال الفصل الدراسي الصيفي لأتدرب مع أحد المعيدين كما وعدته سابقاً ،

أخبرته أنني تزوجت وأن زوجي مريض وسأسافر معه لرحلة العلاج ، بدا التأثر واضحاً على الدكتور خالد ودعا لحمد بالشفاء العاجل بحرارة ، أخبرني أن لا أتردد بطلب أي شيء منه فيما يخص دراستي بعد عودتي وتمنى لي رحلة موفقة وقد عرف أنني قد لا أتمكن من العودة في الفصل القادم . . .

ودعت الدكتور خالد الذي تعاطف كثيراً معي ،

ولاحظت الحزن الكبير في عيني شريفة صديقة عمري . . . في تلك الليلة عدت إلى منزلي منهكة ، اتصلت بي شريفة وهي تسألني إن كنت واثقة مما أفعله !

فأخبرتها أنني أعرف تماماً ما الذي أنا مقدمة عليه .

ولأكون صادقة ، لم أكن حقاً أعرف وأن رحلتي تلك ستجسد المعنى الحقيقي لكلمة عذاب .

(35)

معك دائماً

في اليوم السابق لسفري كنت أتحرك في بيتنا كالطيف ، شعرت أن أسرتي تعاني ، وبالذات أمي ، أتت تهاني للغداء عندنا مع أطفالها . . . لعبت معهم كثيراً بعد الغداء ، ونظرات أمي تخترق قلبي ، كانت أمي تتعذب لسفري ، ولم تكن راضية عني . . . وذلك الشعور كان يحرق قلبي ،

أما ماما نشمية فقد بدت لي مرتبكة على غير عادتها ، رعشة ما ظهرت في صوتها الذي أحفظ نبراته وأعرف تفاصيله . . . حتى دلال . . . كانت عيناها تتلألآن بدموع تحرص أن لا تتركها تنهمر أمامي . . .

عندما قامت تهاني لتغادر ضمتني إليها بقوة . . . شعرت بحب عميق لها في تلك اللحظة ، فهي أختي الكبيرة الغالية التي كانت دائماً تحبني وتدللني . . . انهمرت دموع تهاني فجأة وقالت باكية : كم أنا قلقة عليك !

وبمجرد انتهاء جملتها تلك انهمرت دموع أمي تليها دلال ،

وكأنهما كانتا تنتظران الفرصة لتطلقا مشاعرهما المكبوتة . . .

أطرق أخي مجبل برأسه صامتاً وكذلك فعلت جدتي . . .

قلت أنا بصوت مهزوز : تشعرونني وكأنني سأذهب إلى الحرب ، وكأنني لن أعود . . .

لم ترد عليّ أي منهن . . . ودون أن أعي انهمرت دموعي أيضاً . . .

مر ذلك اليوم حزيناً واتصلت بي شريفة أكثر من مرة وقد قررت أن تذهب معنا بالغد إلى المطار ، لم تقم بزيارتي فقد أحست كم كان الوضع في منزلي متوتراً . . . لم تتصل بي عمتي حصة بل اكتفت برسالة هاتفية كتبت بها : الله معك . أقفلت حقائبي وحاولت النوم تلك الليلة دون جدوى ، اتصل بي حمد الذي كان مشغولاً عني طوال اليوم وتحادثنا لوقت قصير ، أخبرته أن أهلي سيأتون معي إلى المطار وتواعدنا على اللقاء هناك في الغد . . .

تقلبت على فراشي كثيراً . . . وفجأة أحسست بباب غرفتي يُفتح ، كانت أمي تقف ببابي وهي ترتدي ثياب نومها . . .

همست بدهشة : أمي . . . ألم تنامي بعد؟

قالت وهي تخطو نحوي : لا . . . لم يغمض لي جفن . . .

اندست أمي بجواري في السرير ، وضمتني بين ذراعيها ، استكنت بين أحضانها وأنا استمع لدقات قلبها . . . شعرت كم كنت قاسية عليها . . .

إنها أم تريد الخير لفلذة كبدها ، في حين تعلقت أنا بحمد وأردت البقاء بجواره في محنته ، كانت دوافعنا مختلفة لذا صارت مواقفنا مختلفة ، ولم تستطع هي الوقوف في طريقي . . . لقد عاندتها . . . وها أنا الآن بين أحضانها الدافئة ، أتلمس القوة لرحلة لا أعرف ما الذي سيكون وراءها . . .

همست أمي قائلة : اعتني بنفسك . . . واتصلي بي دائماً ، وإياك التردد في العودة إن شعرت أنك ترغبين بذلك .

قلت هامسة مثلها : حاضر .

سكتت أمي . . . فقلت بصدق : أنا آسفة . . . أنا حقاً آسفة . . . على كل شيء

قالت بحنان : مهما حصل تظلين ابنتي ، وكل ما فعلته كان من أجل أن أحميك من ألم مرتقب . . . أتعلمين . . . عندما سافر والدك للعلاج رفض أن أرافقه ، كنت أقرب الناس إليه ، فأنا زوجته وأم أولاده لكنه رفض ذلك تماماً ، قال إن من يجالس مريضاً يصبح مثله . . . أراد أن يجنبني الألم ، وهذا بالضبط ما حاولت فعله معك يا بسمة ، أردت أن أجنبك الألم . . . لكنني فشلت ، عديني أن تعودي إن تعبتِ أو عجزتِ عن الاحتمال . . . هذا كل ما أريده منكِ يا ابنتي .

وعدتها وقد تأثرت كثيراً لكلماتها : أعدكِ يا أمي . . .

ضمتني إليها أكثر : جيد . . . نامي الآن . . . عليكِ أن ترتاحي ، فرحلتك إلى الولايات المتحدة ستكون طويلة جداً . . .

أغمضت عيني ونمت بين أحضانها وكأنني عدت طفلة من جديد ، لم أكن أعرف أنني سأغدو امرأة كبيرة . . . بل كبيرة جداً خلال أيامي القادمة . . .

جاء يوم السفر بتفاصيله المألوفة ، التقيت حمد في المطار وكانت أخته هبة وأباه وزوجة أخيه أيضاً هناك لوداعنا ،

أتت شريفة إلى المطار وكذلك أمي ودلال ،

اعتكفت جدتي نشمية في غرفتها ذلك اليوم فلم أستطع وداعها ،

قالت لي شريفة وهي تقبلني وتضمني : اتصلي بي كلما أردت ، لا تهتمي أبداً لفرق التوقيت ، سيكون هاتفي دائماً معي . . . حتى أثناء اللَيل سأتركه بجواري . . . تذكري أنني موجودة دائماً من أجلكِ .

ضمتني أمي وقد تحجرت الدموع في عينيها مراعاة لي ولأهل حمد ، سلمت عليّ هبة وهي تقول ضاحكة لتلطف أجواء الفراق حولنا : اعتني بحمد ، فهو أمانة في عنقك .

ابتسمت بصعوبة وقلت : لا تقلقي سأعتني به وسأكون دائماً معه . . . سلمت على آلاء زوجة فواز بحرارة أيضاً ، وأخيراً اقتربت مني دلال . . . وبمجرد أن قبلتني بكت ، كان بكاؤها غريباً . . . لم يكن بكاءً . . . كان نحيباً ،

ازعجني بكاء أختي . . . ونظرت في عينيها مستفسرة ، فوجدتها تنظر نحو حمد برثاء ، هززتها بشدة ، فنظرت في عينيّ وقالت : أشعر أنني لن أرى حمد مرة أخرى .

نهرتها غاضبة : أعوذ بالله ، كوني متفائلة ، حمد سيشفى وسيعود . . . وسنعيش معاً طوال العمر .

ضمتني دلال وقالت معتذرة : معكِ حق ، الحب يصنع المعجزات . . . أتمنى لكما رحلة موفقة . . . انتبهي لنفسك .

ابتعدت عن دلال وقد انقبض قلبي ، ليتها كتمت حدسها المشؤوم عني ، ألا يكفيني ما أعانيه؟ لكنني لن أستسلم . . . سأصنع المعجزات بحبي لحمد وسيعود معي سالماً غانماً بإذن الله . . .

قبلت مجبل وأوصيته بأمي . . . وأخيراً اجتزت بوابة الجوازات مع حمد وأمه وأخويه فواز وسعود . . .

كانت تلك المرة الأولى التي أسافر فيها من غير أسرتي . . . ولوهلة أحسست بالغربة رغم أني لا أزال في بلدي . . .

صعدنا إلى الطائرة ونحن صامتون جلست بجوار حمد الذي شبك أصابعه بأصابعي . . . نظرت إليه وغصت في بحر عينيه الحبيبتين . . .

قال لي : ستعتنين بي؟ كما وعدتِ هبة؟

قلت بحرارة : وسأكون دائماً معك . . .

وانطلقت الطائرة في رحلة احتار الآن في وصفها . . .

رحلة العذاب . . . الخوف . . . الألم . . . والخيانة !

(36)

في بلد بعيد

وفي قارة بعيدة عن بلدي وأهلي بدأت حياة جديدة عليّ . . . لم أكن أعرف كم هي بعيدة الولايات المتحدة إلا عندما سافرت إليها . . .

حتى فرق التوقيت فيها كان متعباً . . . وصلنا إلى روشستر مينيسوتا حيث يقع المستشفى الذي سيتلقى فيه حمد علاجه . . .

وفي مبنى ملحق بالمستشفى ويكاد يكون ملاصقاً له كان مكان سكننا في شقة من ثلاث غرف . . .

دخلنا إلى الشقة وقد تغيرت ملامحنا من شدة التعب ومن طول الرحلة . . .

اخترنا أنا وحمد الغرفة الكبيرة وتركنا لأمه وسعود غرفة مزدوجة أخرى ، أما الغرفة الثالثة وهي الأصغر فكانت من نصيب فواز . . .

أخذت حماماً دافئاً فور وصولنا . . .

واستلقيت بجوار حمد الذي غط في النوم فور وصولنا . . .

أرسلت رسالتين من هاتفي النقال . . . واحدة لأمي لأخبرها بوصولنا و مثلها لشريفة . . .

أغمضت عيني لأنام أنا أيضاً فشعرت بطنين الطائرة في أذني وبثقل شديد في رأسي . . .

اختلط عليّ النوم بالصحو ورأيت مقتطفات متداخلة من أحداث الأيام الماضية كفيلم متسارع ومزعج ، غفوت غفوة زادتني تعباً ،

وقمت بعدها والصداع يكاد يفتك برأسي . . .

خرج فواز لشراء حاجيات المنزل وبدأ بترتيبها في المطبخ ، خرجت وقتها إلى الصالة فالتقيت به ، فإذا به يشيح بنظره عني بسرعة ، كنت أرتدي بيجاما ذات أكمام طويلة . . . بالإضافة إلى كونها واسعة جداً . . . لكن فواز استنكر رؤيتي بها . . .

انسحبت من أمامه صامتة وقد تجاهلت نظرته المستنكرة لي ، ودخلت إلى المطبخ لأحضر لنفسي شاياً أشربه .

استيقظ الجميع بعدها وقد اغتسلوا وبدلوا ثيابهم وجلسنا معاً في الصالة لنأكل . . . ساعدت أم حمد في تحضير وجبة خفيفة وحاولت أن أكون ودودة معها رغم أنها بدت منزعجة مني لسبب لا أعرفه ،

كان موعد حمد مع الطبيب في اليوم التالي وأخبرنا فواز أن هناك امرأة عربية سترافقنا لتقوم بترجمة ما يقوله الطبيب لنا والعكس . . .

في اليوم التالي ذهبنا جميعاً وسعود الصغير معنا حيث إنه المتبرع المهم واجتمع الطبيب بنا بعد أن قرأ تقارير حمد وطلب له بعض التحاليل الإضافية .

أشفقت على سعود الذي سيتعرض لتجربة كهذه وهو في هذه السن ، كان سعود ولداً شقياً محبوباً . . . أحببته كثيراً وأشفقت عليه كثيراً أيضاً ، وكذلك كان شعور حمد نحوه ، تمنى حمد كثيراً لو أن المتبرع له فواز . . . على الأقل هو شاب كبير وسيتحمل الأمر ، لكن تجري الرياح بما لا تشتهي السفن .

شرح الطبيب لنا أن عملية زرع النخاع ستحتاج لبعض التحضيرات وعلى حمد الخضوع لبعض جلسات العلاج الكيماوي قبلها . . .

في تلك اللحظات التي كان الطبيب يتحدث إلينا عن وضع حمد استوعبت أخيراً تلك الحقيقة المرة التي كان عقلي يهرب منها ، إن حمد مريض حقاً ومرضه خطير وجدي وما سيقدم عليه في الأيام القادمة علاج مرير وصعب ومؤلم ، نظرت في وجوه الأشخاص من حولي فشعرت بغربة لاحد لها ، صحيح حمد زوجي ، لكنني لست معتادة بعد على أهله . . . لم أعرفهم بشكل قريب قبل ذلك . . . وها أنا الآن بينهم فجأة وفي بلد بعيد كل البعد عن أهلي . . .

كرهت صوت المترجمة العربية الرنان ولم أرتح لها بتاتاً . . . ربما لأنها كانت تنقل لنا تفاصيل أمورٍ تخيفني وتغتال أمني النفسي بلا رحمة لكنني كرهتها من كل قلبي . . .

نمت تلك الليلة متشبثة بحمد . . . أحسست أنني لا أريد شيئاً من هذه الدنيا أكثر من شفائه ، تمنيت صادقة لو استطعت فعل أي شيء من أجله لأجنبه آلامه القادمة ، لكنني لم أكن أستطيع عمل شيء أكثر من أن أكون بقربه . . .

(37)

مفاجأة غير متوقعة

مر أسبوع على وجودنا في الولايات المتحدة ، وكنا نقضي نهارنا كله في المستشفى ليجري حمد الفحوصات اللازمة قبل البدء بعلاجه ، وكان هناك علاج أيضاً لسعود ليحفز وينشط نخاع عظمه لانتاج الخلايا اللازمة للتبرع ،

أخبرنا الطبيب أن حمد سيخضع للعلاج الكيماوي بشكل يومي قبل زراعة النخاع وهذا العلاج الهدف منه هو إيجاد مكان في نخاع العظم للخلايا الجديدة بالإضافة لإحباط الجهاز المناعي لتخفيض فرص رفض الجسم الخلايا الجذعية المزروعة وبعدها يجب أن يحجز حمد في غرفة العزل حفاظاً على صحته لأن مناعته ستكون منخفضة . . .

ورغم قلقنا التام في تلك الأيام إلا أنني كنت أنسى أن حمد مريض بمجرد أن نخرج من المستشفى ، خرجنا للعشاء وحدنا عدة مرات وقضينا ليال هادئة معاً . . لم أكن استوعب أحياناً أن زوجي يسكنه المرض ، كان طويلاً ، يمتلئ بالعافية ، وجهه متورد بشبابه ، وحبي الكبير له يزداد يوماً بعد يوم . . .

تباعدت مكالماتي لأهلي بسبب فرق التوقيت ، كما أنني لم أكن أملك الكثير لأقوله لهم ،

كانت تلك الأيام مجرد البداية لأيام أخرى مختلفة . . .

وفي ليلة لن أنساها كنت جالسة على سريري أتصفح مجلة أجنبية اشتريتها

من دكان قريب من مكان سكننا . . .

وكان حمد يستحم ، رن هاتفه النقال بإلحاح . . عدة مرات متتالية . . . اقتربت لأضعه على الوضع الصامت فإذا بالرقم الذي يظهر أمامي غير مسجل باسم . . . توقف الهاتف عن الرنين المزعج وقبل أن أضعه وصلت رسالة هاتفية غريبة استطعت قراءتها على الشاشة في لحظتها : لابد أنك معها . . . أكرهك . . . وأحبك في نفس الوقت !

وشهقت . . . وقبل أن أستعيد أنفاسي خرج حمد من الحمام واقترب مني وأخذ هاتفه من يدي بلطف وهو يقول : كان يرن؟

نظرت إليه بدهشة وقلت : نعم . . . ووصلتك رسالة أيضاً !

نظر حمد إلى الهاتف سريعاً وقد عرف أنني قرأت الرسالة من تعابير وجهي ، ودون أن يرتبك قال : إنه صديقي فهد ، دائماً يمزح معي ويقول إنه يغار منكِ لأنني دائماً مشغول معكِ .

وسكت . . . وحاولت طرد الوساوس من قلبي ، لابد أن حمد صادق . . . فهو يحبني . . . أنا أعرف كم يحبني ، وقررت نسيان ما حدث ،

لكن في الأيام التالية بدأت بملاحظة أمور كنت غافلة عنها ، إن حمد لا يكاد يترك هاتفه ، وألمحه وهو يبتسم بغموض وهو يتلقى بعض الرسائل ويبدو ملهوفاً وهو يرد عليها !

لاحظت أيضاً أنه يخرج من الشقة كلها عندما يأتيه اتصال ما . . . ويغيب طويلاً وهو يتحدث ، كنت أطل عليه من النافذة فأراه بالأسفل في الخارج وهو

يتحدث بهاتفه وعندما أسأله من تحدث يقول : إنه صديقي فهد !

لم أسمع سابقاً عن هذا الفهد ! لم ظهر الآن ! ولم أسمع حمد يحدثني عنه أبداً كصديق مقرب إلى هذه الدرجة كما حدثته أنا كثيراً عن صديقتي شريفة !

وجزعت . . . أيكون حمد على علاقة مع فتاة أخرى؟؟

تأكدت لي تلك الحقيقة المؤلمة مع الوقت ، فحدسي لم يخب وهكذا حدس المرأة إنها تعلم دائماً إن كان رجلها يخونها أم لا . . . وكأن في قلبها راداراً يدلها على الحقيقة . . .

حاولت أن أعبث بهاتف حمد من وراء ظهره ، وفي الفرص التي سنحت لي لأفعل فوجئت بعدم وجود أية رسائل مريبة ولا حتى أرقام غير مسجلة بالهاتف ، لابد أنه احتاط ومسح كل ما يدل على تلك الفتاة ، بحثت أيضاً عن اسم فهد في قائمة أرقامه ولم أجد أي شخص بهذا الاسم فيها . . .

تألمت بصمت وأنا أراقب حمد يخونني وبين الشك واليقين أصبحت تائهة تماماً . . . كانت خيانته لي مفاجأة غير متوقعة ، مفاجأة بشعة جداً . . . خاصة ونحن في غربة يعلم الله متى تنتهي . . .

ودخل حمد إلى المستشفى ليتلقى جرعة الكيماوي الأولى عن طريق الوريد ،

إن العلاجات الكيماوية هي أدوية سامة للخلايا لتميت خلايا السرطان ، فهي تقتل الخلايا السرطانية أو توقفها عن ا لتكاثر . . .

انتهت الجلسة وبقي حمد تحت المراقبة . . .

شعرت بالاشفاق على حمد بعد تلك الجلسة التي امتدت لساعات طويلة ، شعر بعدها بإجهاد شديد وبغثيان لا يطاق لدرجة أنه لم يكن يستطيع رفع رأسه . . .

قال الطبيب إن هذا الأمر طبيعي ، انهمرت دموعي وأنا أمسح بيدي على شعره المتطاير الناعم الذي أحبه ، لمع السوار الذي اشتراه لي في معصمي فتأملته بحزن ، كان السوار يحمل حروفنا الأولى ، أكان في قلب حمد حرفاً آخر غير حرفي؟ أيعقل أنه يحب فتاة أخرى سواي؟ وإن كان هذا صحيحاً ، لم أنا الآن هنا وليست هي؟ ترى ما الذي يخفيه عني حمد في رأسه؟

لمست رأسه بحنان . . . وغفى وأنا لا أزال أربت عليه وأقرأ بعض آيات القرآن الكريم ،

بدت أمه حزينة جداً ، كم هي مسكينة هذه المرأة ، إنها ترى ولدها معرضاً للخطر بسبب مرض لعين خبيث ، وولدها الأصغر مضطر لخوض تجربة التبرع المخيفة رغم صغر سنه . . .

أما فواز فقد كان أكثرنا صلابة وأكثرنا أهمية ، فقد تحمل مسؤولية الجميع . . . كنا بحاجة لشخص متماسك مثله بيننا . . . ومع الوقت أصبح وجوده أهم بكثير ،

في تلك الليلة عدنا بحمد إلى الشقة في وقت متأخر ، اقترح الطبيب أن يبيت ليلتها بالمستشفى لكنه أصر على الخروج ، كان يقاوم المرض ، ويحاول تحدي

ضعفه ، أسنده فواز طوال الوقت إلى أن وضعه في السرير ،

جلست بجواره برهة ثم فتح لي ذراعيه ليضمني إلى صدره ، استكنت بقربه وذراعاه حولي تطوقاني بارتخاء من شدة ضعفه ،

قال حمد : أتمنى أن أشفى . . . أتعلمين لماذا؟

قلت له وأنا أقاوم رغبتي بالبكاء : لماذا؟

فقال : كي لا أتركك وحيدة . . .

دفنت وجهي بصدره وقلت بحرارة : ستشفى ، وستصبح هذه الأيام مجرد ذكريات . . .

سكت حمد . . .

سألته : حمد . . . تحبني؟

فتح عينيه بصعوبة وقال : أتشكين في حبي لكِ؟

نظرت في عينيه . . . وقلت : لا . . . أنا أثق كم تحبني . . . وغط في نوم عميق . . .

في صباح اليوم التالي شهقت وأنا أرى حمد يخرج من الحمام وقد حلق شعر رأسه بالكامل ،

قال ضاحكاً : ألست أكثر وسامة هكذا؟

قلت له بجزع : لماذا حلقت شعرك؟

قال بهدوء : قررت أن أتخلى عنه قبل أن يتخلى عني ، سيسقط كله بسبب العلاج . . .

وسكت . . . وشعور عميق بالخسارة يتملكني . . . فقد ذهبت تلك الدبابيس التي أحبها !

(38)

صبي شجاع

يتم سحب الخلايا الجذعية من الشخص الذي يتبرع بالنخاع عن طريق نخاع العظم من عظمة الورك بعد أن يتم تنويمه بتخدير كامل ومن الممكن عدم اللجوء إلى التخدير العام لكن لصغر سن سعود ولأنه كان خائفاً بشدة تم ذلك تحت التخدير العام . . . لذلك لم يشعر سعود بأي شيء خلال تلك العملية ،

لكن أمه شعرت بالكثير من الخوف . . . أو لأكون أكثر دقة بالكثير من الهلع ، كان قلبها يكاد ينفطر على ولدها الذي لم يتجاوز التاسعة من عمره ، ورغم تأكيد الطبيب لها بأن الأمر عادي وآمن ، وأن هناك الكثير من المتبرعين يصغرونه عمراً إلا أنها أم لا تستطيع التحكم بمشاعرها . . .

حاولت مؤازرتها قدر استطاعتي لكنها لم تمنحني الفرصة . . . نعم . . . كان توترها أكبر من استيعاب وجودي ، ربما لأنها لم تكن تعرفني جيداً ، فأنا عروس جديدة وجدت بينهم في ظروف صعبة ، ولم أكوّن مع أي منهم علاقة راسخة بعد ، وبالتالي كان هناك نوع من الجفاء يسود التعامل بيني وبين أم حمد في تلك الفترة . . .

كان حمد يتألم كثيراً لأنه عرض أخاه لهذه التجربة ، همس لي كم يتمنى لو استطاع إعفاء سعود من التبرع له ، لكن لم يكن هناك طريقة أخرى لانقاذ حمد الذي أنهكه العلاج الكيماوي كثيراً لدرجة أنه كان يتمنى ضرب رأسه بالحائط من شدة ألمه . . .

أغلق حمد هاتفه النقال في تلك الفترة وعندما حاولت فتحه من ورائه وجدت أنه أضاف رقماً سرياً لا أعرفه بالطبع ليمنع تشغيل الهاتف . . .

كانت تلك الأيام طويلة جداً عليّ . . . وكنت أبقى في المستشفى طوال النهار مع حمد وفي الليل انسحب خلسة واتصل بشريفة لأبثها همي وغمي . . .

كانت شريفة عند وعدها لي . . . تتلقى اتصالاتي العشوائية بها والتي لم أكن أحسب فيها لفرق التوقيت حساباً . . .

وتستمع إليّ بصبر ، أخبرتها عن شكي بحمد . . . ذلك الشك الذي لم تستطع هي أيضاً استيعابه ،

قالت لي إنني قد أكون واهمة ، وأن عليّ نسيان الموضوع وتصديق حمد الذي يحتاج إليّ وبشدة ، والذي ضحيت بكل شيء لأكون معه ،

تحولت شريفة في تلك الفترة إلى طبيبتي النفسية فلم أكن أستطيع الشكوى لأحد غيرها ، خاصة أهلي الذين كنت أخفي عنهم وجعي كي لا أتعرض للومهم . . . لم أكن أريد أن أقلقهم عليّ ولم أكن أستطيع التذمر أمامهم ، فقد نصحوني كثيراً وأنا عاندتهم ورميت بكل نصائحهم عرض الحائط . . .

تم تحضير حمد لزراعة النخاع في نفس اليوم الذي خضع فيه سعود لعملية التبرع بالنخاع ، وتم تحضير حمد ليتلقى الخلايا السليمة وريدياً بعد تجميعها ،

استفاق سعود من التخدير خائفاً . . . فهو لا يزال طفلاً وادعى أنه غير قادر على الحركة وغير قادر على التبول أيضاً . . .

أخبره الطبيب أنه قطعاً يستطيع ذلك ، وأن كل ما في الأمر أنه خائف ، كانت أمه مصفرة الوجه تماماً وقد أشفقت عليها كثيراً ، نهر فواز أخاه بقسوة وأخبره أنه رجل الآن وأن عليه التحلي بالمسؤولية !

اقتربت أنا من سعود . . . لاطفته وأنا أخبره كم نحن فخورون به وكم هو ولد شجاع ، وأنه سينقذ حمد والوحيد القادر على ذلك .

تخطى سعود مخاوفه تماماً . . . وفي وقت لاحق تم نقل الخلايا الجذعية التي تبرع بها إلى حمد عن طريق القسطرة الوريدية في عملية مشابهة لنقل الدم . . . بقينا حول حمد الذي كان متوتراً وبدأنا نداعبه ونطلق النكات ونحن نتصنع المرح ، حتى فواز كان يذكره بأحداث مضحكة من طفولتهما ، ارتاح حمد قليلاً مع حديثنا وبدأ ينظر إلى الكيس الأحمر الكبير الذي يضم علاجه وأمله الكبير بالشفاء والمتصل بذراعه من خلال ابرة وانبوب طويل ملتو . . . كانت تلك الخلايا تحتاج إلى مدة من الوقت حتى تنمو بداخله . . . لذلك كان حمد يحتاج إلى عناية خاصة وإلى تغذية جيدة بالإضافة إلى تناول السوائل بكثرة . . . كما يحتاج لعمل تحاليل دم يومية لمعرفة عدد الخلايا في الدم .

مر على وجود حمد في المستشفى شهر كامل ، كان منهكاً وقد اصفر وجهه ، وفقد الكثير من وزنه .

كنت أبيت معه هناك ، فقد كنت أشعر براحة أكبر لوجودي بقربه فخوفي وقلقي عليه كانا يمنعاني من النوم عندما أكون بعيدة عنه ، في المستشفى كنت أنام نوماً متقطعاً لا يزيد عن ساعات قليلة ، فحركة الممرضات والأصوات خارج الغرفة يقتحمون نومي الخفيف ،

لم أخبر أمي أنني أنام في المستشفى مع حمد ، ولم أعطها أية تفاصيل عن حالته كل ما قلته لها أن عملية زراعة النخاع تمت وبنجاح وأننا قد نعود قريباً . . . لم استكثر عليها الأمل في عودتنا خاصة وأنا أسمع همس الألم مختبئاً بين نبرات صوتها . . .

في تلك المرحلة قرر والد حمد الحضور إلينا مع أخته هبة . . . ليعود سعود إلى الكويت بعد ذلك بصحبة أبيه حيث ستبدأ المدارس قريباً ، أما هبة فقد قررت البقاء معنا لفترة ، بعد أن تركت ابنتها مع زوجها في الكويت .

وصلت هبة مع والدها . . . وأضفى وصولها جواً مرحاً حولنا . . . تغير وجهها بمجرد أن رأت وجه حمد الشاحب لكنها تمالكت نفسها على الفور ، لم أكن أعرف أن وجهي أنا أيضاً كان شديد الشحوب فالقلق كان ينهش أعصابي طوال الوقت . . .

بكى والد حمد بمجرد أن رآه واحتضنه بقوة في مشهد مؤثر ، فانهمرت دموعنا جميعاً . . . حاولت هبة تلطيف الأجواء حولنا وتقدمت من سعود وهي تهتف : هذا هو البطل إذن . . .

قبل الأب يد سعود الصغير وضمه إلى صدره ، كانت تلك العائلة تعيش ظروفاً صعبة ، وكنت أنا جزءاً منها . . . في الحقيقة كنت جزءاً غريباً ، لا أعرف لم شعرت دوماً بالغربة بينهم !

وكأنه قد تم اختطافي وحشري معهم في تلك الظروف . . . لم أعد تلك الفتاة المدللة التي تعيش في البيت الكبير كالأميرة ، أصبحت فجأة فتاة كادحة ، تجاهد لتخدم زوجها المريض في بلد لا تعرف فيه أحداً سوى أهله الذين تعرفت

بهم مؤخراً فقط . . .

مرّ اسبوع آخر وحمد في المستشفى وأنا معه وامتلأت ذراعه بآثار سحب الدم . . .ياه كم أخذوا منك الدم يا حبيبي . . . كنت أشعر بكل وخزة في قلبي كلما وخزوا ذراعك ليختبروا دمك . . .

بعد فترة قصيرة عاد والد حمد إلى الكويت بصحبة سعود الذي قام بمهمته على أكمل وجه ،

بقيت أنا وفواز وهبة وأم حمد معاً . . . كانت الأمور تبشر بالخير إلى أن استيقظ حمد في صباح يوم مشؤوم وقد امتلأت يداه بطفح جلدي كالحروق . . . جزعنا لرؤية ذلك الطفح الغريب على يديه واكتشفنا أن هناك بعضاً منه أيضاً على قدميه . . .وعندما حاول دخول الحمام سقط مغشياً عليه وجرح وجنته . . .صرخنا نستنجد بالممرضات وأتى طبيبه مسرعاً وطلب منا الخروج من الغرفة . . .

أحسست بالدوار لما يحدث . . . وقد شلني الخوف ولم يكن أهله بحال أفضل خاصة بعدما لمحنا القلق على وجه الأطباء الذين توافدوا تباعاً لفحصه .

في تلك اللحظة رن هاتفي . . . جاءني اتصال غير متوقع ، من رقم محلي لا أعرفه ،

أجبت على الاتصال ذاهلة : ألو . . .

فجاءني صوت عمتي حصة متدفقاً كالماء العذب البارد عندما ينسكب في جوف شخص صائم ، وقبل أن أعي كلامها انفجرت باكية على الهاتف . . .

(39)

الله لا ينسانا

لم أتت عمتي حصة في نفس الوقت الذي أصيب فيه حمد بداء مهاجمة الجسم الحاد للخلايا المزروعة بدمه؟ إنه تدبير الله عز وجل الذي أرسل لي أحب الناس إليّ وأقربهم من أهلي إلى قلبي في ذلك الوقت العصيب .

أتت عمتي حصة إلى الولايات المتحدة بصحبة زوجها وولدها الذي حصل على بعثة في ولاية مقاربة لمقر علاج حمد ،

لا أستطيع أن أصف لكم شعوري عندما جاءني اتصالها يومها . . .

أخبرتني أنها ستأتي لرؤيتي بعد يومين ،

انهيت الاتصال بعدها وقلبي يخفق بسعادتي ، وقد ارتفعت معنوياتي فجأة رغم كل ما نمر به ، كان مجرد شعوري أن هناك أحداً من أهلي بقربي يريحني ، لم أكن أعلم أن عدوي أيضاً كان قريباً مني في تلك الأيام . . .

أُدخل حمد إلى العناية الفائقة يومها ، والتجأنا إلى الدعاء كلنا ، عرفنا يومها أن زراعة النخاع لم تفد حمد بشيء ، فجسده لم يتقبل تلك الخلايا الشافية ، ويجب السيطرة الآن على أعراض رفضها . . .

أصيب حمد بتقلصات حادة بالمعدة واصفرت عيناه بشدة ، لكن المؤلم أكثر كان ذلك الطفح في جلده ، وبدأت أعتني بجلده ، فأضع له المراهم اللازمة التي

وصفها الطبيب له . . .

اتصلت بعمتي لتؤجل حضورها إليّ فحمد في العناية المركزة وأنا لا أستطيع تركه أبداً . . .

كنت أسير في ممرات المستشفى وأنا أسمع أنين المرضى ، وأشاهد آثار المرض عليهم وأبكي ،

إن الصحة غالية ، بل هي أغلى من كل كنوز الأرض ، عرفت معنى أن الصحة تاج على رؤس الأصحاء لا يراه إلا المرضى ،

كنت أشعر بألم لا حد له وأنا أراقب آلام الآخرين عن قرب وأصبحت أدعو ليل نهار بالشفاء لكل مريض وليس فقط لحمد . . .

في العناية الفائقة كنت ألمح حمد وهو ينظر إليّ ويلوح لي بضعف ، تتحرك شفتاه باسمي . . . فأحرك شفتاي وأنا أقول : يا بعده . . .

أحب حمد . . . أحبه كثيراً . . . لم ينقص حبي له أبداً . . . لكن هذا الحب أصبح ممزوجاً بخوف عظيم من أن أفقده . . . وهذا الخوف قتل في داخلي الشعور بالأمان . . .

بعد عدة أيام تم إخراج حمد من العناية المركزة لكن الطبيب لم يسمح له بعد بالخروج من المستشفى . . . قبلت يد حمد كثيراً يومها ، وكان جلده شديد الجفاف لدرجة أن بعض الشقوق ظهرت فيه ، داومت على العناية به ولم أكن أفارقه تقريباً ،

عندما يدخل الطبيب كنت أمطره بالأسئلة فيجيبني عليها بصبر ، وبمجرد خروجه كان فواز ينهرني لحديثي المطول مع الطبيب ، الأمر الذي لم يكن يعجبه ، لم أكن أرد على فواز . . . ولم يكن يهمني رأيه في تصرفاتي . . . لكنني رغم ذلك كنت أقدره كثيراً لأنه يخدم أخاه بإخلاص لا حد له . . .

في إحدى الليالي نام حمد باكراً من شدة الإرهاق فذهبت مع هبة إلى مقهى مجاور للمستشفى ، أصرت هي على ذهابي معها ، فأنا شبه مقيمة بالمستشفى وقد تأثرت نفسيتي كثيراً بذلك . . .

تركنا حمد النائم مع أمه وأخيه وسرت مع هبة التي أخذت تحدثني عن ابنتها وزوجها لتخرجني من جو المرض الذي أصبحت أعيشه بتفاصيله . . .

كانت شهيتي قليلة للطعام ونفسيتي متعبة ورغم ذلك لم أحب أن أحرج هبة وطلبت معها بعض الأصناف وأرغمت نفسي على الأكل مجاملة لها ، أسهبت هبة بالحديث عن هاجر . . . وابتسمت وأنا أتذكر غيرتها البريئة مني على حمد .

قلت دون تفكير : أنا أحب الأطفال كثيراً . . . وكنت أحب أن أنجب ستة أطفال على الأقل .

سكتت هبة . . . ثم استوعبت سبب سكوتها ،

وأخيراً قالت : بسمة . . . هناك أمر لابد أن تعرفيه حبيبتي . . .

سألتها : ما هو؟

قالت بحذر : الأمر متعلق بحمد . . . لا أظن أنه يستطيع الإنجاب و . . .

قاطعتها : أعرف ذلك . . .

شهقت هبة : تعرفين؟

قلت بحزن : نعم . . . عرفت ذلك قبل سفرنا ، بل عرفته بنفس اللحظة التي قمتِ أنتِ بإخبار حمد بالأمر ، لقد كنت معه وقتها وسمعت كل حديثكِ له . . .

ظهرت الدهشة على وجه هبة ثم قالت : كم أنتِ عظيمة يا بسمة . . . لم أكن أعرف أنكِ تحبينه لهذه الدرجة . . .

قلت لها بصدق : أنا أعشق حمد ، إنه حب عمري ، ومستعدة للتضحية بنفسي لأجله ، وكل ما أريده من هذه الدنيا هو شفاؤه من هذا المرض ، وأن أقضي بقية عمري معه ، عندما أخبرتك للتو عن رغبتي بالأولاد ، نسيت حقاً أن هذا الحلم أصبح مستحيلاً ، لكن لا يهم ، ما يهمني حقاً هو حمد . . .

ربتت هبة على يدي بحنان وعرفت كم يعني لي أخاها . . .

تجرأت لحظتها وسألتها : هبة . . . هل أحب حمد قبلي فتاة أخرى؟

فوجئت هبة بسؤالي غير المتوقع ،

وقالت : لا أظن ذلك . . . أنتِ الفتاة الوحيدة التي أخبرنا بحبه لها ، والتي أصر على الزواج بها رغم ظروفه الصَعبة .

وسكت . . . عرفت أن ما أبحث عنه لن أجده عند هبة ،

في اليوم التالي تحسن حمد نسبياً واستطاع تناول بعض الطعام كما خف الطفح الجلدي كثيراً عن السابق . . .

أخبرت حمد عن وجود عمتي حصة في ولاية مجاورة فأصر عليّ بالاتصال بها والخروج معها ،

قال لي بحنان : لقد تعبتِ معي كثيراً ، وأريدك أن تقضي بعض الوقت خارج المستشفى ، افعلي ذلك لأجلي . . .

ابتسمت له . . . وكنت فعلاً محتاجة لأن أفعل ،

اتصلت بعمتي حصة التي وعدت بالحضور لرؤيتي بعد يومين ،

وفي الموعد المحدد انتظرتها في الشقة لأخرج معها ،

تركت حمد ذلك الصباح مع أخته وأمه وأخيه . . . ولم تحبذ أمه زيارة عمتي لحمد ، وتفهمت أسبابها ، فهو مرهق مريض وفي أسوأ حالاته ولم أرد إحراجه ما دام لا يرغب بلقاء عمتي ، خاصة وأن زوجها عادل معها .

ووصلت عمتي حصة . . . كان قلبي يخفق بشدة لمجرد التفكير بلقائها . . .

صعدت عمتي وزوجها إلى الشقة . . .

وبمجرد أن فتحت لهما الباب صاحت بي : بسمة ، وفتحت لي ذراعيها ، وبلحظة رميت نفسي بين أحضانها باكية . . .

ربتت هي على شعري وقد انهمرت دموعها لتمتزج بدموعي . . .

كان عادل يردد كالرجل الآلي : لا بأس عليكِ ، أجر وعافية إن شاء الله . . .

أشعرني بكلماته تلك بأنني أنا المريضة لا حمد ، وحقاً كنت أشعر بالمرض والحزن ، صدقت يا أبي الغالي ، من يرافق مريضاً يصبح مريضاً مثله ، والحمدلله على كل حال .

وخرجت مع عمتي وزوجها ، أخذاني لمركز كبير للتسوق ، بعثت رسالة هاتفية لحمد ، ورد عليها فوراً أنه بخير . . . فارتحت . . .

اشتريت بعض الملابس لي . . . وكانت المرة الأولى منذ سفري التي اشتري لي فيها شيئاً . . .

دعتني عمتي على الغداء في مطعم جميل وتحدثنا كثيراً في أمور بعيدة عن المرض . . . ولأول مرة منذ زمن بعيد أحسست بالحياة تدب في عروقي ، أعادتني عمتي إلى الشقة قرابة السابعة مساءً بعد أن قضيت معها ساعات طويلة ، أوصاني زوجها كثيراً بالاتصال بولده في حال احتجت شيئاً وقبلتني عمتي كثيراً قبل أن تذهب وقالت : إن شاء الله يكون لقاؤنا القادم في الكويت ومعكِ حمد . . .

رددت آملة : آمين يارب العالمين . . .

وضعت مشترياتي في غرفتي بسرعة دون أن أرتبها وبدلت ثيابي وفي السابعة والنصف تماماً كنت جاهزة لأذهب لحمد ،

وبمجرد خروجي من غرفتي فُتح باب الشقة ودخلت خالتي وهبة وفواز وبيدهم الكثير من الأكياس !

وتعجبت . . . فسألتهم : ما هذا؟ ألم تكونوا مع حمد؟

أثار سؤالي استغرابهم وقالت هبة بحيرة : في الرابعة أخبرنا حمد أنك في الطريق إليه وأصر أن نخرج نحن أيضاً لنتنزه ، فتركناه . . .

هززت كتفي مستغربة ، فقال فواز : المسكين يشعر بالذنب نحونا ، لابد أنه فعل ذلك لنحظى ببعض التغيير بعيداً عن المستشفى .

قالت أمه : اذهبي إليه إذن وسنلحق بك فوراً .

قلت وأنا اتجه لباب الخروج : حاضر . . .

وذهبت إلى المستشفى . . . كنت في مزاج رائق وقد أفادني الخروج كثيراً . . . وصلت إلى الجناح الذي يرقد فيه حمد ، اقتربت من ممرضة جديدة لم أرها سابقاً وسألتها : كيف حال المريض في ا لغرفة العاشرة؟

ابتسمت لي بلطف وقالت : هو بخير ، ويبدو سعيداً وكانت زوجته معه . . .

وارتعشت ركبتاي . . . لدرجة أنني كدت أفقد توازني . . . تمالكت نفسي بصعوبة شديدة وسألت الممرضة مرة أخرى : تقولين أن زوجته كانت معه؟

قالت بسذاجة : نعم . . . وقد أحضرت له ورداً جميلاً جداً . . . اذهبي وسترينه بنفسك في غرفته . . .

ودارت بي الدنيا ، لهذا السبب تصرف حمد على هذا النحو ، صرفني عنه وألح عليّ لأخرج مع عمتي ثم كذب على أهله وأخبرهم أنني سأعود إليه وأصر عليهم أن يخرجوا . . . ثم التقى بها . . .

من هي؟ عشيقته؟ زوجته؟ حبيبته؟

يعلم الله وحده من هي بالنسبة إليه ، لكن وجود تلك المرأة أصبح حقيقة راسخة منذ تلك اللحظة . . .

توجهت إلى غرفة حمد وقد اسودت الدنيا في عيني ، دخلت إليه والشرر يقدح من عيني وبلحظة رأيت باقة من الورد الأحمر موضوعة على الطاولة التي بقربه . . .

نظرت إليه بحدة . . . في عينيه مباشرة . . . فارتبك . . . كطفل ضبطته أمه بجرم ما . . . لكن حمد لم يكن طفلاً . . . كان رجلاً كبيراً . . . رجلاً خائناً للأسف . . .

وقبل أن أنطق دخلت أمه ومعها هبة وفواز . . .

قالت أمه : الحمدلله ، وجهك استعاد لونه . . .

ظلت عيناي الغاضبتان معلقتان به بصمت حارق . . . وفجأة اقتربت من تلك الباقة والتقطتها وبلحظة مزقت ورودها إرباً إرباً ورميت بها في القمامة بحقد . . .

شهقت هبة : بسمة ما الذي تفعلينه؟

قلت لها بحدة : لقد طلبت هذا الورد لحمد ، ودفعت فيه ثمناً غالياً . . . لكن العاملين في ذلك المحل أغبياء حقاً . . . لقد أرسلوا لي هذه الباقة الرخيصة والقبيحة . . . يا لغبائهم . . . يظنون أنهم يستطيعون استغفال الآخرين والسخرية منهم !

وأصابت كلماتي حمد في مقتل ، وفهم أنني أعرف من أحضر له باقة الورد ،

قال فواز لحمد : كيف قضيت وقتك وحدك؟

قلت بحدة وأنا أخرج من الغرفة وأصفق الباب ورائي بعنف غير مبالية بكوني في مستشفى : لا تقلق عليه . . . ربما كان صديقه فهد معه !

وخرجت وكل خلية في جسمي تختنق ، جريت في ممرات المستشفى ودموعي تسابقني ، وخرجت إلى حديقة صغيرة ملحقة بالمستشفى ، جلست منهكة على أحد المقاعد ولحسن الحظ كانت الحديقة خالية تماماً في هذا الوقت من المساء ، وأجهشت بالبكاء ، بكيت كل دموعي ، دموع القهر والألم ، إن حمد يخونني ، يخونني بعد كل تضحياتي من أجله ، أنا التي تركت أهلي ، وضربت برضاهم عرض الحائط من أجله ، أنا التي تخليت عن أمومتي ورضيت الزواج به حتى لو كان غير قادر على الإنجاب ، أنا التي تركت دراستي وقررت إيقاف قيدي لأجل أن أكون معه . . . أنا التي تغربت ورضيت الزواج به واحتملت ظروف مرضه القاسية بصبر وحب . . . لقد قابل إحساني بالإساءة واستغفلني وأتى بالأخرى دون مراعاة لوجودي ، لماذا لم يتزوجها ويريحني أنا؟ لكنت الآن هانئة في بلدي ، في كنف أمي وجدتي . . .

لا أعرف كم من الوقت بقيت وأنا أبكي لكنني اتصلت بشريفة وأخبرتها بكل ما حصل . . .

ذهلت هي لكل ما قلته . . . وأخيراً قالت لي بحزم : بسمة . . . إلى هنا ويكفي ما قدمته لهذا الرجل . . . أنا أنصحك بالعودة إلى الكويت ، لقد بدأت الدراسة منذ فترة قصيرة ، ويمكنك تسجيل بعض المواد المتاحة . . . يمكن لإدارة الجامعة أن تتفهم ظروفك وتساعدك على استئناف الدراسة هذا الفصل ، سأذهب إلى الجامعة غداً وسأرى ما يمكنني فعله لأجلك اتركي حمد مع أهله وعودي إلى الكويت فوراً . . .

وفوجئت بكلامها : كيف أعود وأتركه؟

صرخت شريفة : قولي له إنك تريدين العودة من أجل دراستك ، مضى على وجودك معه حوالي شهرين . . . ثم إنه لا يستحق تضحيتك ، لا تستمري بتقديم التنازلات لأجل رجل لا يستحقك . . . إنه يخونك ، وأمام عينيك . . .

واقتنعت بكلام شريفة . . .

(40)

أريد أن أعود

حجزت تذكرة إلى الكويت . . . سأعود بعد ثلاثة أيام ، نجحت شريفة بتسجيل ثلاثة مواد لي ، بعد أن شرحت ظروفي لمدير الجامعة شخصياً ، أخبرت أهلي بموعد وصولي ، وكادت أمي أن تطير من الفرح لخبر عودتي ،

لم أذهب إلى حمد في ذلك اليوم ، ادعيت أنني أشعر بتوعك وبقيت طوال اليوم في فراشي ، ولم أخبر عمتي حصة أنني سأعود لأنني لم أستطع التفكير بتبرير مناسب أقوله لها وقد كنت بالأمس فقط أخبرها أنني لن أترك حمد وحده على الإطلاق . . .

في اليوم التالي ذهبت إلى حمد ، كان الحزن مرتسماً على وجهه وقد ركب له مصل ما في ذراعه لم أسأل حتى ما هو ، لم يعد يهمني . . . لتسأل عنه الأخرى ، وأمام أهله فجرت مفاجأتي غير المتوقعة وأنا أقول : سأعود إلى الكويت بعد غد . . .

وصمتوا جميعاً ، وراقبت وجه حمد وهو يتلقى طعنتي ،

قالت أم حمد : لماذا تعودين؟ وحمد؟

قلت لها : أنتم معه ، أريد أن ألحق بدراستي ، لقد بدأت الجامعة ، ولا أريد أن يضيع عليّ الفصل الدراسي الحالي .

قالت هبة بتردد : لكن حمد يعتمد عليكِ كثيراً ، أنتِ التي تقومين برعايته بالكامل وهو لا يرتاح مع أحد غيرك .

قلت بقسوة : يستطيع فواز عمل اللازم أو أنتِ يا خالتي .

لم ينطق حمد بكلمة واحدة . . . وانصرفت باكراً لأحضر حقيبتي وفي اليوم التالي ذهبت إليه بصحبة هبة التي سألتني في الطريق عن سبب تغيري فلم أخبرها بشيء . . . لم أتح لحمد الفرصة ليحادثني وحدنا ، أردت معاقبته على خيانته . . . لكنني في الحقيقة كنت أعاقب نفسي معه ، فعندما نقسو على أطباعنا ونتصرف بطريقة مغايرة لطبيعتنا ، فإننا نتألم . . . كما لو كنا ننسلخ عن جلودنا . . .

تمنيت أن أبكي على صدر حمد ، أن أسأله . . . أن أحاسبه أن أقتل تلك الفتاة التي لا أعرف موقعها في حياته ، لكنني لم أستطع سوى معاقبته بهروبي منه . . .

وأنا أعلم مدى حاجته لي ، كان عقابي له قاسياً ، بقدر قسوة خيانته لي ، وغدره بي . . . واستهانته بمشاعري . . .

وجاء يوم السفر ، ذهبت إلى المستشفى وحدي ، فتحت الباب ونظرت إلى حمد طويلاً ، كان نائماً ، كتبت له رسالة صغيرة : أنا ذاهبة . . . انتبه لنفسك . . .

وخرجت دون أن أوقظه . . . اتجهت إلى المطار بعد أن سلمت على أهله الذين لم يعجبهم انسحابي المفاجئ قطعاً ، ركبت سيارة الأجرة وحدي وبمجرد أن أغلقت بابها ، انهرت أبكي كل دموع خيبتي . . . وقسوتي . . .

(41)

الكويت

في اللحظة التي وطأت فيها قدماي أرض الكويت الحبيبة تذكرت الشيخ جابر الصباح رحمه الله يوم عاد إليها بعد الغزو . . .

تذكرت تقبيله لأرضها الطيبة ، ولولا خجلي من الناس حولي لكنت فعلت مثله ،

خرجت من بوابة المسافرين أجر حقيبتي الوحيدة ، وعلى الفور لمحت أهلي بانتظاري ، جريت نحوهم واحتضنت أمي بقوة ، كدت التصق بها تماماً لولا الحاجز الحديدي الصغير الذي يفصل بيني وبينها ، انهالت عليّ دلال بقبلاتها وأنا لا أزال بين أحضان أمي ، ومن الجهة الأخرى فعلت تهاني مثلها . . .

احتضنت مجبل وقبلته ثم سرت نحوهم لاجتياز الحاجز الذي يفصلني عنهم وفور وصولي إليهم اندفعت نحوي شريفة تحتضنني بكل حبها وشوقها لي ، قبلت شريفة بجنون وأنا أضمها بقوة ، وبلحظة أحسست أنني ملكت الدنيا وما فيها . . .

الأهل عزوة . . . نعم . . . الأهل لا يعوض وجودهم أحد ، حمدت الله ألف مرة على عودتي إلى حضن أهلي قبل أن أفقد عقلي في غربتي المؤلمة ،

أخبرت أمي كاذبة أن أموري كلها على ما يرام ، وأن حمد هو الذي طلب مني أن أعود لألحق بدراستي ، توالت كذباتي تباعاً طوال الطريق وادعيت أنني سعيدة

وأن علاج زوجي هين وأن كل ما مررت به في رحلتي كان عادياً ومحتملاً . . .

كنت ألمح بعض الشك في عيني دلال فابتسم لها مطمئنة وإن كنت أعرف أن حاستها السادسة القوية لا يمكن خداعها . . .

ووصلت إلى منزلنا . . . نظرت تلقائياً إلى منزل حمد بحزن . . . تمنيت أن يعود إلى بيته سريعاً حتى لو كان يحب غيري . . . لازلت أحبه . . . وأتمنى له الشفاء والعودة إلى بيته ووطنه من كل قلبي . . .

ودخلت بيتنا الكبير . . . وكأنني أدخل إلى النعيم بعينه . . . وجريت نحو منزل جدتي . . .

ركضت كطفلة . . . واقتحمت المنزل ووجدت ماما نشمية بطلتها المهيبة جالسة في مكانها المعتاد . . . ودون أن أتكلم ركضت نحوها ورميت نفسي بين أحضانها وأنا أقبل كل ما تلمسه شفتاي منها . . . وربتت هي على رأسي ، وخلال لحظات شعرت بسلام عظيم وقد استشعرت حقيقة أنني الآن في حماية جدتي . . .

قبلت أولاد تهاني كثيراً أيضاً ، كنت أشعر أنني غبت عنهم لسنوات . . . وعندما دخلت غرفتي بعد هذه الغيبة شعرت أنني لا أريد أن أكون في أي مكان في هذا العالم سواها . . .

نمت تلك الليلة في سريري . . . بين وسائدي المريحة . . . نمت كطفلة سعيدة ، وبعمق شديد . . .

واستيقظت في الصباح ، لم يختلط عليّ الوقت كما يحدث عادة للعائدين

من الولايات المتحدة ، وكأنني لم أكن هناك أصلاً !

لكنني فكرت بحمد بمجرد استيقاظي . . . وشعرت بيد قاسية تعتصر قلبي . . . ترى ماذا فعل من غيري؟ من سيحممه الآن؟ ومن سيهتم بنظافته وأكله؟ ما الذي يشعر به؟ هل سيتأثر لغيابي؟ أم أن الفتاة الأخرى التي أتت خصيصاً لزيارته ستكون معه بدلاً عني؟

هل يحبها؟ أم أنه يحبني أنا؟ وإن كان يحبني أنا . . . لم لا يزال على علاقة معها؟ ولم أجد أي إجابة على تساؤلاتي . . .

في ذلك اليوم دعانا عمي ماجد على الغداء في بيته ، وقمنا بتلبية دعوته وواصلت مسلسل الأكاذيب أمامه ، فهو بالذات لا يمكن أن أظهر له مدى ندمي وتعاستي ،

وعندما عدت في الليل تملكني القلق على حمد ، قررت الانتظار لما بعد منتصف الليل من أجل فرق التوقيت ، وفي الساعة المناسبة اتصلت بهبة التي أجابتني على الفور . . .

سألتها عن حمد فقالت لي بعتاب إنه حزين جداً ، ولم يذق الطعام منذ ذهابي ،

أخبرتها أنني اضطررت للعودة وطلبت منها الاهتمام به ، ولم أطلب منها محادثته ، لم أجرؤ على محادثته !

ذهبت إلى الجامعة في اليوم الثالث بعد وصولي ، ودخلت محاضراتي التي كنت متأخرة فيها فالدراسة بدأت منذ فترة لكنني كنت قادرة على مسايرة باقي

الطلبة خاصة بعد أن تفهم الأساتذة وضعي ،

وأخيراً التقيت الدكتور خالد الذي كانت إحدى موادي عنده مع شريفة ، وفرح جداً لرؤيتي وسألني عن حمد ، فارتبكت ، وقلت بسرعة إنه بحال أفضل ، وإنه لا يزال في أمريكا مع أهله . . .

صارحت شريفة بإحساسي بالذنب نحو زوجي الذي تركته وحده في محنته فواستني وأخبرتني أنني فعلت الصواب بعودتي فالله وحده يعلم متى يستطيع حمد العودة إلى الكويت . . .

بعد يومين آخرين هزمني الشوق إلى سماع صوت حمد ، وحرمني الاحساس بالذنب من النوم ، فاتصلت بهبة وطلبت منها محادثته . . . ساد الصمت برهة . . . ثم جاءني صوت هبة معتذرة : بسمة . . . إنه متعب ولا يستطيع الحديث الآن . . .

خفق قلبي بعنف وقلت لها : أرجوكِ . . . أحتاج إلى أن أسمع صوته . . . أخبريه أنني أرجوه . . .

قالت باستسلام : حاضر !

قال حمد بصوت خافت جداً : ألو . . .

قلت له بصوت يتعذب : يا بعده . . . هل أنت بخير؟ كيف حالك الآن . . .؟

ولم يجب حمد على سؤالي ، بل أجابتني دموعه . . .

وجزعت . . . كدت أجن وأنا أسمعه يبكي . . . شعرت أنني أصبحت كالفأر في المصيدة ،

رجوته أن يتوقف عن البكاء وأخبرته أنني أحبه ، بل وطلبت منه السماح ،

أخذت هبة الهاتف وقالت لي هامسة : سأتصل بكِ لاحقاً . . . مع السلامة .

خرجت من غرفتي كالمجنونة وجريت إلى أختي دلال ، وحكيت لها وأنا أبكي كل ما جرى بيني وبين حمد . . .

شهقت دلال وقالت : تركته بهذه الطريقة وهو في هذه الحال؟ كيف استطعتِ فعل ذلك؟

أخبرتني دلال أنها واثقة من حب حمد لي ، قالت لي إن إحساسها لا يخيب أبداً ، فقد رأت حبه لي في عينيه ، من طريقة نظراته إليّ ،

فسرت وجود الفتاة الأخرى على أنها فتاة من ماضيه ، ربما كانت حباً قديماً له ، أو صديقة من الدراسة ، فقد درس في الولايات المتحدة وربما أتت هذه الفتاة لتراه من ولاية أخرى بعد أن سمعت بمرضه ،

لم أقتنع كثيراً بكلام أختي فلو كانت مجرد صديقة لكان أخبرني عنها ، كان حدسي يخبرني أن له علاقة جادة بتلك المرأة !

توالت الدعوات من الأهل في الأيام التالية ، فالكل سمع بعودتي ويريد الترحيب بي ،

وبعد مرور عشرة أيام على عودتي أقامت ماما نشمية غداءً فاخراً في يوم تجمعنا الأسبوعي المعتاد على شرف عودتي . . .

تلاشت فرحتي بعودتي وقد أصبحت شديدة القلق على حمد .

لم أتصل بهبة لعدة أيام لكنني ذهبت لزيارة والد حمد في بيتهم واشتريت هدية لسعود ، الذي ذكرني بأيام العلاج الصعبة بمجرد رؤيته من جديد . . .

التقيت أيضاً بآلاء زوجة فواز والتي أصبح بطنها كبيراً . . . وسألتني كثيراً عن وضع حمد وعن تاريخ عودته التي لم أستطع طبعاً إفادتها بخصوصها . . . كانت المسكينة تتمنى عودة فواز وقت ولادتها وتمنيت لو شفي حمد فعلاً قبل ذلك ليشهد فواز ولادة طفله الأول . . .

كنت أعرف أن فواز لن يترك حمد أبداً ، كان يحبه كثيراً ، ويشعر بالمسؤولية نحوه ، ومن المستحيل أن يتركه حتى لو ولدت آلاء .

حاولت أن أشغل نفسي بدراستي لكنني كنت أشرد كثيراً وأنا أفكر بحمد . . .

فوجئت عمتي حصة بخبر عودتي ولم أستطع تفسير الأمر لها على الهاتف عندما اتصلت بي . . .

كنت مرتبكة للغاية ومشاعري متناقضة ،

وفي يوم ذهبت لزيارة شريفة في بيتها ونسيت هاتفي النقال في البيت ،

عدت في العاشرة مساء ففوجئت بخمسة اتصالات من هبة . . .

جزعت لاتصالها بي على هذا النحو المتكرر واتصلت بها خائفة ، ردت هبة عليّ على الفور وكأنها كانت بانتظاري ،

قالت هبة بلهفة : بسمة أين أنتِ؟ لم لا تردين عليّ؟

قلت بسرعة : كنت في منزل صديقتي ونسيت هاتفي بالبيت ، ما الذي حصل؟ حمد بخير؟

قالت هبة : لا . . . حالته سيئة جداً يا بسمة ، إنه يتدهور سريعاً . . . وقد دخل العناية المركزة اليوم . . . بسمة . . . الأفضل أن تأتي إلينا . . .

صرخت : ماذا تقصدين؟

قالت هبة باكية : إنه متعب . . . ونفسيته سيئة منذ تركته وهو لا يكف عن مناداتك . . . تعالي يا بسمة . . . حرام أن تتركيه في هذه الظروف . . . أرجوكِ عودي . . . أتوسل إليكِ . . .

وجن جنوني . . . يجب أن أعود . . . لابد أن أعود ، ماذا لو حدث شيء لحمد وأنا بعيدة عنه؟ كيف سأتحمل شعوري بالذنب وقتها؟ لقد كنت حمقاء عندما تركته ، أردت معاقبة رجل مريض؟ ألا يكفيه المرض؟ وأخذت ألوم نفسي ،

وقررت الانسحاب من ذلك الفصل الدراسي على أن أعود للدوام في يناير القادم في الفصل الدراسي الثاني إن سمحت لي الظروف .

وفي الصباح الباكر توجهت إلى الجامعة لأسحب المواد وأوقف قيدي الدراسي . . .

والتقيت الدكتور خالد الذي نصحني بالسفر أولاً ثم اتخاذ قرار الانسحاب فقد تستقر حالة زوجي وقد أتمكن من العودة قريباً ،

لكنني رفضت . . . فضلت الانسحاب من الفصل الدراسي . . . لم أرد ترك الأمور معلقة خلفي . . . عرفت شريفة بقراري ولم تحاول اقناعي بالبقاء هذه المرة . . .

عدت إلى البيت وأنا أعلن لهم أنني سأسافر ، صدمت أمي بهذا الخبر المفاجيء ، لكنها لم تلح عليّ بالبقاء بعد أن أخبرتها بوضع حمد الحرج ،

أوصتني ماما نشمية بالتمسك بالأمل ، وأعطتني قنينة من ماء زمزم وطلبت مني أن أمسح منها على جسد حمد . . .

خلال ثلاثة أيام من ذلك الاتصال سافرت إلى الولايات المتحدة بقلب خائف . . . كنت أخاف أن أصل بعد فوات الأوان . . . أيمكن للأوان أن يفوت فأفقد حبيبي إلى الأبد؟

دعوت الله متضرعة بأن يحفظ حمد ، وأن يشفيه وأن يعينه على مرضه ،

استغرقت رحلتي المتعبة ساعات طويلة ، بدلت فيها الطائرة في مطار لندن ،

حدقت طويلاً بدبلة حمد التي لم أخلعها أبداً منذ ألبسني إياها في عيد ميلادي . . .

كنت أتنهد بحرقة كلما تذكرت كلمات هبة . . . (إنه يتدهور

سريعاً) . . .

انهمرت دموعي أمام المسافرين مراراً ، اقتربت مني المضيفة اللطيفة وهي تسألني برفق : هل أنتِ بخير؟

هززت رأسي إيجاباً وكل ما بداخلي يصرخ : لا لست بخير !

لم أكن بخير أبداً وحبيبي هناك . . . ينازع . . . ويعلم الله هل أصل إليه بالوقت المناسب أم لا . . .

ووصلت . . . كنت منهكة . . . نفسياً وجسدياً . . . وقطعت الطريق الطويل إلى الولاية التي يقع فيها المستشفى . . .

وأخيراً وصلت . . . تركت حقيبتي عند موظف الأمن وجريت إلى قسم العناية المركزة ،

كان قلبي يخفق بقوة . . . وعندما وصلت وجدت أم حمد وهبة تقفان في الممر . . .

اقتربت منهما وقد تهللت أساريرهما لرؤيتي ،

قالت هبة : حمد الله على السلامة .

وقبل أن أقبل أي منهما سألت بلهفة : كيف حاله؟

أشارت لي هبة نحو الزجاج لأطل على حمد الراقد في هدوء . . . وبلحظة غمرني حنان لا حد له عليه . . .

كان غارقاً في النوم ، كملاك . . . وجهه شديد الشحوب وقد أصبح جلده داكناً جداً . . . لم أستطع تبين ملامحه جيداً فقد بدأت أبكي . . .

شدتني أم حمد من ذراعي وهي تقول : هيا سندخل إليه ، يجب علينا تغيير ملابسنا .

توجهنا إلى الممرضة المسؤولة وقالت لها أم حمد : نريد أن ندخل إلى حمد ، خذي إذن الطبيب .

نظرت الممرضة إليّ ثم سألت : أهذه هي بسمة؟

قالت أم حمد : نعم ، هذه هي . . .

قالت لي الممرضة : إنه يحبك كثيراً . . . لم يتوقف أبداً عن مناداتكِ . . .

ولم أستطع النطق بأي كلمة أخرى . . . خنقتني مشاعري ، وخلال دقائق ارتدينا رداءً خاصاً بالمستشفي وأبدلنا أحذيتنا وغطينا شعرنا وتم إدخالنا إلى قسم العناية المركزة لنرى حمد ، اقتربنا منه أنا وأمه ، دنت منه أمه وعيناه لا تزالان مغمضتان . . .

وهمست : حمد . . . من يدللك ويقول لك يا بعده . . .؟

أجابها حمد دون أن يفتح عينيه : بسمة . . .

قالت أمه : إنها هنا يا نور عيني . . . لقد أتت من أجلك . . .

وفتح حمد عينيه ورآني . . . وابتسم . . . اقتربت منه وأنا لا أستطيع مغالبة

دموعي ،

وهمست له : كم أحبك . . . سامحني . . .

وابتسم ابتسامة أكبر . . .

ما حدث بعد ذلك كان أشبه بالمعجزة . . . لقد تحسن حمد كثيراً ، خرج من العناية المركزة ، واستعاد عافيته شيئاً فشيئاً ، تحسنت شهيته للأكل ، واستعاد جلده لونه ، لم أعد افترق عنه . . . أصبحت أعيش معه تقريباً في المستشفى ، أنام عنده في الليل ، أشرف على نظافته وطعامه ، أغير له ملابسه ، وأشبعه تقبيلاً وتدليلاً ، لم يعد يهمني أي شيء ، سوى أن أراه معافىً ، ركزت كل طاقتي على فكرة شفائه ويبدو أن الأمر نجح هذه المرة ، حتى الطبيب كان سعيداً للتحسن الكبير في حالته ، الحب يصنع المعجزات . . . بدأت أؤمن بهذه المقولة ، لم نتحدث أنا وحمد أبداً عن حادثة تلك الفتاة الغامضة ، ولم أرد أن آتي على ذكرها كي لا أكدر صفوه ، أتى زوج هبة لزيارتها وانشغلت هبة به وأم حمد تخرج معهما أو مع فواز معظم الوقت في حين كرست أنا نفسي لرعاية حمد دون كلل أو ملل . . .

أحضرت ماء زمزم الذي أعطته لي جدتي ، وبدأت أمسح به على جسد حمد ، لمحتني إحدى الممرضات وأنا أفعل ذلك فسألتني عن هذا الماء فأخبرتها بطريقة مبسطة قصة السيدة هاجر وكيف تفجر الماء المبارك تحت قدميها خلال سعيها . . .

في اليوم التالي زارتنا نفس الممرضة وبيدها إناء من الماء ، قالت لنا إن هذا الماء أحضرته من قس شهير في الكنيسة وأنه أيضاً مقدس . . . طلبت من حمد أن يشرب منه ، فخفت عليه . . . خفت أن يكون الماء ملوثاً لا سمح الله فيضره . . .

ضحك حمد وقال لي : أقسم أنني مستعد لتجرع السم إن كان فيه شفائي . . .

ودون تفكير أمسكت الإناء وشربت منه قبله ، سألني حمد : لِمَ شربتِ منه؟

قلت صادقة : كي يصيبني المكروه قبل أن يصيبك . . . ليتني أستطيع أن أفديك بعمري يا حمد .

وقبّل حمد يدي ، وشرب من الماء كي لا يحرج الممرضة الطيبة . . .

يقارب المرض بين الأشخاص ، نتخطى اختلاف الأديان والمعتقدات ويبقى الإيمان بالله عز وجل ما يجمع البشر . . .

الإنسانية فطرة خالصة . . . وفي ذلك المكان يدعو الكل للآخر بالشفاء بغض النظر عن دينه وعرقه . . .

كنا نفرح كلما عرفنا بشفاء مريض ما ونحزن كل الحزن عندما نسمع خبراً حزيناً عن مريض آخر ،

التقيت امرأة في المشفى في تلك الفترة ، كانت جميلة إلى حد لا يصدق ، في الأربعين من عمرها ، فقدت شعرها كله بسبب العلاج ، وتركت رأسها مكشوفاً دون أن تغطيه كما يفعل الجميع ، ورغم ذلك كان جمالها أخاذاً ، والنور يفيض من وجهها ،

تحادثت معها يوماً ، فأخبرتني أنها سعيدة . . . قالت لي إنها عاشت حياة مفعمة بالحب ، وأن الله قد رزقها الكثير من الأشياء الجميلة التي تقدرها كثيراً

وتشعر بالامتنان لأنها حظيت بها ،

أخبرتني أنها تقبلت مرضها ، وصبرت على العلاج بعزم . . . ورغم أن المرض منتشر في جسدها إلا أنها ليست خائفة من الموت . . . بل على العكس ، إنها تتوق إلى لقاء الله ، ومشتاقة لرؤيته . . .

أثرت بي ماريا كثيراً وكان هذا اسمها ، شعرت أنها حفرت شيئاً في قلبي بكلامها ،

كانت مؤمنة بالله عز وجل ، ذلك النوع الراسخ من الإيمان . . .

توفيت ماريا بعد حديثنا معاً بعشرة أيام ، أخبرتني الممرضة أنها كانت مبتسمة ، ولم يسلب منها الموت شيئاً من جمالها ،

لم يبكي زوجها عند رحيلها ، قبّلها وهو يهمس لها : لترقد روحك بسلام . . .

كان يعرف أنها سعيدة في موتها ، كما كانت سعيدة في حياتها ، تمنيت المشاركة في مراسم دفن ماريا ، لكنني لم أكن أستطيع الغياب عن حمد ، لكنني في وقت لاحق أصبحت أرى ماريا وأشعر بوجودها كلما وقعت عيني على زهرة جميلة . . . فكل الزهور أصبحت تذكرني بماريا الفاتنة . . .

(42)

طفل يرى النور

رزق فواز بولد . . . ولم يحضر فواز ولادته . . . وصله الخبر السعيد وهو بيننا في المستشفى ، باركنا له ورأيت ابتسامته الواسعة لأول مرة منذ عرفته ،

قالت أم حمد : ماذا تحب أن تسميه؟

قال فواز : أحب أن أسميه حمد . . .

قالت بسرعة : لا . . . لاتسمه حمد ، لدى اعتقاد أن التسمية على شخص حي فأل سيئ . . .

قالت هبة : كلام فارغ . . . الأعمار بيد الله وحده ، وآلاف النساء يسمين أولادهن على أحبابهن . . .

قال حمد : يمكنك أن تسميه باسم أي شخص تحبه .

قال فواز متأثراً : لا أحد أحب إليّ منك يا أخي . . .

كان فواز رقيقاً رغم جفائه ، حنوناً رغم قسوته ، طبعه الجاف وصلابته كانا مجرد قناع لشخص محب لا يجيد التعبير عن مشاعره ، وأسمى طفله الأول حمد ،

أرسلت له آلاء على الهاتف عدة صور لحمد الصغير ذي الوجه المحمر المنتفخ الذي ولد قبُل أوانه بعدة أسابيع . . .

شعرت بالحنان والتوق إلى الأطفال بمجرد أن رأيت صورة ذلك الصغير . . . إن الأطفال نعمة كبيرة ، يقدرها كثيراً من حرم منها . . .

دعوت تلك الليلة قبل أن أنام على مقعد المستشفى : يارب ارزق كل محروم ذرية صالحة طيبة فإنك سميع الدعاء . . .

في اليوم التالي سمح الطبيب لحمد بالخروج إلى الحديقة الملحقة بالمستشفى ، فرحت كثيراً لهذا القرار المبشر بالخير ، وأحضرت الممرضة كرسياً ذو عجلات لأقوم بدفعه إلى الخارج ،

ساعدت حمد بارتداء ملابسه ، ووضع قبعة صوفية على رأسه الحليق . . . وساعدتني الممرضة بوضعه على الكرسي ، كانت ساقاه ترتجفان عندما حاول الوقوف . . . لا يزال جسده ضعيفاً ومتعباً . . .

دفعته في ممرات المستشفى وأخيراً خرجنا إلى ضوء الشمس ، كان الجو جميلاً وصحواً ونسمات رقيقة باردة تداعب وجنتينا . . .

كنا قد أصبحنا في شهر نوفمبر من ذلك العام . . . دفعت حمد بين الورود الملونة ثم جلست على مقعد كبير وهو بجواري على كرسيه المتحرك وساد الصمت بيننا مستمتعين بالأجواء الطبيعية الجميلة ، كان هناك بعض المرضى أيضاً . . . لكننا شعرنا كما لو أننا وحدنا . . . فالكل مشغول بنفسه وأفكاره .

قطع حمد هدوءنا الجميل بسؤال لم يخطر لي على بال إذ قال : بسمة . . . إذا مت . . . فهل ستتزوجين من بعدي؟

باغتني حمد بسؤاله وانزعجت كثيراً بسببه ، التفت إليه بكل جسدي فأصبحت بمواجهته تماماً في حين كان هو ينظر إلى الأفق البعيد . . .

قلت له : لماذا تسألني سؤالاً كهذا؟

قال بإصرار : أريدكِ أن تجيبي على سؤالي وبصدق .

قلت أشاكسه : لم أفكر في هذا الموضوع من قبل . . . إن اتخذت قراراً سأخبرك .

قال بجدية : بسمة . . . أنا جاد . . . هل ستتزوجين من بعدي؟

أشفقت عليه كثيراً . . . مددت يدي واحتضنت يده

وقلت : أنت لن تموت . . . ستشفى وستعيش عمراً مديداً معي بإذن الله .

قال حمد : لكنك لم تجيبي على سؤالي . . .

قلت بإصرار : لأن سؤالك في غير محله . . . أنت ستعيش وستبقى معي طوال العمر ، إياك وأن تفكر بأفكار كهذه ، عدني أنك لن تفعل . . .

سكت حمد . . . فعدت أكرر : ستشفى إن شاء الله ، ولن يكون في حياتي كلها رجل غيرك ، لقد أحببتك حباً عظيماً استنفذ مشاعري كلها ولم يبق في قلبي أي جزء شاغر لأقدمه لأي شخص آخر على وجه هذه الأرض . . .

وابتسم حمد برضا وقال : أعدكِ أن لا أفكر بالموت . . .

قبلت جبينه : جيّد . . . عندما نعود إلى الكويت أريدك أن تأخذني إلى الحديقة لنركض ، كما فعلنا ليلة عقد قراننا . . .

ضحك حمد وقال : أتذكرين؟ كنا سعداء جداً . . .

قلت له : ستعود سعادتنا وسنعيش أياماً أجمل إن شاء الله .

سكت حمد ثم قال : أتمنى لو استطعت الركض معك هنا الآن ، لكنني أشعر بالوهن ، لقد تخلت عني قوتي . . . أكاد لا أعرفني .

رددت عليه بحنان : ستستعيد صحتك وقوتك . . . لقد تحملت الكثير بصبر ، كم أنت رائع وقوي .

قال حمد : أنا آسف يا بسمة . . .

سألته بدهشة : لماذا تعتذر؟

قال : لأنني أناني جداً . . . لم أستطع إعفاءك من أن تكوني معي في هذه الظروف ، أردتك بشدة ، ولم أفكر كم ستعانين معي ، عرضتك لظروف قاسية ، تعلقت بكِ كأمنيتي الأخيرة في الدنيا ، فكرت بنفسي ولم أفكر بكِ أنتِ . . . و . . .

قاطعته : لا تقل هذا الكلام ، لقد أحببتك . . . وقبلت بك في كل ظروفك ومن يحب شخصاً بصدق يكون معه بالسراء والضراء ، غداً تشفى وتعوضني عن هذه الأيام . . .

قال حمد : بسمة . . .

رددت بحب : يا بعده . . .

تنهد : أحبكِ .

ضممته إلى قلبي وأنا أقف لأقول : وأنا أحبك أكثر . . .

(43)

مناسبة سعيدة

مر شهر آخر ،

اشتاقت هبة لابنتها كثيراً وبدأت تفكر بالعودة إلى الكويت لفترة ،

وفي ذلك الوقت خُطبت أختي دلال لأحد أقربائنا ، فرحت كثيراً للخبر وتحدد موعد عقد قرانها في أواخر ديسمبر . . .

اقترحت عليّ هبة أن نعود إلى الكويت معاً لفترة قصيرة فأتمكن من حضور زواج أختي وترى هي ابنتها ثم نعود معاً إلى الولايات المتحدة ، فكرت أيضاً أنني أستطيع التسجيل لمواد الفصل القادم فمن يدري قد يسمح لنا الطبيب في العودة إلى الكويت . . . فقد تحسن حمد مؤخراً وباتت عودته محتملة في أي وقت ليكمل علاجه في الكويت . . .

أخبرت أهلي أنني سأعود بمناسبة عقد قران أختي وقمنا أنا وهبة بحجز التذاكر اللازمة ، لم يعترض حمد أبداً على ذهابي فهو يعرف كم أحب أختي وكم يهمني التواجد في يوم كهذا . . . كما أن أمه وفواز سيكونان معه وأنا لن أغيب أكثر من عشرة أيام فقط . . .

كانت عودتي هذه المرة مختلفة فاشتريت بعض الهدايا لأهلي ، وبعض الألعاب لأبناء تهاني ، واشتريت بعض الحاجيات الجميلة لعروسنا دلال ، وهدية قيمة لصديقتي المخلصة شريفة . . .

في بعض الأحيان كنت ألمح حمد و هو يبعث بهاتفه النقال فيثور الشك في نفسي ،

لكنني كنت أستعيذ الله من الشيطان الرجيم وقررت التغاضي عن هذه الشكوك فيكفي كل ما حدث من ورائها . . .

جاء يوم السفر . . . احتضنني حمد طويلاً إليه ، طوقته بذراعيّ وكل ذرة في جسدي تهتف بحبه ، أفلتني من بين ذراعيه أخيراً وقال : لا تتأخري . . .

وعدته : عشرة أيام فقط وسأعود لأجلك والمرة القادمة سنعود معاً إن شاء الله .

ابتسم بأمل : إن شاء الله حبيبتي . . .

وذهبت إلى المطار مع هبة ، شتان بين عودتي هذه المرة وعودتي التي قبلها . . .

عدت هذه المرة بقلب يملؤه الأمل ، قلب يترقب مناسبة عائلية سعيدة وأياماً جميلة قادمة ،

فكرت بثوبي الذي اشتريته خصيصاً لزواج أختي ، كان ثمنه معقولاً جداً بالنظر إلى فخامته ، تذكرت أثواب السهرة التي كنت اشتريتها في الكويت سابقاً ، وعرفت أنهم يوردونها من الخارج فيغيرون الدولار إلى دينار ويبيعونها بأسعار مضاعفة !

كان ثوبي بلون الورد الفاتح . . . تناثرت على حاشيته ورود صغيرة جميلة وعلى أكمامه مثلها ، أحببت ذلك الثوب كثيراً وذهلت لمقاسي الجديد وقتها فقد

أفقدتني الغربة والظروف القاسية التي مررت بها الكثير من وزني .

قررت أن أقص شعري في الكويت فقد أصبح يصل إلى آخر ظهري أحببت أن أقصره بعض الشيء وفكرت بصبغه أيضاً لكنني غيرت رأيي لاحقاً .

أتت أمي ومجبل لاستقبالي بالمطار ، وعدت إلى البيت بنفسية مرتاحة وقبلت رأس جدتي بحب واحترام كبيرين ، دعوت هبة لحضور زواج دلال ، ودعوت أيضاً آلاء زوجة فواز ولم أنسى شراء هدية فاخرة لحمد الصغير وقمت بايصالها لها بنفسي والتقيت والد حمد وسعود وطمأنت الجميع على وضع حمد الصحي . . .

أتت عمتي حصة من البحرين ولمست مدى ارتياحي فاطمأنت عليّ قالت لي كم شغلها التفكير في حالي وكم كانت قلقة عليّ . . .

سألتها إن كانت تشتاق لولدها الذي يدرس في الخارج فقالت إنها تشتاق إليه كثيراً لكنني كنت أعرف أن أهم شخص في حياة عمتي هو زوجها عادل ، وكل شوق يهون مادام إلى جوارها . . .

بدت دلال سعيدة جداً بخطيبها وبعد ثلاثة أيام من عودتي أقيمت حفلة عقد القران في منزلنا والتي لم تتح لي الظروف لأشارك في تحضيراتها الكثيرة التي ساهمت بها تهاني مع أمي بشكل كبير . . .

بدت دلال جميلة جداً في ثوبها الأبيض الذي أصرت على ارتدائه مع طرحة طويلة جداً كنت أشدها خلفها لتتمكن من المشي إلى الكوشة كما كانت تحلم دائماً . . .

حضرت هبة ومعها آلاء إلى الحفل ، ورقصنا كثيراً تلك الليلة ، عرفت كم

أصبحت هبة قريبة مني فقد تشاركنا الكثير معاً كما أنها من ألطف الشخصيات التي عرفتها في حياتي .

وقفت شريفة كأخت لنا في عرس دلال وكانت أمي تكلفها بالكثير من المهام كابنة حقيقية لها . . .

وفي وسط النساء جلست جدتي كالملكة والكل يتشرف بالمباركة لها بزواج حفيدتها والسلام عليها . . .

علق الجميع على فقداني للوزن ، وسألوني مراراً عن ثوبي الرائع ، كنت سعيدة جداً لأختي الغالية وتمنيت لها أياماً سعيدة وجميلة مثلها ، لم تكن خطبتها طويلة فقد تقدم لها عريسها وأنا مسافرة وتم إعلان الخطبة بعدها . . . وبما أنه من العائلة ، كانت دلال تعرفه بعض الشيء وبمجرد أن حادثته لفترة قصيرة عرفت أنه توأم روحها كما كانت تناديه . . .

زف العريس إليها . . . ولفتت وسامته الطاغية نظر الحاضرات ، قبّل دلال على رأسها ، وحملها بين ذراعيه لتقطع كعكة العرس ، كانا ثنائياً جميلاً ، وأحببت لطفه الشديد معها وفرحته الواضحة بها . . .

انتهى العرس فجراً و رميت بنفسي على سريري وأنا أكاد لا أشعر بقدمي من شدة التعب ،

أمسكت هاتفي النقال وأرسلت لحمد صورتي في العرس ، فأرسل لي قبلاته وأخبرني كم أبدو جميلة ،

نمت تلك الليلة سعيدة كما لم أكن منذ مدة طويلة وحلمت أحلاماً جميلة كأختي التي أصبحت أجمل عروس رأيتها في نظري . . .

(44)

قبل رمضان

في اليوم التالي للعرس صحونا من النوم قرابة الظهر ، ذهبت مع أمي التي تشعر بألم في ظهرها وقدميها إلى جدتي نشمية وبدأنا نتحدث عن أحداث العرس ،

كانت دلال قد ذهبت إلى أحد الفنادق مع زوجها ، وعلقنا كثيراً عن انسجامهما معاً . . .

كان رمضان سيأتي بعد أيام (في ذلك العام كان شهر رمضان المبارك في أواخر ديسمبر) .

اقترحت أمي أن أطيل بقائي معهم إلى الاسبوع الأول من رمضان لألتقي أفراد العائلة الذين يأتون ليباركوا لجدتي قدوم الشهر الفضيل ، أخبرتها أنني رأيت أكثرهم في حفلة الأمس وأنني لا أريد أن أتأخر على حمد الذي وعدته بالحضور في موعدي . . .

اتفقت مع شريفة أن نذهب لاختيار مواد الفصل القادم فمن يدري قد أستطيع الالتحاق بالدراسة في يناير إن سمح الطبيب لحمد بالعودة كما كنا نأمل ونتوقع ،

مرت الأيام القليلة التي قضيتها مع أهلي سريعاً وفي ليلة سفري جاءني

ذلك الاتصال الذي قلب حياتي رأساً على عقب . . .

رن هاتفي ذلك المساء وأنا لازلت أحضر حقيبتي ، وكانت شريفة معي في غرفتي ،

نظرت إلى الرقم وقلت لشريفة : إنه اتصال من أمريكا . . .

رددت : ألو . . .

وجاءني صوت فواز ، لم أعرفه للوهلة الأولى فقد بدا لي صوته مختلفاً . . . وكأنه كان يبكي !

قال فواز : مرحبا بسمة . . . أنا فواز . . .

وسكت !

سألته : ما الأمر . . . هل حمد بخير؟

قال فواز : حمد متعب جداً . . . وقع هذا الصباح في الحمام ، وأدخل العناية المركزة يبدو أنه أصيب بفيروس ما . . . لا أعرف بالضبط كيف أشرح الأمر لك . .

شهقت : ماذا تقصد؟

قال فواز : متى تأتين إلى أمريكا؟

قلت على الفور : رحلتي غداً . . . وهبة قررت التمديد لاسبوع آخر . . .

قال فواز : إياك أن تمددي . . . أعتقد أنك لا تملكين الوقت . . .

صرخت وقد نفد صبري : فواز . . . بالله عليك . . . ما الذي تقصده بالضبط؟

بكى فواز وهو يقول : أعتقد أن حمد يحتضر .

(45)

طريق الدموع

بكيت في الطريق إلى المطار وبكيت في المطار ، وبكيت على مقعد الطائرة أمام الناس ، وبكيت وأنا أبدل طائرتي في لندن ، وبكيت على مقعد الطائرة الأخرى ، بكيت وبكيت وبكيت وكأن في داخلي نهر لا ينضب من الدموع ،

كانت حالتي مزرية عندما دخلت المستشفى هذه المرة ، أسوأ بكثير من المرة السابقة ،

وصلت إلى قسم العناية المركزة وكأن التاريخ يعيد نفسه ، لكن هذه المرة وجدت أم حمد تبكي اقتربت منها وعيناي جاحظتان وقفت أمامها وأنا أرتعش : أين حمد؟ ما الذي حدث له؟

قالت وهي تنشج : الحمدلله أنك أتيت يا بسمة ، في البداية ظنوا أنه مصاب بفيروس ما ، ثم أثبتت التحاليل أنه مصابَ بالتهاب حاد . . . نقلوا له الكثير من الدم لكنه متعب جداً و . . .

وجريت إليه ، ارتديت اللباس الخاص ودخلت لأراه . . .

كان حمد في السرير وحوله عشرات الأجهزة ، وأنابيب كثيرة مغروسة في جسده . . .

اقتربت منه وأنا أتأمل ما بقي لي من الرجل الذي أحببته ، تذكرته يوم رأيته

أول مرة ، طوله الفارع ، وجهه الذي تتفجر منه العافية ، شعره الناعم المتطاير . . . ابتسامته الكبيرة ، صدره العريض ،

كان الرجل الذي رأيته في تلك اللحظة شخصاً آخر ، بجسده النحيل ، ووجهه الداكن ، ورأسه الخالي من الشعر . . . كان رجلاً هزمه المرض . . . وسلبه إنسانيته . . . إنه بقايا رجل . . .

انهمرت دموعي للمرة الألف ربما . . . ووضعت يدي على جبينه . . . فتح عينيه بصعوبة ورآني . . . وبصعوبة أكبر ابتسم لي . . .

همست بأذنه وأنا أنحني عليه : يا بعده . . . كيف حالك؟ هكذا تفعل بي؟ كلما غبت عنك أعود لأراك في العناية المركزة؟

أومأ برأسه المجهد . . . قبلت جبينه وقلت باكية : لا تتركني يا حمد . . . لا تتركني في هذه الدنيا وحدي .

تحدث حمد بصعوبة شديدة وقال : سامحيني . . .

بكيت أكثر وقلت : سامحتك . . . سامحتك من كل قلبي يا حبيب الروح . . .

وأغمض حمد عينيه ، صرخت منهارة تماماً وكل شيء فيّ يتألم . . . اقتربت مني أم حمد وقالت : اذهبي إلى الشقة ونامي قليلاً . . . يجب أن ترتاحي ، فحمد بحاجة إليك . . . وسأبقى هنا مع وفواز ثم نلحق بك بعد قليل ، فلا يمكنك النوم عنده وهو فَي العناية .

سألتها ذاهلة : أين فواز؟

قالت : عند الطبيب . . . هيا يا ابنتي لقد وصلت للتو من رحلة طويلة ، ويجب أن ترتاحي . . .

وسرت وأنا أكاد أقع ، أخذت حقيبتي من رجل الأمن ، وصعدت إلى الشقة ، دخلت غرفتي ، وشهقت لمظهري المزري ، كنت فتاة أخرى ، شعري مشعث وملابسي مكرمشة فوق جسدي ، وعيناي متورمتان من البكاء . . . وقد حفرت دموعي أخاديد من الكحل على خديّ ،

دخلت الحمام لأستحم . . . وبدلت ملابسي ، ورميت بنفسي على سريري . . . وذهبت في إغماءة ، نعم قطعاً لم يكن ذلك نوماً ، كان إغماءً بلا شك من شدة التعب . . .

صحوت فجراً ، وقمت لأصلي ، توضأت طويلاً وكأنني أريد للماء أن يطفيء نيران قلبي ، جلست على سجادة الصلاة وأنا أتضرع إلى اللّه عز وجل . . . دعوت الله بإخلاص : يارب . . . يا قادر على كل شيء ، يا من إذا أراد شيئاً يقول له كن فيكون ، اشفي حمد عافه من هذا الداء ، ابقه لي . . . فقلبي معلق به . . . ولا أطيق الحياة من بعده . . . لا تردني يارب ولا تخيب رجائي يا كريم . . .

بكيت طويلاً على سجادة الصلاة . . . ناجيت الله طويلاً . . . وقرأت ما تيسر لي من القرآن الكريم فهدأت نفسي ، عدت للنوم فغفوت لساعة أخرى . . . واستيقظت على طرقات أم حمد على باب غرفتي ،

فتحت لها الباب وأنا لا أزال بملابس نومي ، طلبت مني النهوض لأتناول

الإفطار معها ، فأنا لم أذق الزاد منذ ركبت الطائرة من الكويت ، لم آكل أي شيء ليومين !

قمت متثاقلة وغسلت وجهي وأنا أتحاشى النظر إليه في المرآة ، وأكلت طعام إفطاري دون شهية ، لكن الطعام فادني ومنحني طاقة كنت أحتاج إليها في هذه الظروف ،

لم تكن أم حمد بحال أفضل مني ، كانت أيضاً منهكة بائسة ، كان الله في عونها ، فهي أم ترى فلذة كبدها وثمرة فؤادها في هذه الحالة .

قالت أم حمد : غداً إن شاء الله أول يوم من شهر رمضان المبارك .

تعجبت فقد خلت الشهر الكريم يبدأ بعد أيام ، لقد أنستني المصائب الشعور بالأيام ،

قلت بحرارة : عسى أن يكون ذلك خيراً . . . ويعود حمد معنا إلى الكويت في العيد .

تنهدت أم حمد وقالت : آمين يارب العالمين .

فتحت هاتفي النقال فوجدت عشرات الرسائل من أهلي ومن صديقتي شريفة . . . كلهم يسألون عن حمد ، أجبتهم جميعاً برسالة واحدة : هو تحت رحمة الله . . . لا يزال في العناية المركزة بسبب إصابته بالالتهاب ، دعواتكم له . . .

ارتديت ثيابي وربطت شعري خلف رأسي . . . وذهبت مع أم حمد إلى

المستشفى وكان فواز قد سبقنا إلى هناك باكراً . . .

رحب بي فواز وقال : حمدالله على السلامة يا زوجة أخي .

ابتسمت له بحزن : شكراً . . . الله يسلمك .

كان فواز ممتقع الوجه حزين التفاصيل مثلنا جميعاً . . . كم كان يحب حمد . . . كانت علاقة أخوتهما علاقة رائعة لا يحظى بها الكثير من الإخوة في هذا الزمن للأسف . . .

دخلت مع أم حمد إليه . . . وبدا لي أنه أفضل حالاً من الأمس . . . استطاع التحدث إلينا قليلاً . . . وأحسست أنه تحسن بعض الشيء . . .

قبلت أمه يديه وأصابعه كثيراً . . . ومسحت على جبينه ورأسه وهي تقرأ عليه آيات من القرآن الكريم . . .

كنت ابتسم لحمد مشجعة كلما التقت عيناي بعينيه الغائرتين . . . ابتسم له وفي قلبي ألف دمعة . . . حبيبي أنت يا حمد ليتني أستطيع أن أفديك بعمري . . .

قضينا يومنا بالكامل في المستشفى . . . في الصالة المجاورة لغرفة العناية المركزة ، نطل على حمد من خلال الزجاج بعد أن منعنا الطبيب من الدخول إليه ليرتاح ،

وعندما حل المساء عدنا إلى الشقة ، خرج فواز ليشتري لنا العشاء . . . فقد نسينا أن نتناول غداءنا ،

اتصلت بشريفة من غرفتي وحادثتها قليلاً . . . حاولت هي مواستي وطلبت

مني التمسك بالأمل والصبر .

عاد فواز بالعشاء وقال : لا تنسوا أن تعقدوا النية على صيام شهر رمضان فغداً اليوم الأول من الشهر الفضيل .

قالت أم حمد : إذن هذا العشاء بمثابة سحور لنا أيضاً .

قال فواز : نعم . . . لا أظن أننا نستطيع أكل أي شيء لاحقاً .

بقيت صامتة وتناولنا طعامنا بهدوء ، أرسلت رسائل هاتفية لأهلي : مبارك عليكم الشهر . . .

كنت أعرف أن رمضان بدأ عندهم في الكويت ذلك اليوم ، مع فرق التوقيت . . .

نمت عند منتصف الليل وقبل أن أنام قلت : نويت أن أصوم شهر رمضان المبارك قربة إلى الله تعالى .

(46)

رمضان

عندما وصلنا إلى المستشفى في اليوم التالي أخبرتنا الممرضة أن حمد قد نقل إلى غرفة عادية ،

ورغم أن هذا خبر مبشر عادة إلا أنني لمحت الكدر في وجه الممرضة !

توجهنا إليه بسرعة . . . ودخلنا . . . كان حمد ممدداً في سريره . . . وقد أزيحت عنه الأجهزة ما عدا جهاز لتخطيط القلب وبيان نبضاته . . .

قالت أمه : يا حبيبي يا حمد . . . الحمد لله أنك خرجت من العناية المركزة .

صاح فواز : أجر وعافية يا أخي . . .

أما أنا فقد اقتربت وقبلت رأسه وأنا أقول : مبارك عليك الشهر يا حبيبي . . . اليوم أول يوم في رمضان ، وإن شاء الله في العيد نكون كلنا في الكويت . . .

ولم يرد حمد . . . كان ضعيفاً لدرجة أنه كان عاجزاً عن النطق . . .

فُتح باب الغرفة ودخلت الممرضة وقالت : الطبيب يريد الاجتماع بكم . . .

سألها فواز : كلنا؟

قالت : نعم . . . كلكم . . .

خرجنا وراء الممرضة إلى غرفة الطبيب . . . دخلنا إليه وأغلقت الممرضة الباب وراءنا . . .

تنحنح الطبيب قليلاً ثم تكلم : بصراحة . . . لا أعرف كيف أنقل لكم هذا الخبر . . .

خفق قلبي بقوة لدرجة أنني وضعت يدي عليه ، وكأنني أخاف أن يخرج من بين ضلوعي . . .

قال الطبيب : لقد تمكن الالتهاب من حمد . . . لم يعد يمكننا مساعدته للأسف . . .

صرخت بحدة : ماذا تقصد؟

قال الطبيب : لقد وجدت أنه من الأنسب أن أنقله لغرفة عادية لهذا اليوم كي تستطيعوا البقاء بقربه . . . فاليوم غالباً سيموت حمد . . .

شهقت أمه وجحظت عينا فواز وقال : معقول أن يعجز الطب عن مساعدته؟ ما هذا الكلام يا دكتور؟

قال الطبيب وكأنه رجل آلي بلا مشاعر : لقد فعلنا كل ما بوسعنا ، حالياً تم تركيب جهاز لقياس نبضاته ، وقريباً ستبدأ مؤشرات الجهاز بالانخفاض تبعاً لانخفاض نبضات قلبه . . . إلى أن يرحل .

بكت أم حمد بكاءً هستيرياً . . . وانهمرت الدموع أيضاً من عيني فواز ، وبقيت

أنا جامدة . . . تأبى دموعي أن تنهمر ويأبى قلبي أن يستوعب . . . معقول . . . أن يموت حمد بهذه السرعة؟ أن يرحل ويتركني ونحن لازلنا في أول الطريق؟

قام الطبيب واقفاً إيذاناً منه بطردنا من مكتبه ، وقال : لدي حالات يجب أن أعاينها . . . أنا حقاً آسف لأجل حمد .

وخرجنا . . . ذاهلين . . . محطمين . . . كسيري الفؤاد . . .

ودخلنا على حمد . . . والتففنا حوله . . . بكت أمه كثيراً فلم يعد بوسعها التحكم بمشاعرها ،

جلس فواز يقرأ القرآن وهو يبكي بصمت وبقيت أنا كلبؤة جريحة في قفص خانق . . . لا أعرف ماذا أفعل لأنقذ حبيبي الذي يودع الدنيا . . . أنظر إليه وأعد أنفاسه وأشعر أن كل شيء في هذه الدنيا لم يعد يستحق العيش بعده . . .

اقتربت منه وجلست على سريره . . . وفجأة بكيت ، انسابت دموعي هذه المرة كالسيول . . . حتى أنها تساقطت على يده . . . فتح حمد عينيه بصحوة غير متوقعة ، نظر إليّ طويلاً وكأنه يودعني . . . همس بشيء لم أستطع سماعه ، فقربت أذني من فمه وسمعته ،

قال حمد : اذكريني . . .

بكيت وهمست بأذنه : أحبك يا حمد . . . سأشتاق إليك كثيراً . . . وسأحبك دائماً . . .

بدأت مؤشرات الجهاز تتذبذب على الشاشة

90%

90%

90%

أحبك يا حمد . . .

80%

80%

80%

أنت روحي يا حمد . . .

70%

70%

70%

كم ستُظلم دياني من بعدك . . .

60%

60%

60%

كم أحببتك

50%

50%

50%

أجمل لحظاتي عشتها معك أنت .

40%

40%

40%

كم سأكون وحيدة من بعدك .

30%

30%

30%

لا تتركني يا حمد . . .

20%

20%

20%

أنت حب عمري يا حمد .

10%

10%

10%

أحبك أحبك أحبك .

0%

يا بعده . . .

وفاضت روح حمد . . .

(47)

يا بعده

يعجز الثمانية والعشرون حرفاً في اللغة على التعبير عن ما أحسست به ذلك اليوم . . .

لقد أُزهقت روحي بموت حمد ، مت أنا مثله تماماً عندما مات لكنني لم أتمكن من مغادرة جسدي ،

بقيت حبيسة جسد لم أعد أريده في دنيا لم أعد أريدها ، كم كان رحيلك قاسياً يا حمد ، مؤلماً ، صعباً ، وحزيناً . . .

كم أكرهك أيها السرطان . . . أيها الداء الخبيث الذي يغتال شباباً . . . أطفالاً . . . أعماراً بلا رحمة ، كم أدعو ليل نهار أن يوفقنا الله بإيجاد علاج لك ، لنغلبك فلا تدمي أي قلب بالفقد بعد ذلك . . .

رحل حمد وبقيت ملتاعة من بعده . . . كئيبة . . . حزينة ، محطمة . . . قليلة الحيلة . . . تسربت من بين يدي حبيبي دون أن أستطيع فعل أي شيء لأساعدك سامحني . . . فأنا مجرد مخلوقة ضعيفة لا تملك لنفسها نفعاً ولا ضراً ، سلمتك يا حبيبي إلى الله الذي رحمك من عذابك وأراح جسدك من مرضك القاتل .

لن أذكر التفاصيل التي قد توجع قلوبكم أكثر . . .

لكنني عدت إلى الكويت مع أم حمد . . .

بقي فواز ليقوم بإجراءات نقل جثمان حمد إلى الكويت ولم ننتظر معه ، لم تطق أم حمد أن تركب طائرة يرقد فيها جسد ولدها بتابوت . . . كان هذا فوق احتمالها . . .

عدت مع أم حمد وكل منا تكاد لا ترى طريقها من شدة الحزن ،

وصلنا إلى مطار الكويت وكان أهلي بانتظاري . . . أمي . . . تهاني . . . دلال . . . مجبل وشريفة . . .

ووالد حمد . . . وهبة . . . وآلاء . . . لا أذكر إلا أنني كنت أنتقل من حضن لآخر ، وأمزج دموعي بدموعهم . . .

كان الحدث أكبر من أن تصفه الكلمات . . . والحزن أكبر من أن تصفه الحروف . . .

اقتربت مني أمي بعباءة وقالت وهي تبكي : بسمة . . . ارتدي العباءة الآن وغطي بها وجهك فأنتِ الآن في العدة يا ابنتي . . .

وشهقت . . . العدة؟ ! أنا في العدة؟ ما معنى العدة؟ صغيرة أنا على العدة . . .

لقد أصبحت أرملة وأنا لازلت في الحادية والعشرين من عمري . . . وتوفي زوجي وهو في الخامسة والعشرين من عمره . . . كم أرثيك يا حمد ، وكم أشتاق لك . . .

وصلت إلى بيتنا وأخذوني إلى جدتي . . . وقفت أمامها ملتفة بعباءتي . . .

ولأول مرة منذ زمن بعيد رأيتها تبكي وبحرقة شديدة . . . اقتربت منها وقد طأطأت رأسي ، رفعت ذقني إليها وبلحظة أصبحت بين أحضانها . . . آه يا جدتي . . . لو تعرفين كم قاسيت . . .

وتقرر أن يكون العزاء في منزل أهل حمد . . . ما أصعب أيام العزاء وما أثقلها . . . لو كان الأمر بيدي لكنت غيرت تقاليد العزاء كلها . . .

لكنت جعلتها بعد الدفن باسبوع على الأقل ، ألا يكفي صدمة الفقد؟ ووجع القلب؟ ما أصعب مواجهة الناس . . . كنت أحتاج أن أخلو بنفسي لكنني كنت مضطرة لمقابلة الناس . . . ولماذا يقبلني كل هؤلاء الناس؟ كم أتمنى لو أنني بقيت وحدي لأهدأ ، لأفكر ، لأبكي كما يحلو لي ، لأحتضن وسادتي وصورة حمد الذي لازلت لاأستوعب رحيله . . .

كنت أجلس بجوار أم حمد وهبة . . . تشهق بعض النساء عندما يشار إليّ بأنني زوجة الفقيد الشاب . . .

أسمع همساتهن المشفقة : المسكينة . . . لازالت شابة . . . إنها صغيرة جداً . . .

مسكينة أنا حقاً . . . وبلاشك . . . أتت عمتي حصة منهارة بالبكاء لحضور العزاء وهي لا تصدق أن حمد مات فعلاً . . .

وفي اليوم الثالث من العزاء سمعنا صراخاً وعويلاً من خارج البيت فرفعنا رؤسنا متسائلات !

دخلت أختي دلال وقالت : عذراً . . . هناك فتاة أوقفتني وأنا أهم بالدخول . . .

وسألتني من المتوفى في هذا البيت؟ عزاء من هذا؟ وعندما قلت لها حمد . . . صرخت و ولولت . . . لا أعرف من هي . . .

هززت رأسي متفهمة . . .

فسألتني هبة هامسة : أتعرفين من تكون؟

قلت لها بألم : إنها . . .فهد !

(48)

شهور صعبة

حاولت أن أعرف من دلال لاحقاً أي معلومات عن تلك الفتاة . . . شكلها . . . هيئتها . . . طولها ، مستوى جمالها ، لكن دلال لم تفدني كثيراً ، كل ما قالته إنها بيضاء البشرة ، محجبة ، ترتدي العباءة الإسلامية وأن معها ولد صغير يجلس في المقعد الخلفي لسيارتها !

وحاك عقلي عشرات القصص حولها ، أكانت تحب حمد قبلي ثم تزوجت من آخر ولم تحتمل البعد عنه فعادت إليه؟ أم أنها عرفته وهي متزوجة ولهذا لم يستطع حمد الزواج بها؟ ما هي طبيعة علاقته معها؟ وإلى أي مدى كانا مقربين؟ فردة فعلها عندما عرفت بوفاته كانت حادة وعنيفة ، لابد أنه يعني لها الكثير و . . .

وما الذي يهم؟ لقد رحل حمد ، وأخذ سره معه . . .

ومهما كان موقع الأخرى في حياته ، أظل أنا الأهم ، فأنا زوجته . . . أقصد أرملته وعليّ أن أعتد الآن ، لأربعة شهور كاملة ، وفوقها عشرة أيام . . .

أعطتني الجامعة إجازة للعدة دون أن أنسحب من موادي ، أخبروني أن عليّ متابعة المحاضرات من المنزل بمساعدة زميلاتي على أن أخضع للاختبارات المهمة ،

كنت قد سجلت في أربعة مواد ذلك الفصل ، أحضرت لي شريفة الكتب

بمجرد أن بدأ الفصل الدراسي وكانت تأتي لتشرح لي الدروس كل يوم ،

انتظمت شريفة في زيارتي وكذلك فعلت أم حمد . . .

فوجئت بعاطفتها الجياشة نحوي والتي بينتها لي بعد وفاة حمد ، كانت تزورني بشكل شبه يومي ، وتتصل لتطمئن عليّ على الدوام . . .

كنا نبكي معاً كثيراً ، نتذكر حمد وننخرط في نوبات بكاء حادة ، وجدت في وجودها بقربي مواساة حقيقية ، ووجدت في أحضانها رائحة حمد التي حُرمت منها إلى الأبد . . .

حدثتني كثيراً عن طفولته ، صباه ، شبابه ، سفره إلى الولايات المتحدة للدراسة ، قالت بحسرة لقد عاد في المرة الأولى منها بشهادة دراسية ، وعاد في المرة الثانية بشهادة وفاة . . .

كم كانت تتألم . . . كانت أماً ثكلى ، تنوح على فراق ولدها ويتقطع قلبها على فقدانه ،

قالت لي مرة كلمات لن أنساها . . . قالت وهي تربت على شعري : سبحان الله الذي زرع محبتك في قلبي يا بسمة ، كنت رافضة لزواجكما في البداية لكن الله كتب لكما هذا الزواج ليعوضني بكِ عن فقداني لولدي ، سبحان من أخذ حمد وتركك لي بدلاً عنه . . . لأشم فيك رائحته الغائبة . . . فقد كنت أحب الخلق إليه ، لَقد أحبك كثيراً . . . كثيراً جداً ، لم يحب أحداً في حياته كمَا أحبكِ أنتِ .

أثرت بي كلماتها كثيراً . . . ومن الصميم . . . وشعرت بالمسؤولية نحوها . . .

وعاهدت نفسي على أن أكون بارة بها كأمي وأكثر . . .

لم أحضر دفن حمد ، منعتني أمي من ذلك منعاً باتاً ، لقد خافت عليّ ، رفضت اقتراحي من أن أذهب وأنا أغطي وجهي كوني في العدة ، لم تسمح لي إطلاقاً وكانت حاسمة جداً هذه المرة . . . خافت أن لا يحتمل قلبي الموقف ، فرضخت لها . . . لكنني بداخلي كنت أتوق لزيارة قبره ، وبنفس الوقت كنت أهاب هذه الزيارة ،

أخبرتني أم حمد أنها تزور قبره كل جمعة . . . كم تمنيت لو استطعت الذهاب معها . . . لكن الوقت كان مبكراً على ذلك .

ألغت ماما نشمية الزيارة الاسبوعية في بيتها للعائلة . . . أخبرت الجميع أن هذا الإلغاء سيطول إلى وقت خروجي من العدة ، فقد كنت أذهب إلى بيتها كثيراً كونه المكان الوحيد المسموح لي بزيارته خلال تلك الشهور الصعبة . . .

أتى شهر فبراير في ذلك العام مختلفاً . . . وجاء عيد ميلادي الثاني والعشرين كئيباً . . . نظرت إلى دبلة حمد التي لم أخلعها أبداً من اصبعي منذ عام كامل ورثيت نفسي ، سحبت روايتي المفضلة لأعثر على وردة جافة احتفظت بها من باقة الزهور التي أرسلها لي حمد في عيدي الماضي ، كانت الزهرة اليابسة تشبهني ، فقد فقدت لونها ، بريقها ، وحتى هيئتها . . . كانت هشة مثلي تماماً . . . تكفيها لمسة واحدة لجعلها تتفتت وتتلاشى . . .

حضرت تهاني ومعها دلال وشريفة أيضاً في عيد ميلادي ، التففن حولي صامتات ، لم يجدن ما يقلنه لمواساتي ، كان الحزن حفلتي والصمت هديتي في ذلك العيد . . . نظرت إلى صور خطوبتي التي تجمعني بحمد مئات المرات

وذرفت عليها الدموع مراراً . . .

لأول مرة في حياتي أقضي كل هذه الأيام في البيت ، تحيط بي الجدران طوال النهار . . . أنا التي اعتدت الخروج وارتياد المطاعم والمجمعات أصبحت سجينة في البيت ،

انكببت أدرس كتبي . . . موادي التي لم أحضرها ، وبدأت آكل أكثر من المعتاد فقط لأقضي الوقت ، في المساء كنت أقرأ القرآن الكريم لتهدأ نفسي ، وأنام على ذكرياتي الجميلة مع حمد ، وأصحو على حزن يثقل قلبي . . .

كلما أتذكر رحيله أشعر بألم في قلبي كان رحيله صعباً وشوقي له أصعب وأصعب . . . كان شوقاً بلا أمل في لقاء يطفئه . . .

زارتني هبة عدة مرات أيضاً وزارتني آلاء مرة واحدة مع حمد الصغير . . . ضممته طويلاً إلى صدري وداعبته وحملته فلم يستغرب مني ،

قالت آلاء : تجيدين التعامل مع الأطفال . . . لقد أحبك حمد بسرعة ، رغم أنه لا يندمج مع الآخرين بسهولة .

قلت لها بحزن : صحيح أنا أعشق الأطفال .

قالت باندفاع : أتمنى أن يعوضك الله بالزوج والأولاد فلا زلت صغيرة و . . .

سكتت آلاء فجأة وقد استوعبت اندفاعها الذي لم يكن في محله ، فأن تأتي على ذكر الزواج وأنا لازلت في العدة أمر لا يجوز ، والأهم أنني لازلت أحب حمد

ولا أتخيل نفسي زوجة لغيره أبداً . . . ساد صمت محرج بيننا فقالت متداركة : أنا آسفة يا بسمة . . . أنا حقاً آسفة .

قلت لها بلطف : لا عليكِ . . .

لكن الحرج ظل بيننا إلى أن همَّتْ بالرحيل . . . ولم تزرني بعدها ، ذهبت أم حمد لأداء العمرة بصحبة والد حمد وفواز وسعود أيضاً ، مسكين سعود رأيته يبكي كثيراً في أحد الأيام وأنا خارجة من بيتهم أيام العزاء ، وتألمت كثيراً لمنظره .

أثبتت لي شريفة مدى إخلاصها فهي لم تتركني أبداً ولم تغب عني إلا عندما أتت الامتحانات ،

وأوصلت لي الآتي . . . الدكتور خالد أخبرها أنه سيكلفني ببحوث أقدمها عوضاً عن الامتحانات الفصلية عدا الامتحان النهائي الذي يجب عليّ تقديمه كما أنه يرسل تعازيه الحارة إليّ . . .

في المادة الثانية طلب مني الدكتور بحوثاً أيضاً على نهج الدكتور خالد .

في المادة الثالثة – وكانت مادة اختيارية من قسم العلوم السياسية – أخبرت الدكتورة الرائعة شريفة أنها ستضع لي امتيازاً بالمادة دون أن أقدم أي امتحان وذلك مساندة منها لي ولتقديرها لوضعي ، أخبرت شريفة أنني حفظت الكتب الدراسية من شدة فراغي وأنني مستعدة للخضوع للامتحان النهائي على الأقل . . . لكنني لن أنسى بادرة تلك الدكتورة الطيبة ولن أنسى إنسانيتها ولازلت إلى اليوم أكن لها كل الحب وقد وفقها الله في سنوات لاحقة وتعينت في منصب وزاري مهم .

أما المادة الرابعة فقد كان الدكتور في قمة الأنانية ، قال أن عليّ الحضور لكل

الامتحانات كي أجتاز المادة ، وقال إنه مضطر لتقبل غيابي عن المحاضرات لكن الامتحانات لابد منها !

استاء أهلي كثيراً من موقفه وفكرت أمي أن تتصل بعمي ماجد ليكلمه ويذهب إليه ، لكنني رفضت وقررت الذهاب إلى الامتحانات . . . على الأقل سأرى الشارع ! ثم إنها حاجة ملحة ولي العذر في الخروج بسببها أليس كذلك؟

في موعد الامتحان الأول لتلك المادة ذهبت إلى الجامعة مع أمي وشريفة وأنا أرتدي العباءة والنقاب ،

دخلت مباشرة لقاعة الامتحان دون أن ألتفت في سيري أو أسلم على أي من زملائي أو زميلاتي ، وبقيت أمي تنتظرني خارج القاعة . . .

وبعد الامتحان مباشرة أخذتني أمي بسرعة وكأننا نهرب من شيء ما ، وعندما رأى الدكتور وضعنا أخبر شريفة أنه سيضاعف لي درجة الامتحان الذي قدمته بحيث لا اضطر للحضور إلى الجامعة إلا في الامتحانات النهائية حيث أكون قد انهيت العدة وقتها . . .

في إحدى الليالي ذهبت للعشاء في منزل جدتي . . . وكنا حول المائدة . . . أنا وأمي وماما نشمية . . .

وخطرت لي فكرة غريبة . . . لكنها حقيقية ،

إننا جميعاً أرامل ! نعم أنا أرملة وأمي أرملة وجدتي أيضاً أرملة . . .

يا للقدر . . . نحن ثلاثتنا نحمل نفس اللقب رغم أننا في مراحل عمرية

مختلفة ، لكنهما أفضل مني بكثير . . .

فجدتي عاشت عمراً كاملاً مع جدي رحمه ا لله ، وأنجبت له قبيلة كاملة من الأولاد والبنات والحفدة ،

قضت معه كل شبابها ورحل عنها وقد أصبحت سيدة كبيرة في العمر . . .

في حين عاشت أمي عمراً طويلاً مع أبي . . . أنجبت منه ثلاثة أبناء . . . وسعدت بقربه لأيام جميلة كثيرة ،

على الأقل ترك لها أبي أبناءً يذكرونها به وبملامحه التي غابت عن الحياة ،

أنا فقط الأرملة الأفقر بينهم . . . عشت مع زوجي ستة أشهر فقط ، أيامي الهانئة فيها قليلة ومعدودة ، ولم أحظَ بأي طفل منه قط . . . وكل ما بقي لي منه ذكرى حزينة لا تزال تنخر في قلبي وتسيل منها دموعاً تأبى أن تجف وتحفر بداخلي جروحاً لا تندمل . . .

(49)

كل الأيام تمر

وعلمني الزمن حقيقة مهمة . . . أن كل الأيام تمر ، الأيام الحلوة تمر ، والأيام الحزينة تفعل مثلها ولو أن وتيرة مرورها أبطأ بكثير . . .

وانتهت أيام العدة ، أقامت لي جدتي عشاءً فخماً في أول يوم خرجت فيه من العدة ،

صحوت ذلك اليوم ونظرت طويلاً إلى وجهي . . . هل تغير شيء ما في ملامحي؟ لم أرى شيئاً سوى ذلك الحزن الدفين في عيني ، عدا ذلك . . . تغير وزني . . . وبدوت أكثر امتلاءً نتيجة بقائي الطويل حبيسة البيت . . .

عندما دخلت صالة جدتي التي تضم كل أهلي ، أحسست بالدوار ، شعرت أنني على وشك الإغماء . . .

فقد مضى وقت طويل منذ رأيت ناساً بهذا العدد ، قبلتني النساء وسلم عليّ الرجال ، قبلّ عمي ماجد رأسي ببادرة طيبة وحنان لم أعهده فيه ،

واغرورقت عيني أمي بالدموع رغماً عنها وهي تراني بثوبي الأسود الذي لم أستطع تغيير لونه بعد . . . لم يكن من السهل عليّ بعد أن أخلع السواد ، حتى عيني لم أضع حولهما الكحل . . . ووجهي تركته بلا أي نوع من المساحيق ،

أحسست أن أي زينة قد أضعها تعد خيانة لذكرى حمد التي تسكنني وبشدة !

شيئاً فشيئاً بدأت أتحدث مع الموجودين ، وكأنني أتعلم الكلام ، عدت إلى بيتنا بعدها وأنا مرتبكة فقد اعتدت على البقاء وحدي فأربكني وجود الناس من حولي . . .

في اليوم التالي جاءت عمتي حصة إلى الكويت ، كانت تجلس بالصالة مع زوجها عادل عندما نزلت ،

ضمتني إليها بحنان جارف . . . واقترب مني زوجها وقال بلهجته البحرينية المحببة : حمدالله على السلامة . . . وعظم الله لكِ الأجر . . .

قلت له مداعبة : ياه . . . لم أكن أحب أن تكون أول رجل أراه بعد العدة . . . قالوا لي أن أول رجل سأراه بعدها سيموت . . .

ظهر الخوف على وجه عادل وضحكت عمتي حصة لدعابتي ، فأحسست بالخجل من زوج عمتي الطيب الذي أحبه وأقدره كثيراً فقلت : لا تخف . . . أنا أمزح ، ثم أنني التقيت بكل رجال العائلة بالأمس .

سكت مبتسماً وقد ظهر الارتياح على وجهه فقلت صادقة : أتمنى لكما عمراً مديداً . . . عسى الله أن يحفظكما ويمد في عمريكما فتريان أحفادكما وأولاد أحفادكما أيضاً .

قالت عمتي بحب : آمين يا بسمة .

قال عادل : ما رأيك لو أتيت معنا إلى البحرين؟ ستكون فرصة جميلة أن تغيري مكانك وتخرجي من جو الحزن هنا .

قالت عمتي بحرارة : فكرة رائعة . . . ما رأيك يا بسمة؟

قلت لها بحيرة : أنا ملتزمة بالجامعة وعليّ أن أذهب للدوام فقد انتهت إجازة العدة من الممكن أن أسافر إليكما بعد الامتحانات .

صفقت عمتي كطفلة : فكرة رائعة ، سنكون بانتظارك .

وذهبت إلى الجامعة واجتمع حولي جميع معارفي . . . الكل يسألني عن ما مررت به ، البعض يدعوه الفضول لسماع قصة ألمي والبعض يكتفي بتعزيتي ويلجم فضوله مراعاة لمشاعري وشتان بين الاثنين . . .

فرح الدكتور خالد لرؤيتي وقدم لي التعازي وأخبرني كم حزن من أجلي . . . وبعد عدة أيام ذكرني بموضوع عملي في الجامعة وعن رغبته بأن التحق بالفصل الصيفي لهذا العام لأحضر محاضرات أحد المعيدين ، فأخبرته أنني أخطط للسفر للبحرين لعمتي ،

لم أكن جاهزة بعد للانغماس في الحياة ، فقد كان جبروت الموت لا يزال يعيقني . . . فموت حمد لم يكن أمراً عادياً ، كان موتاً سلبني أجمل حب في حياتي ، وأبقاني جوفاء من الداخل ، كجسد بلا روح ، كقلب بلا نبض ، وكيان بلا إحساس . . .

قدمت امتحانات ذلك العام بسهولة فقد كنت أحفظ الكتب ، وقبل ظهور النتائج سافرت إلى البحرين ،

وتعجبت كثيراً لوجود كل هؤلاء الناس ذوي القلوب الطيبة في بلد واحد ، وكعشقي لعمتي حصة وزوجها عشقت البحرين وناسها وقضيت فيها أياماً طيبة . .

بعد أربع سنوات

(50)

لازلتُ حية

كان الشتاء في ذلك العام بارداً جداً . . . ورغم أننا في شهر مارس إلا أن البرد لا يزال قارساً . . .

ارتديت ثيابي ذلك الصباح ، وبدوت أنيقة ورشيقة جداً بعد أن فقدت وزني الزائد قبل عام ، ووضعت زينة صباحية خفيفة وتوجهت إلى الجامعة حيث أعمل كمعيدة للتمويل منذ تخرجي . . .

دخلت الجامعة وأنا مبتسمة ، وتذكرت أيامي فيها كطالبة ، اتصلت بشريفة التي ردت بصوت نائم فقلت ضاحكة : ألم تلدي بعد؟ قلتِ إنك ذهبت البارحة إلى البحر لتمشي على الرمل .

قالت شريفة : هذا الطفل العنيد لا يريد أن يخرج من بطني .

ضحكت على كلامها وأوصيتها بالاتصال بي فوراً إذا جاءها المخاض فأنا أحب أن أحضر ولادة طفلها الأول .

لم تكن شريفة تعمل فزوجها محمد اشترط عليها البقاء في البيت عندما تقدم لها ، وهو طبيب مرموق ولديه عيادة ناجحة ، ويحب أن تتفرغ له زوجته في الأوقات التي يقضيها في المنزل رغم أنه رجل مشغول على الدوام . . .

ذهبت إلى مكتبي الأنيق الصغير ، وجلست أحضر لمحاضرتي وأراجع التمارين التي سأقوم بشرحها للطلبة حسب طلب الدكتور خالد الذي أصبحت أعمل معه . . .

مددت يدي إلى الرزنامة الموضوعة على المكتب ونزعت ورقة تاريخ الأمس ، ابتسمت وأنا أقرأ تاريخ اليوم . . . 21 مارس . . . إنه يوم عيد الأم . . .

بقيت في مكتبي إلى أن حان وقت محاضرتي فألقيتها بتركيز كعادتي ، أجبت على أسئلة الطلبة برحابة صدر واهتمام . . . كانوا مقربين مني جميعاً ، فأنا أصغر معيدة في الكلية لذلك يشعرون بالتقارب نحوي وكأنني زميلة لهم ، لكن تسبقهم بمراحل . . .

ذهبت إلى الدكتور خالد بعد المحاضرة وأخبرته أنني حللت مع طلبته جميع التمارين المطلوبة ،

ابتسم لي بلطف وقال : ممتاز . . . لاتعرفين كم يحبونك ، أحياناً يخبرونني أنهم يفهمون ما تقولين أكثر من ما أقوله أنا .

قلت ضاحكة : ذلك مستحيل . . . فأنت أستاذي أولاً وأخيراً ، وكل ما أعرفه تعلمته منك أنت . . .

ضحك الدكتور خالد وقلت له بعدها : دكتور ، أريد الاستئذان منك لأخرج الآن . . . لدي أعمال كثيرة اليوم .

قال : كنت أحب أن أعطيك الامتحان القصير الذي أجريته بالأمس لتصححيه . . .

قلت بسرعة : سأخذه معي إلى البيت وأسهر على تصحيحه ، تعرف أن اليوم عيد الأم ، وأريد شراء بعض الحاجيات لأمي وجدتي .

ابتسم وهو يقول : فهمت . . . تفضلي . . . في هذا الظرف أوراق الامتحان . . . تستطيعين الذهاب الآن . . . وكل عام وأمك وجدتك بخير . . .

كنت أعرف أن الدكتور خالد وحيد أمه ولديه ثلاث أخوات متزوجات . . . عرفت تلك المعلومات منه في أحد الأيام وبالصدفة خلال حديثه عن عائلته . . .

توجهت إلى محل الحلويات واستلمت طلبي منهم ، ثم توجهت إلى محل الزهور استلمت طلبي منهم أيضاً . . .

اتصلت بدلال وردت على الفور ، سألتها إن كانت قد خرجت من دوامها فقالت إنها فعلت وستأتي للغداء في منزل جدتي كما اتفقنا ،

وأوصيتها بالتأكيد على تهاني أيضاً بأن لا تتأخر ،

قدت سيارتي وأنا أفكر بأختيّ . . .

أنجبت تهاني ولداً جديداً اسمته صقر ،

وأنجبت دلال ابنتين جميلتين تذكراني بالقطط البيضاء اسمتهما جوى وجادل . . .

كنت أعشق هؤلاء الأحفاد . . . كلهم رائعون وأحب جادل على وجه الخصوص لأنها تشبهني كثيراً وتملك عينيَّ الواسعتين وابتسامتي البيضاوية المميزة . . . كم أحب الأطفال ،

وصلت إلى المنزل وساعدتني الخادمة بحمل الأغراض للداخل ، غيرت ملابسي وبدأت تصليح الاختبار القصير إلى أن يحين وقت الغداء ، تناهى إليّ صوت الأطفال على الدرج ، واقتحمت الفتاتان جوى وجادل غرفتي عنوة ففتحت لهما ذراعيّ . . . قبلتهما كثيراً وأنا أداعبهما ثم أخفيت أوراق الاختبار بسرعة . . . ففي حادثة لا أنساها رسمت جوى بالألوان على ورق أحد الامتحانات وكدت أموت من شدة الخجل أمام الدكتور خالد . . .

نزلت مع الصغيرتين حيث وصلت تهاني وأطفالها أيضاً ، عاد مجبل من كليته وأخذ يشاكس الأطفال ويزعجهم وهو يضحك كالعادة . . . نزلت أمي وهي ترتدي ثوباً طويلاً مطرزاً بحروف عربية كبيرة وقد بدت جميلة فيه ، قبلنا رأسها ثم خرجنا كلنا إلى منزل جدتي نشمية ،

وقفنا أمام جدتي التي لا تزال ذات هيبة عظيمة وقبلنا رأسها تباعاً ،

على مائدة عامرة جلست وسط عائلتي وأنا أتأملهم وهم يتحدثون ويتكلمون بلا توقف ،

لقد تغيروا كلهم وتغيرت حياتهم ، إلاّ أنا . . . لا يزال الزمن يقف بي . . . ولازلت كما أنا . . . وحيدة مع ذكرى رجل ترفض ذكراه عتقي . . . تقدم لي خاطبين أحدهما كان مطلقاً دون أولاد والآخر كان أرملاً مثلي وله بنت واحدة ، ورفضتهما . . . فبعد حمد من الصعب أن يكون في حياتي رجل آخر . . .

كانت أمي تلح عليّ كثيراً ، تحذرني من البقاء وحيدة إلى الأبد ، وترجوني بالتخلي عن موقفي الرافض للزواج ، لكن الأمر لم يكن بيدي .

بعد الغداء أحضرنا الكعكة الكبيرة المزينة بالورود ، والتي كتبنا عليها عيد أم سعيد .

والتف الأطفال حولها ، قدمنا هدايانا أولاً لماما نشمية ثم لأمي الغالية ، وقدمت لهما أيضاً الزهور التي أصبحت أحبها . . . فمؤخراً أصبحت أعشق الزهور وأحفظ أسماءها وأنواعها وإلى ماذا يرمز لون كل منها . . . أصبحت الزهور تذكرني بحمد أكثر مما تذكرني بماريا . . . فهي مثله . . . جميلة وذات رائحة مميزة . . . وعمرها قصير . . .

في عصر ذلك اليوم حملت كيساً صغيراً وباقة ورد جميلة . . . وخرجت من بيتنا إلى بيت حمد ، ضغطت جرس الباب ففتحت لي الخادمة التي تعرفني مرحبة . . .

دلفت إلى الصالة وقامت خالتي لترحب بي : أهلاً أهلاً بكِ يا بسمة . . .

قبلتها بحرارة وأنا أقول : كل عام وأنتِ بخير . . .

كانت هبة هناك وهاجر وابنها حمد الذي لم يكمل العام من عمره بعد هناك أيضاً ،

في حين كانت آلاء وولدها حمد وابنتها سمية يجلسون بجوارها وقد انتفخ بطنها بحملها الثالث ،

أما فواز فكان يجلس بجوار أبيه ، وسعود الذي أصبح صوته خشناً ونبت شاربه قليلاً موجود أيضاً . . .

سلمت على الجميع في الوقت الذي أحضرت فيه هبة كعكة كبيرة ، قال فواز : هذا العيد بدعة كبيرة ، لا يجوز الاحتفال بعيد الأم ، فلدينا عيدان فقط ، عيد الفطر وعيد الأضحى .

قلت له مناكفة : اقرأ المكتوب على الكعكة «Happy mother day» ذلك معناه يوم الأم ، وليس عيد الأم ، ثم ما الحرام إن أفرحنا قلب أمهاتنا يوماً في السنة؟

قال فواز بحدة : المفروض أن نفرحهن في كل أيام السنة . . .

قلت له : صحيح ، لكن انشغالنا بمسؤولياتنا وروتين الحياة اليومية ينسينا التعبير لأمهاتنا وإخبارهن كم نحبهن ثم إنها فكرة جميلة جداً برأيي ولا تضر أحداً . . . بصراحة أنا أحب عيد الأم وعيد العشاق أيضاً . . .

جحظت عيني فواز وقبل أن يقول شيئاً تدخلت هبة وهي تنظر إليّ عاتبة : كفاكما نقاشاً ودعونا نأكل الكعكة . . .

قال فواز وهو يقوم غاضباً : لا حول ولا قوة إلا بالله .

وذهب . . . ضحكت أنا من كل قلبي . . . كنت أحب إزعاجه وإغاظته . . . لقد أصبحت مثل مجبل الذي يناكف الأحفاد . . . كان فواز أخي الثاني في هذه الدنيا ، لقد عرفني وعرفته في أسوأ حالاتنا ، واجتمعنا معاً على الحب والإخلاص لشخص واحد . . . حمد . . . لذلك كنت أكن لفواز مشاعر نبيلة . . . وأعلم أنه يفعل مثلي ، فكلانا عشقنا حمد وكنا مستعدين للتضحية من أجله إلى أبعد الحدود . . .

قدمت لأم حمد هديتها . . . وفرحت بها كثيراً . . .

وبعد برهة عاد فواز وجلس . . . فقالت أمه : فواز جرب الكعكة من أجلي ، إنها لذيذة جداً فقال بطريقة مضحكة : ضعوا لي قليلاً . . . فقط من أجلكِ . قدمت له هبة حصته وهي بالكاد تكتم ضحكتها ، أما آلاء فقد كانت تشكو من الثقل الذي تحسه بسبب حملها وأوصيتها بإخباري عندما تلد لأزورها في المستشفى . . .

لقد أصبحت جزءاً من هذه العائلة رغم رحيل الانسان الذي كان يربطني بهم . . .

لكنني بقيت أواصلهم . . . وبالذات أم حمد التي أصبحت متعلقة بي كثيراً . . . كانت تخبرني أنني أذكرها بحمد كلما دخلت عليها ، وكأنه هو الذي يدخل عليها . . .

تبرعت خالتي بحاجيات حمد لأحد اللجان الخيرية ، فعلت ذلك بعد إلحاح شديد من فواز . . . في حين تركت لنفسها بعضاً من أغراضه لتتذكره على الدوام أما أنا فلم أخلع دبلته قط من اصبعي ، وفي إحدى المناسبات فقدت السوار الذي ألبسه لي ، كدت أجن ليلتها وفي الصباح التالي ذهبت إلى مكان تلك المناسبة بنفسي وأخبرت الخدم أن من تجده سيكون لها مكافأة بضعف ثمن السوار ، فأعطته لي إحداهن ، وكدت أقبلها من فرط فرحتي ، وأعطيتها ما وعدتها به . . .

لم أكن بحاجة لشيء يذكرني بحمد فهو يسكنني أساساً ، لكن لتلك الحلي قيمة عظيمة في نفسي فحرصت على المحافظة عليها . . .

أمر واحد عجزت عن القيام به خلال كل تلك السنوات ، وهو زيارة قبر حمد ، وصلت مرة إلى المقبرة . . . لكنني جبنت عند زيارته ، فعدت أدراجي مسرعة ،

كنت أخاف أن أرى قبره . . . لسبب ما كنت أشعر أنني قد أنهار إن رأيت ذلك القبر الذي يضم جسد حبيبي . . . لم أكن أعرف أنني صنعت من قلبي أيضاً قبراً له . . . فذكراه كانت مدفونة في صدري فأصبحت مدفونة أيضاً مثله رغم أنني لازلت حية .

(51)

بسمة جديدة

جاءني اتصال شريفة في السادسة صباحاً وكان يوم الجمعة ،

قفزت من سريري وقد خفق قلبي ورددت عليها بصوت مبحوح : ألو . . .

صرخت شريفة : سألد يا بسمة ، أنا الآن في المستشفى تعالي بسرعة !

وقفزت من سريري ، ارتديت ملابسي على عجل . . . بصراحة لم أستوعب أصلاً ما الذي ارتديته إلا لاحقاً . . .

مشطت شعري بسرعة وغسلت وجهي ثم خرجت بهدوء كي لا أزعج أحداً . . . فأمي لا تزال نائمة والخدم أيضاً ،

ركبت سيارتي واتجهت مباشرة إلى المستشفى التي أعرف أن شريفة تنوي الولادة بها ،

كان الشارع خالياً تماماً . . . فالكل نائم في هذا الوقت في يوم العطلة الاسبوعية . . . وذلك دفعني للقيادة بسرعة جنونية كي لا تفوتني ولادة صديقة عمري ووصلت إلى المستشفى . . . فوجدت زوجها يقف في الممر بجوار غرفة الولادة وهو يحدث إحدى الممرضات ،

اقتربت منه وأنا ألهث : مرحبا دكتور محمد . . . أين شريفة؟

ابتسم لي وقال وهو ينظر إلى ساعته : لقد وصلتِ بسرعة قياسية . . . لو كنا طلبنا الإسعاف لما وصلوا بهذه السرعة .

قلت وأنا متوترة : لا تقل لي أنها ولدت؟

قال ضاحكاً : لا تقلقي لم تلد بعد . . . أتعرفين . . . رفضت أن نوقظ أمها . . . وأصرت على إيقاظكِ أنتِ .

تنهدت وقد ارتحت لأنني وصلت في الوقت المناسب ولم تفتني ولادتها ،

قال محمد : لقد بدأت التقلصات البارحة . . . وأبقيتها تحت ملاحظتي . . . لا أظن أن الموضوع سيطول ، ادخلي إليها . . .

ودخلت إليها . . . صديقتي وأختي وحبيبتي وأمي أحياناً . . . كم هي مخلصة . . . إنها كنز في زمن ندرت فيه الصداقة الحقيقية وانتشرت فيه صداقات المصلحة كم أنا محظوظة بكِ يا شريفة .

ووجدتها تتعذب وتبكي ، وبرقت عيناها لرؤيتي وصرخت : بسمة . . . أعتقد أنني سأموت .

صرخت بها : لا تقولي هذا الكلام ، إن مت فمن يبقى لأجلي؟ ستقومين بالسلامة . . . كوني قوية ، ستصبحين أماً . . .

أمسكت يدها ، مسحت عرقها الممتزج بدموعها ، كانت تتلوى ألماً . . . لم أكن أعتقد أن الإنسان يستطيع احتمال كل هذا الألم من أجل أن ينجب إنساناً آخر لهذه الدنيا . . . دنيا الشقاء والبلاء . . . هل أصبحت متشائمة؟ ربما ! فما

مررت به لم يكن هيناً . . .

مرت ساعة أخرى . . . وأتت الطبيبة لتفحص شريفة ، وأخيراً قالت : جهزوها ستلد قريباً . . .

التفتت نحوي الطبيبة وقالت : هل أنتِ متزوجة؟

ودون تفكير قلت : لا . . .

فنهرتني قائلة : اخرجي إذن . . . لا يمكنك حضور الولادة .

قلت لها بسرعة : أقصد أنني . . . أرملة . . .

نظرت إليّ الطبيبة بدهشة . . . فقد بدوت بملابسي الرياضية وشعري المربوط خلف رأسي ووجهي الخالي من المساحيق أصغر بكثير من عمري الحقيقي ، وأصغر بكثير من أن أكون أرملة .

سمحت لي الطبيبة بالبقاء فوقفت عند رأس شريفة التي تعالت صرخاتها . . . شجعتها وقد شعرت بالخوف عليها ، وخلال لحظات شهدت بعيني معجزة إلهية حقيقية . . . إن الولادة معجزة رائعة . . . إنها الحياة بأكملها . . . إنها أجمل ما قد يشهده إنسان . . . تعالت صرخات تلك الصغيرة لتعلن عن قدومها للدنيا . . . وبلحظة تذكرت الموت . . . موت حمد . . . لقد كان الموت أيضاً معجزة حقيقية ، بحيث يخرس صوت الأحبة ويغتصب نبضات قلوبهم لنلتاع نحن الأحياء بعدهم . . . تلك كلها سنن الحياة ، أشخاص يولدون وأشخاص يموتون . . . لكن الولادة أجمل بكثير من الموت !

تلقت الممرضة الطفلة بين ذراعيها وغطتها بملاءة بيضاء ، قربتها من وجه شريفة التي ابتسمت بإعياء ،

قالت شريفة بضعف : يقولون إن دعاء المرأة أثناء الولادة مستجاب وقد دعوت لكِ يا بسمة . . .

نظرت إليها متسائلة ، فقالت : دعوت لكِ أن تصبحي أماً أنتِ أيضاً . . .

نظرت إلى الصغيرة ذات الوجه الباكي المنتفخ . . . أيمكن أن أنجب أنا أيضاً مثلها؟

قالت شريفة : بسمة احمليها . . .

فقلت متفاجئة : الآن؟

فقالت متأملة : أحب أن تكوني أول من يحملها من العائلة . . . وحملتها رغم اعتراض الممرضة التي تريد تنظيفها . . .

خفق قلبي بقوة والصغيرة الحمراء بين ذراعي ،

وأخيراً قالت شريفة : والآن بسمة الكبيرة تحمل بسمة الصغيرة .

وعندما استوعبت قصدها . . . بكيت !

(52)

احساس لا يزال موجوداً

كان استقبال شريفة رائعاً ، وقفت فيه معها كأخت حقيقية لها ، وبسمة الصغيرة أصبحت جزءاً جميلاً من عالمي . . . كانت بادرة شريفة بتسميتها على اسمي بادرة طيبة ذات معنى عميق ينم عن حب كبير يجمع بيني وبينها . . . ما أروعك يا شريفة . . .

انتقلت شريفة لمنزل أمها لتقضي فترة الأربعين وأصبحت شبه مقيمة عندها ، أذهب إليها بعد الدوام وأحياناً قبله إن سمح لي الوقت ، وعندما يزورها زوجها أحياناً وقت الغداء كنت أجلس مع أمها . . .

أصبحت أبقى في بيتهم أكثر مما أبقى في بيتنا ،

جاءت عمتي حصة من البحرين في تلك الأيام وتعجبت من تعلقي بالطفلة . . .

قالت لي ذات ليلة : ما رأيك أن تأتي إلى البحرين وتربي حصة الصغيرة؟

ضحكت على كلامها فعمتي حصة أصبحت جدة بعد أن أنجبت ابنتها التي تزوجت أيضاً بنتاً العام الماضي أما ولدها فقد تخرج من الولايات المتحدة مؤخراً ، ورغم أن عمتي أصبحت جدة إلا أنها لم تتغير ، لازالت جميلة نضرة ، ومدللة ، والسر في ذلك بلاشك هو حب عادل لها وحبها هي له ، فالحب هو إكسير الشباب وكم من شابات يشعرن بالهرم والكبر لأنهن محرومات من الحب .

قلت أشاكس عمتي : أنت لديك حصة صغيرة وقد أصبحت جدة أما أنا فلدي بسمة صغيرة دون أن أصبح أماً حتى .

قالت عمتي بحنان : يجب أن تصبحي أماً يا بسمة .

تغير وجهي لكنني استدركت ضاحكة : أنا راضية بنصيبي ، خاصة بعد أن رأيت عذاب الولادة عندما ولدت شريفة .

اقتربت مني عمتي بهدوء وربتت على كتفي . . . قالت لي : بسمة ، أنا أعرف كم تعذبت ، وأعرف أيضاً كم أحببت حمد ، لكنكِ لازلتِ شابة . . . والحياة ستعوضك فقط افتحي قلبك للحياة ، وإنَ تقدم لك رجل مناسب لاتترددي ، لا تبقي وحيدة بإرادتك . . . غداً تمر الأيام وتكبرين وتعيشين وحدك . . . يجب أن تكوني عائلة تخصك فأي عائلة أخرى ستكونين مجرد ضيفة فيها .

قلت لها بصدق : لا أستطيع يا عمتي . . . أشعر أنني سأخون حمد لو تزوجت بغيره . . . كيف أغدر به؟

قالت : حمد توفي . . . وأنت لازلتِ على قيد الحياة ، وزواجك لا يعني أبداً أنك نكثت بإخلاصك له . . . لكنَك امرأة والزواج ستر لك ، ماذنبك أن تحرمي نفسك منَ الأمومة؟ على الأقل تزوجي لتنجبي .

قلت لها : ما أسهل الكلام . . . أنتِ لا تعرفين ما هو حمد بالنسبة لي .

ردت عمتي : تقصدين ما كان حمد . . . كان يا بسمة . . . حمد الآن غير موجود . . . مهما كانت تلك الحقيقة قاسية ومؤلمة عليك التسليم بها . . . واستيعابها ، أما أنتِ يا بسمة فموجودة ، حزينة ووحيدة ، تعيشَين على الذكريات

وتقتاتين على الحزن ، عليكِ أن تتحرري يا بسمة . . .

وسكت . . . وفكرت طويلاً في كلامها تلك الليلة . . . نظرت إلى دبلة حمد في اصبعي . . . وسواره حول معصمي ، كنت أشعر أنه لا يزال معي ، بشكل لا أستطيع تفسيره كان وجوده محسوساً بداخلي ، وكأن طيفه يحوم حولي ، لم أنسَ تفاصيله بعد ، لون عينيه ونظراته العاشقة الحانية لي ، ملمس جلده قبل وبعد مرضه ، نبرة صوته ، كل تفاصيله صارت جزءاً مني . . . وكأننا شخص واحد ، واحد حاضر في الحياة والآخر غائب عنها لكنه كامن في الآخر ،

يصعب عليّ تفسير ما كنت أشعر به ، حتى بعد كل تلك السنوات ، كانت ذكرياتي مع حمد طازجة ، وكأنها حدثت في الأمس . . .

كان احساسي بحمد لا يزال موجوداً في داخلي وكان هذا الاحساس عزائي الوحيد بعد فقده ، كم كنت اشتاق له ، في بعض الأحيان كانت أمي تتحسر عليّ وهي تعتقد أنني نادمة على أنني لم أسمع كلامها ونصائحها قبل زواجي من حمد ،

لكنني في داخلي وفي أعماقي كنت مستعدة للزواج به ألف مرة حتى وإن كان رحيله محتماً ، فقد أحببته والحب الحقيقي يستحق أن نعيشه ولو لوقت قصير .

(53)

تخمين

حسناً لابد أنكم جميعاً خمنتم بما يكنه الدكتور خالد لي؟ أليس كذلك؟

حسناً إنكم على حق . . . وظنكم في محله . . . لا أعرف لم أنا الوحيدة التي لم أخمن الأمر مثلكم . . . ذلك الرجل الذي اهتم بي منذ كنت طالبة واهتم بتوجيهي لأعمل تحت رعايته في الجامعة ، وكان حريصاً دائماً على تعليمي وتثقيفي وتشجيعي أيضاً . . . وكنت دائماً أعمل معه هو دون غيره . . . لم أكن أعرف أنه يكن مشاعر خاصة نحوي . . . إلى أن أتى ذلك اليوم . . .

كنت معه في المكتب . . . وحدنا . . . نحضر امتحاناً للطلبة ، وكنا نناقش جزئية مهمة وصعبة في الامتحان . . . إلى أن لاحظت فجأة أن الدكتور خالد يتأملني ، وكأنه معجب بي ! فجفلت . . .

كانت حقاً مفاجأة غير متوقعة . . . أن يكون الدكتور خالد معجباً بي ! !

قال لي : بسمة . . . كنت متردداً كثيراً في التحدث معك . . . لكنني قررت أن أفعل . . . مهما كانت النتائج أريد أن أجازف . . . وكأنني أرمي نفسي في البحر وانتظر أن يأتي أحد لإنقاذي .

قلت مرتبكة أمام رجل حظي على الدوام بتقديري واحترامي ولم أكن أريد أن يُفسد ما بيننا : ماذا تقصد دكتور؟ أنا لا أفهم شيئاً !

قال : لا تفهمين شيئاً . . . لأنك لا تلاحظين أحداً . . . لقد أحطت نفسك بأسوار الحزن ، ونسيت أن في الحياة أفراحاً كثيرة تنتظرك .

قلت مندفعة : وكأنك تتحدث بلسان عمتي حصة !

قال ضاحكاً : لأنها تحبكِ . . . كما أحبكِ أنا أيضاً . . .

ووقفت غاضبة . . . أغضبني أن أسمع كلمة حب من رجل غير حمد ، نعم . . . كان الحب أمراً مرتبطاً بحمد فقط في حياتي ، ولم أتقبل سماع تلك الكلمة من خالد . . .

وقف خالد وقد أحس أنه تسرع كثيراً وقال : أنا آسف على جرأتي ، لكنني فعلاً أكن لك شعوراً عميقاً . . . أتعرفين عندما كنت طالبة عندي كنت أحب النظر إليك ، كانَ فيك شيئاً يروق لي ، ربما ذكاؤك ، شَخصيتك البسيطة الصريحة ، اجتهَادك . . . لم أكن أعرف ما هو بالضبط ما كان يعجبني فيك . . . وقتها لم أكن أعرف أنني أحبك إلى أن وصلني خبر خطبتك ، وقتها انزعجت ! وانزعجت أكثر من انزعاجي ! قلت لنفسي ما شأنك بها إن خطبت ! وقتها عرفت أنني أكن لك شعوراً ما ، وعرفت أنني تأخرت ، فتمنيت لك السعادة من كل قلبي رغم شعوري الكبير بالخسارة . . .

نظرت إليه بدهشة فما كان يصارحني به لم يخطر أبداً لي على بال !

أكمل الدكتور خالد حديثه : عندما عرفت بخبر وفاة زوجك صُدمت ، وحزنت من أجلك كثيراً ، صدقيني . . . تألمت لأنك خسرته بهذه السرعة . . . وانتظرتك . . . أرَدت أن أواسيك بشكل أو بآخر . . . وكما تعلمين فعلت ذلك

من خلال تشجيعك على العمل ، فالعمل أفضل طريقة لنسيان الألم . . .

وتذكرت بلحظة كم سعى الدكتور خالد لانتشالي من يأسي ، كيف أشاد بي دائماً وتوسط لي كي أحظى بوظيفتي التي كنت أستحقها وبجدارة ، كم كان صبوراً معي وكيف علمني الكثير ، وكان دائماً ودوداً ومتفهماً لكل ظروفي . . .

نظرت إليه لأول مرة كرجل يحبني . . . لا كالدكتور خالد الذي اعتدت عليه ، وفي عينيه وجدت حناناً كبيراً ، ذكرني لوهلة بحنان أبي الراحل . . .

قال خالد : أحب أن أرتبط بك . . . بل أتمنى ذلك من كل قلبي . . . بسمة لا أريد ردك الآن . . . فكري . . . خذي كل الوقت الذي تريدينه . . . وقرري على أقل من مهلك . . . وتأكدي أنني مستعد لانتظارك طوال عمري . . .

(54)

زيارة ضرورية

نزلت من سيارتي وساقاي ترتعشان . . . وخطوت عدة خطوات قبل أن أتوقف لاسترجع أنفاسي . . .

ونظرت حولي . . . إلى القبور . . . إلى المكان الذي سنذهب إليه جميعاً في النهاية . . . كانت القبور حولي ، وأسماء أصحابها تدل عليها ،

سألت عاملاً رأيته يكنس المقبرة : كيف أصل لقبر أحد ما؟

فقال لي : هل تعرفين تاريخ وفاته؟ فالناس هنا تدفن حسب التواريخ والسنوات .

فأومأت ، وذكرت له تاريخ أتعس يوم في حياتي ، ومشيت خلفه . . . وعرفته . . . لابد أن هذا هو قبره . . . لقد دلني قلبي عليه فور اقترابي منه . . .

ومشيت نحوه . . . وعلى شاهد القبر رأيت اسمه الحبيب . . . . وتاريخ وفاته وعمره القصير . . .

كان القبر محاطاً بالرخام ، وبعض الزهور مزروعة على جزء ترابي منه . . . جلست بقربه ونظرت إلى التراب . . . وانسابت دموعي بنشيج لم أستطع أن أكتمه . . . هبت نسمة ريح لطيفة . . .

فأغمضت عيني ووضعت يدي على القبر . . . وللحظة أحسست به ،

وكأنه يحوم حولي ، وكأنه يمد يده ليربت على خدي ويزيح خصلة من شعري تدلت على جبيني . . .

وغمرني ارتياح عميق . . . واستكنت لذلك الشعور برهة . . . وكأنني في لقاء مع حمد فتحت عيني وقلت : تمنيت زيارتك كثيراً . . . ولوقت طويل عجزت أن أفعل . . . أتمنى أن تكون الآن في مكان أفضل . . . أتمنى أن تكون آلامك قد ذهبت . . . أنت الآن في ذمة الله وأنا مطمئنة أنك بخير . . . ولابد أن تعرف أنني لازلت أذكرك دائماً كما أوصيتني قبل أن ترحل . . .

حمد . . . أتيتك اليوم لأستأذنك . . . وأنت تعرف كم من الصعب عليّ أن أفعل . . . لكنني لم أستطع أن أقرر شيئاً دون استئذانك . . . لقد تقدم لي الدكتور خالد . . . وأنا محتارة جداً . . . يخبرني الجميع أن عليّ المضي بحياتي . . . في حين أخاف أنا من مخالفتهم هذه المرة . . . أخاف أن أندم لاحقاً إن فعلت . . . أخاف أن أظل وحيدة كما أنا الآن طوال عمري . . . أتيتك اليوم لأخبرك ولأؤكد لك أنني حتى وإن تزوجت سأظل أحبك . . . دائماً وأبداً ستبقى أنت في قلبي . . . و . . .

أتعلمون أنني بقيت يومها عند قبره أربع ساعات كاملة؟

لم أشعر بمرور الوقت . . . حادثته كما لو كان يسمعني ، شعرت به معي . . . وانزاح الكثير عن كاهلي بعد تلك الزيارة ،

وقبل أن أقوم قبلت شاهد قبره كما لو كنت أقبل رأسه ،

أشرت بيدي لذلك العامل وأعطيته المال وأوصيته أن ينظف قبره ويرشه

بالماء ،

ذهب العامل بعد أن أعطاني رقمه ،

خطوت لأبتعد عن القبر ، فأحسست أن حمد يناديني ، التفت وحدقت بالقبر . . . وقلت هامسة ودمعة ساخنة تكاد تحرق خدي : يا بعده . . .

(55)

زيارة أخرى

كانت تلك الزيارة أصعب بكثير من زيارتي لحمد . . . فزيارة الأحياء أصعب من زيارة الأموات . . .

دخلت إلى أم حمد ذلك المساء وقد هربت الدماء من وجهي ، خفت كثيراً مما سيحدث بعد أن أخبرها ، لكنني رأيت أن عليّ أن أفعل ذلك بنفسي . . . فعلاقتي بها تحتم عليّ أن أفعل . . .

كانت تجلس في الصالة تنتظرني وكعادتها ضمتني إليها بحنان . . . جلست بجوارها وأنا لا أعرف كيف أبدأ حديثي ، أحست هي أنني أعاني من خطب ما ،

فسألتني : بسمة . . . ما الأمر؟

قلت لها : خالتي . . . لقد تقدم لي شخص . . .

وسكت ، لم أستطع أن أكمل جملتي . . . ووجمت هي . . . ساد الصمت بيننا . . . وفجأة انهمرت دموعها . . . وبلحظة رميت بنفسي بين أحضانها باكية أنا أيضاً ، وأخبرتها كل شيء ،

حكيت لها عن أمي التي قالت لي إنها لن ترضى عني أبداً إن لم أتزوج الدكتور خالد ، وأن لها حقاً علي فهي من أنجبتني وربتني وحان الوقت لأفعل هذا الشيء من أجلها . . .

أخبرتها عن جدتي نشمية التي وافقت على زواجي من خالد بأمر منها ، ودون سماع رأيي وكأنها تعطيني العذر أمام نفسي بأن أكون مجبورة على الزواج كي لا أشعر بالذنب إن وافقت بنفسي . . .

أخبرتها عن عمي ماجد الذي حادثني طويلاً بخصوص مستقبلي خاصة وأن الدكتور خالد رجل تشرفنا مصاهرته وأخبرني أن عليّ الامتثال لرغبة أهلي بعد أن امتثلوا كلهم لرغبتي في الماضي . . .

أخبرتها كم نصحتني شريفة بالموافقة فهي تعرف خالد مثلي ، وتكن له كل الاحترام والاعجاب ، وكادت تجن من شدة فرحتها لأنه تقدم لي . . .

وأخبرتها عن عمتي حصة ، دلال ، تهاني ، وحتى مجبل ، لقد أجمع الجميع على الموافقة وبالتالي كان عليّ أن أوافق أنا أيضاً هذه المرة . . .

قبلت يدّ أم حمد . . . وقبلت هي رأسي وقالت : أعرف أنه من الأنانية أن أقول لك أن لا تتزوجي فأنت لازلت شابة ورغم ذلك يصعب عليّ أن أبارك لكِ . . . كل ما سأقوله . . . شكراً لكِ يا بسمة لأنك منحتِ ولدي في آخر أيامه حباً كبيراً وتضحية عظيمة ، شكراً لأنك أسعدته وحققتِ له أجمل أمانيه وكنتِ معه في رحلة علاج صعبة وقاسية ، شكراً لأنك ملأتِ الفراغ الذي تركه حمد في بيتنا وبقيتِ تزورينا دائماً وكأنك لازلت زوجة لولدنا ، شكراً يا بسمة لأنك بلسماً لقلب أم فقدت فلذة كبدها ووجدت فيك شيئاً منه ، تشعر به كلما ضمتكِ إلى قلبها . . . شكراً لكِ .

وضمتني أم حمد إلى قلبها . . . ولم تكن تلك الضمة الأخيرة أبداً . . .

(56)

إنه يسكنني

سألت خالد قبل عقد قراننا : ألا تغار من رجل لا يزال يسكنني؟ أتقبل أن أتزوج بك ودبلته تحيط اصبعي وسواره يطوق ساعدي؟

فقال : من يسكنك مجرد ذكرى ، فذلك الرجل رحل ، وأنا هنا الآن لأسعدك . . . واحتفاظك بما تركه لك دليل وفاء لا أكثر . . . فاحتفظي بما تريدين ما دام هذا يريحك .

فاجأني جوابه . . . كم هو منفتح ليقبل بي بعد كل ما قلته له . . . ألأنه درس وعاش فترة طويلة بالخارج؟ أم لأنه فعلاً لا يغار من رجل غادر هذه الحياة؟

سكت قليلاً ثم سألته أيضاً : لم اخترت الزواج بي أنا بالذات؟ لم تمسكت بي رغم أنني أرملة وأنت لم يسبق لك الزواج؟

قال : لأنني أعرف أنني يوم أحتاج إليكِ ، أو أمر في محنة ما ، سأجدك بقربي . . . كما فعلتِ مع حمد .

وارتاح قلبي لإجابته . . .

(57)

النهاية

تعيش بسمة حالياً مع أسرتها ، وقد أنجبت ثلاثة أولاد . . . وحصلت على الماجستير وتحضر أيضاً للدكتوراه ، ولازالت إلى يومنا هذا تتواصل مع أم حمد وعندما أنجبت ولدها البكر أخذته لها بنفسها . . .

وبعدها أصبحت أم حمد تزورها دائماً سواء في بيت أهلها ، أو في بيت زوجها وأبناء بسمة ينادونها «جدتي» ،

تمنت بسمة لو أنها أسمت أحد أولادها حمد لكنها لم ترغب بإيذاء مشاعر خالد رغم أنه كان سيوافق لو أنها طلبت منه ذلك . . .

أمر آخر أود أن أذكره عن بسمة . . . أنها لا تزال رائعة . . . جميلة . . . طيبة . . . ومضحية لأبعد الحدود . . . اختياري لعنوان روايتها سيكون مفاجأة كبيرة لها . . . وأتمنى أن أكون قد وفقت في سرد قصتها التي أثرت بي من أعماق قلبي . . . وعلى فكرة دبلة حمد وسواره لا يزالان في يدها . . .

دمتم لي ،

https://t.me/tea_sugar

علياء الكاظمي

الإهداء

(وتعمدت وضعه في آخر القصة)

إلى روح رحلت

وروح بقيت،

لتهديني شرف تخليد هذه القصة

شكر وتقدير

للدكتور عبدالعزيز حمادة

مركز الكويت لمكافحة السرطان

الذي قام شاكراً بمراجعة المعلومات

الطبية الواردة في الرواية.

أن أحبك لدرجة تنسيني حزني،

أن أحبك لدرجة تلهيني عن نظرات الحسرة في عيون أهلي،

أن أحبك لدرجة تمحو فكرة الفراق من عقلي،

وتحيي مشاعر العشق في قلبي،

أن أحتضنك فأحس بكل الأمان في هذا العالم

يجتمع في صدرك أنت،

أن أشعر بأنفاسك حولي كرائحة بخور معتق أصيل،

أن أكون لك... وحدك... وكأنني خلقت منك،

كقطعة من قلبك، من روحك، من جسدك،

أن أكون زوجتك أخيراً رغم كل الصعاب...

منشورات
ذات السلاسل
الكويت